رواية

عودة الفرسان

سيرة محمد فتح الله كولن

رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب

فريد الأنصاري

دار النيل





رواية شاعرية النَّفَس، واقعية المضمون، وهّاجة النور، ساجية الأحزان، شاجية القلب، نازفة الروح، وجيعة الوجدان، تغني للأمل، وتهتف للمستقبل، تكفكف الدمع، وتمسح الألم...

قلم مداده الألم الممض، وحرفه ينبع من معين معاناة جاوزت كُلّ حد، وكلماته مصبُّ أوجاع بدنية وروحية.

هذا هو الكتاب الذي ألفه الأستاذ فريد الأنصاري قبيل انتقاله إلى العالم الآخر بأيام.. فجاء صفحة بيضاء يشيع الصدق في كل كلمة من كلماتها ليلاقي بها ربّه.

وهذا الكتاب يشكّل قمة ما قاده إليه تفكيره، وخلاصة تجاربه عبر سني عمره قبل أن يطوي آخر صفحة من صفحات حياته..


ISBN 978-975-315-344-7





دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

ISBN: 978-975-315-344-7

DAR AL-NILE

Kısıklı Mah. Meltem Sok. No: 5

34676 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185220

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

رواية

عودة الفرسان

سيرة محمد فتح الله كولن

رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب

فريد الأنصاري

دار النيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إهداء

أما هذه الورقات فإنني أهديها لكم

أنتم شبابَ العالم العربي..

عسى أن نبصر موقع الرأس من أمتنا..

فنسلك الاتجاه الصحيح،

نحو استعادة الروح الذي فقدناه...

محبكم: فريد الأنصاري

تقديم

ربما كان هذا النص الذي أقدمه اليوم للقراء رواية، أو سيرة، أو ربما كان قصيدة، أو كتاب تاريخ.. لست أدري..!

لكن الذي أدريه أنه حكاية عن أشجان روح، وتجربة وجدان، ونزيف أمة، وشلال من الشوق الخالص إلى الانعتاق، تدفقت أشعته من قلب رجل في بلاد الأناضول، حتى أشرقت على كل العالم..!

وإن يكن شيء من الذِّكْرَى أسجله ههنا حول هذا المكتوب، فهو أنني شرعت في تدوين ملامحه بمستشفى "سماء" في مدينة إسطنبول العامرة سنة ٢٠٠٨، ثم دونت بعضها بعد ذلك ببيتي في مدينة مكناس بالمغرب الأقصى، ثم قُدِّرَ لي أن أختمها بعد سنة كاملة بمستشفى "سماء" مرة أخرى في مدينة إسطنبول.

وقبل ختام هذا التقديم، لا بد لي من شكر من وجب عليَّ شكره، من الإخوة الأتراك الذين بذلوا قصارى جهدهم في ترجمة نصوص الحوار الصحفي الواسع، الموسوم بـ"دنياي الصغيرة"، حيث عرض فيه الأستاذ فتح الله كولن كثيرًا من فصول حياته، التي كانت المادة الرئيسية لهذا النص. كما ترجموا لي مشكورين نصوصا أخرى مساعدة، ثم زودوني طيلة سنوات من التواصل المثمر، بمعلومات ثمينة، عن حقائق تاريخية هامة، وظروف الخدمات الإيمانية بتركيا، مما لا تحتويه كتب ولا مدونات، كانت كلها مراجع لا غنى عنها في بناء هذا العمل.

فريد الأنصاري / إسطنبول: ٢٣/سبتمبر/٢٠٠٩م.

ورثة الأرض

"الدنيا تدور، وتدور.. وكلما دارت، فإنها تؤوب إلى فَلَكِهَا الأصلي. فيا ترى، هل ورثة الأرض الحقيقيون، جاهزون لاسترداد ميراثهم الذي أضاعوه، وسلبه الآخرون؟

إن الحق الموهوب ابتداءً شيء، والحق الموهوب بسبب التَمثُّلِ العملي شيء آخر. فالحق إن لم يُمَثَّلْ حسب مقاييس قِيَمِهِ الذاتية؛ فإنه يمكن أن يُسْلَبَ من أصحابه في أي لحظة، ويُسلَّمَ إلى قوم آخرين، يكونون أجدر ولو نسبياً بتمثيل الخير، وهكذا إلى أن ينشأ الممثلون الحقيقيون للحق."

"ونحن نقيم صرح الروح"، محمد فتح الله كولن.

الفصل الأول

الرحيلُ إلى مَشَارِقِ الرُّوح..!

رَجُلُ الأَسْرَار

فَتحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتحُ اللهِ وارثُ سِرّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعده رَهَباً!

فَتحُ اللهِ فَارِسٌ ليس تلين عَرِيكَتُهُ، ولا تضعف شَكِيمَتُهُ! ولَصَوْتُهُ في الكَرِّ أشدُّ من فرقعة الرعد! يقاتل في النهار حتى تذوب الشمس في دماء البحر، فإذا خَلاَ لِأَشْجَانِ الليل بَكَى..!

مَكِينُ الوثبة كالأسد، حادُّ الرؤية كالصقر، رهيب الصمت كالبحر، إذا سكتَ خَطَبَ، وإذا نطقَ الْتَهَبَ! وإنه لَيَشِفُّ كالزجاج إذا هو كَتَبَ!

كل الناس يعرف فتحَ الله، وكل الناس يسمع فتحَ الله، ولكن لا أحد يعرف ما يريد فتحُ الله! فلم يزل سِرُّهُ في صدره، يَقْبَعُ في الأعماق مثل اللؤلؤ المكنون!.. ومن يدري؟ فلعله فارسٌ لم يشرق بَعْدُ زمانُه! ولاَ حَانَ وقتُه وإبَّانُه! وأي بلاء أشد على المرء من أن يعيش قَبْلَ أَوَانِهِ؟ ويعاشرَ غيرَ أهلِ زمانه؟

ولم يزل فتح الله يرسم ملامح الماضي في لوحة المستقبل، فينفخ فيه؛

فيكون واقعاً بإذن الله! كلما كَتَبَ مقالاً أو خَطَبَ خُطبةً؛ تشكلت كلماته صوراً لقوافل الصحابة الكرام، ولجيش محمد الفاتح، يزحفون صَفّاً من خلف غبار الغيم، مَطَراً يهطل من أُفُقِ بلاد الأناضول على كل العالَم!

فَتْحُ اللهِ لا يملكُ من هذه الدنيا سوى ملابسه القديمة، ومحفظة أحزان صغيرة تصحبه أنّى حَلَّ وارتحل، لم يزل يحتفظ فيها بثلاثة مفاتيح عتيقة! الأول: مفتاح "الباب العالي" في إسطنبول، والثاني: مفتاح "باب الحِطَّةِ" في المسجد الأقصى، والثالث: مفتاح جامع قرطبة في أندلس الأشجان!

رجلٌ وحده يسمع أنينَ الأسوار القديمة، ونشيجَ الريح الراحل ما بين طنجة وجكارتا! وبكاءَ النورس عند شواطئَ غادرتها سفنُ الأحبة منذ زمان غابر، ولكن لم يشرق لعودتهم بَعْدُ شِرَاعٌ!.. فيبكي!

رجلٌ وحده يسمع صهيلَ الخيل القادمة من خلف السُّحُبِ، ونداءَ الغيبِ المحتجِبِ، إذ يتدفق هاتفه على شاطئ صدره، فينادي مِنْ عَلَى منبره: "ألا يا خيلَ الله اركبي!.. ويا سيوف البرق الْتَهِبي!"..

ويَرَى ما ليس يُرَى.. فيبكي!

فتح الله سيرةُ بكاء! لقبه الأسري: "كُولَنْ"، ومعناه "الضحاك" باللسان التركي، وهذا من عجائب الأضداد، ومن غرائب الموافقات أيضا! فهو بَكّاءُ الصالحين في هذا العصر، لكنه ما بكى إلا ليضحك الزمان الجديد، وليزهر الربيع في حدائق الأطفال. ما رأيت أحدا أجرى دمعا منه، ولا أكثر وَلَهًا.. وكأنما دموع التاريخ جميعا تفجرت أنهارها من بين جفنيه!..

ولقد أخطأ من ظنه يبكي ضعفاً أو خَوَراً، وإنما هو جَبَلٌ تشققت أحجاره عن كوثر الحياة الفياض، فبكى!..

الوعظ سر من أسرار فتح الله! فلم يزل منذ طفولته يبكي بمجالسه؛

فيبكي لبكائه كل عصافير الدنيا! ولقد رأيته يبكي طفلاً وشاباً، ثم كهلاً وشيخاً! ولم يزل يبكي ويبكي.. وما جف لتدفق شلالاته نَبْعٌ! بدموع مواعظه الْحَرَّى سقى فتحُ الله كل غابات بلاد الأناضول! وبها أروى عطش الخيل، وأطعم فقراء الليل! وبوابلِ بوارقها سقى كل صحاري العالم! ولقد عجبتُ من أي جبال الدنيا تخرج منابعه؟

ورحلتُ إلى طفولته؛ فلعلي أعثر على بدء تلقيه كرامات الأسرار وكيف؟

ولقد رأيتُ يا سادتي عَجَباً!.. كانت أسراب النحل تقتات من مَجْرَى مدامعه، فتنتشي آلاف الخلايا في كل مكان!..

....

كان مَرَضِي قد زادني رَهَقاً، فرأيتُ في منامي مَرَّةً أنني أستقبل بنافذتي نحلاً، ثم رأيتني مرةً أخرى آكُلُ عسلاً؛ فعلمت أنني مُنَادَى، ثم امتطيت أشواقي وألقيت بنفسي في أحضان الرحيل!

منازل التحولات

هنا إسطنبول.. هنا معبر الفاتحين إلى كل أدغال العالَم!.. ما أن دخلتُ بين مآذنها حتى انتشى قلبي أملاً! لكنني لما اقتربت من جِسْرِ الْبُوسْفُورِ مَسَّنِي فَزَعٌ!.. كانت النوارسُ تضج في الفضاء بشكل مثير على غير عادتها..! فلم أدْرِ أعُرْسٌ هو أم محض عويل؟.. ومن يدري؟

أبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أمْ غَـ   نَّتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ..؟

....

هذا مَقامُ تَغيُّرِ الأبْدَال.. ولِزَمانِ التحولاتِ وَقْعُ الزلازلِ على المنازِل!

كانت الأرض تدور بمنزلة ذات طبيعة أخرى، تتداخل فيها الشعاعات بين غروب وشروق!.. وكانت الريح تقصف ببرد قارس! وأسرابُ الحمام والنوارس تطير هاربة، لتحتمي من صقيعها تحت أضلاع المآذن والقباب!

كنتُ قابعاً بزاوية من زوايا سور القسطنطينية القديم، قريبا من باب المدرسة، أنتظر قدوم المعلم، حتى إذا بلغ العصفُ مداه انتفض بديع الزمان النورسي، وأطل من فوق قباب المدينة، ثم مَدَّ جناحيه العظيمين حول أسوارها حتى أحاط بجميع الأبواب! فظل كذلك زمناً يكابد وحده، ويجاهد قصف الريح وحده! وكلما أطل من تحت جناحيه ورأى سكون البلابل خلف القباب، دمعت عيناه في قَرّ الريح! وصاح في تيارها الشديد:

"يا سعيد..! كن صعيداً حتى لا تُعكِّرَ صَفْوَ رسائل النور..!"

حتى إذا هدأت العاصفة، قرأ سورة الفتح، ثم فتح الأبواب وانصرف!

ناديتُه بأعلى صوتي:

- يا سيدي المعلم! أمَا لآخِرِ الفرسان من عودة؟

التفتَ إليَّ بعبسةٍ ترسم ملامح الإنكار على صفحة وجهه المهيب! ورَمَاني بنورٍ لاهِبٍ من وهج عينيه! ثم قال:

- ويحك أيها الفتى المغرور! أما علمتَ أنَّ لكل زمان صاحبَه؟

- قلت: ومن يغلق أبواب الريح إذا هاج العصف من جديد؟

- قال لي: هذا مقام الفتح يا ولدي فليس لزمانه من إغلاق!

- قلت: عجبا يا سيدي! وما فَتْحٌ في زمن ليس تطيق عواصفَه الأبوابُ، ولا أسوارُ مدائننا القديمة!؟

- قال: ما أجهلك يا ولدي بزمانك! ارفع رأسك قليلا نحو الأفق الأعلى، تَرَ شمس البشرى ترتفع الهوينى من خلف الأحزان، وتَرَ كلمات النور الأولى ترسم بين يديها قوس قزح، وتطرز على موج البحر نبوءتها.. فإذا كنتَ ممن يحسن لغة الماء فاقرأ: "تُفْتَحُ القسطينيةُ أوّلاً ثم تُفتح روميةُ"!؟

- قلت: بأبي وأمي أنت يا سيدي! وما روميةُ؟

- قال: روميةُ يا ولدي امرأة ساحرة تسكن بين جوانحنا! هي عاصمة الشيطان الكبرى.. تنغرز قوائمها الأربع في بحر الظلمات! ولها في كل العالم أدخنة وحرائق! في كل يوم تُحرِّقُ ألفَ عصفور وحمامة! جيش النور الآن تجرد لها بأسلحة من وهج الشمس، وأميرُه يرتل من خلف الغيب سورة النصر، خاتمةً لمحن المستضعفين!.. وقريبا جدا سترى عجبا! جيش النور اليوم في كل العالم يقتبس من مشكاة الليل الأخضر زاداً للسير! فانظر ما حظك من مواجيده يا ولدي!

- قلت: وما سيماء أميره يا سيدي؟

- قال: لا تتعب نفسك يا ولدي في طلب الألقاب! فإنما هو طيفٌ، أو معنى، أو روح! بل هو قلبٌ من نور وهاج! هو جيش من ذَوْبِ الشمس، هو أشجانُ قلبٍ وترانيمُ روح، هو مكابدةُ حُبٍّ لم يزل جرحه ينزف من خابية مشقوقة! هو آهاتُ أشواقٍ ارتقت ما بين سجود وركوع، فتشكلت في الفضاء غيمةً ربيعيةَ اللون، مكتنزةً بالخير وبالبركات! لم تزل تهطل بالغيث في كل قارات الأرض! فارْقُبْ إن شئت حدائقَها أنى رحلت، تجدْ وردتَها متفتحةَ الأجفان ندية!

- قلت: فما نَسَبُهُ ومكانُه؟ ما مولده وزمانُه؟

- قال: ويحك يا صاح! أما صاحب هذا الزمان فله مولدان اثنان! أولهما هو في المكان، وقد كان الذي كان. وأما الثاني فإنما هو في الزمان! فارْتَقِبْ إبّانَ هيجانِ الجرح، يومَ تأتي الرياح بحداء الأنين! فإنه لا ميلاد إلا بألم! واظفر بثاني المولدين تَرِبَتْ يداك! إنك يا ولدي إن تدرك إشراقته تكن من الفاتحين!

- قلت: فهل لي أن أكون من طلائعهم؟

- قال: بل دون إدراك منازلهم كلمةُ سِرٍّ مخفية في حوصلة الطير!

- قلت بلهف: أي طير يا سيدي؟

وانقطعت التجليات!

....

ثم مكثت عاما كاملا بعد تلك المشاهدات! أنتظر المزيد ولا من مزيد! ورجعتُ إلى وطني أنتظر الإذن بالرحيل مرة أخرى إلى بلاد النور!

* * *

ما بين طنجة وجبل طارق، يَرْقُدُ بوغاز الأحزان!.. لم تزل نوارسُه كلَّ مساء تحكي بنشيجها الشجي مأساة الموريسكيين! لا شيء يحمل البوغاز على تغيير عادته، فأحلامُه تُرسِلُ موجةً نحو الشمال، لكنَّ مواجعَه تردها كسيرةً نحو الجنوب! والحيتانُ بينهما تغدو خماصا وتروح بطانا من لحم الإنسان! كنت أسير حافي القدمين ما بين طنجة وتطوان؛ لعلي ألتقط صوت حمام زاجل، قيل لي: إنه لم يزل ههنا مُذ عَبَرَ أميرُ غرناطة الأخير طريداً من جنته! فرثاه هذا الحمام الغريب بكنوز من أسرار الحكمة! قيل لي: إن له هديلا كلما انطلق شجاه اقشعرت له صخور الشاطئ! وبكت النوارسُ واهتاجت الأمواج!

قلت لفتاي: ويحك يا ولدي! ذلك ما كنا نَبْغ! إنها إذن كلمة السر الخفية! ارجع بنا فلعلي أفوز بإشارتها أو أفك طلاسمها! وعسى أن أقرأ فيها ميلاد أندلسٍ بمنزلة أخرى، ما زلت أحتفظ بصورتها في قلبي منذ غروب الشمس عن أبراج مدائنها! لكنها صورة ذات تجليات أخرى، لم يزل فارس الزمان الجديد يرسم معالم حدائقها بقلبي وردةً وردةً، ويهيء أشواق الروح بمساجدها دواءً لأوجاع العالم! حتى قيل: إنه لن تسكن أحزان البوغاز إلا على أصداء مآذنها!

وارتددنا على أوجاعنا قَصَصاً.. نبحث بين الصخور والأشجار عن أمارة عُشٍّ أو ريشٍ ولا نجد له أثراً.. حتى كان ذات صباح..!

كانت الريح تهب نسيما ربيعيا، وأشعة الشمس ترتفع الهوينى نحو ضحاها، فترسم على ضباب البحر الخفيف أقواس قزح لا تتناهى!.. وفجأة انطلق الحمام يغرد يا سادتي من مكان ما، مكان لا أستطيع تحديد مواجعه! كانت مقاماته على أوزان الأذان! حاولت مرات تبين جهته فلم أستطع! أما المساجد فقد كانت أندلسية المعمار، وأما البكاء فقد كان تُرْكِيَّ الترسيل.. وكانت الآهاتُ تُرَجِّعُ أصداء مآذن إسطنبول وخلجانها! فتشربها مساجدُ فاس شهقةً شهقةً، وتبكي!

وتلقيت الإشارة، فرأيت عجبا! ثم دخلت بمنزلة الحيرة!

قال لي: هذا زمان موت الجغرافيا وانبعاث التاريخ!.. كلمة السر يا ولدي هي في نُطْفَةٍ من نور، تخرج من بيت النبوة! وإنها هنالك في شرق الأناضول فارحل!

* * *

هذه إسطنبول مرة أخرى..! ناداني خاطرٌ حزين! قال لي: مقامك حيث

أقامك! لا مكان لك اليوم يا صاح إلا بمنزلة الاستغفار! فصرت أسمع صوتا من أعماق فؤادي، يتكسر موجُه هوناً على شط لساني: رب اغفر لي..! رب اغفر لي..!

ها أنا ذا محمول على سيارة، كنت مريضا جدّاً! لكني كنت على وعي بما أسمع وأشاهد.. كل شيء أدركه الآن، هذه الطريق الكبرى وسط إسطنبول، وهذه قبابها ومآذنها عن اليمين وعن الشمائل، تلقي بأنوارها في كل اتجاه.. وهذا هو الجسر العظيم، هو جسر نُصِبَ حديثاً، لكنه منصوب على تاريخ الفتوح بين آسيا وأوروبا! فلم يزل بعد ذلك قنطرةً لعبور النور الجديد إلى المستقبل! وهذا... آهِ! هذا مستشفى "سماء" مرة أخرى!.. وهنا أدركتُ للتو مقامي! وعرفتُ أنني قد أخفقت في الامتحان الأول! فاستأنفت دروسي بفصول المدرسة الأيوبية من جديد!

سنة كاملة يا سادتي وأنا أجري بين غروب وشروق! سنة كاملة وأنا أظن أني كنت أغسل أدران الروح عن بدني، ولكني اكتشفت الآن أنني لم أبرح مكاني! فعدت مثقلا بكل ذنوبي! لقد أخطأت الطريق إذن! فكان الحكم أن أعيد الدرس من البداية! فالرحمةَ الرحمةَ يا الله!

كان رأس السرير ميمما نحو القبلة، وكانت النوافذ الكبيرة مشرعة الأحضان على بحر مَرْمَرَة، والْجُزُرُ الخَمْسُ وَسَطَهُ كلها تنتصب أمامي كالأعلام.. كانت الشمس على وشك الغروب خلف قَدَمَيَّ، وكانت أشعتها تطرز مَرْمَرَةَ بمرثية الأشجان! وترسل إليَّ أهازيج من أذكار المساء، مُرَتَّلَةً عبر أوراق شجرة الدُّلْب المنتصبة خلف نافذتي! حتى إذا مات النهار شاهدت جنازتي ترتفع أمامي في أفق البحر الغارب، وتذكرت صلاتي! أدّيْتُ العشاءين جمعاً وقصراً، استباقا للحظة الوصل، ثم بكيت! كان الليل

قد أشرقتْ مواجيدُه سُرُجاً تتلألأ في جزر البحر، وكانت مصابيح الساحل تحلم خافقة بشيء ما.. وغمرني الحنين إلى أورادي، فما أن شرعتُ في ترتيل مواجعها، حتى انهمرت على قفاي صفعاتُ الرحمة تترى! هي رحمة نعم لكنها صفعات! وكان الألم يا سادتي شديداً!

ثم تذكرتُ.. آه! واسترجعتُ الدرسَ: لا ميلاد إلا بألم! فاظفر بثاني المولدين تَرِبَتْ يداك! ثم ناديت في ليل البحر الساجي: الرفقةَ الرفقةَ! يا نِعْمَ الأميرُ أميرُها، ويا نِعْمَ الجيشُ جيشُها!..

ألم يقل لي: هذا زمان نهاية الجغرافيا وميلاد التاريخ!؟

نعم ولكنْ، رِفْقاً بقلبي الضعيف عن الطيران! فإنما شأني أن أحتضن مواجيد المكان منزلةً منزلةً؛ عسى أن أبحر من موانئها بَعْدُ في مقامات الزمان! ذلك ما يقتضيه عجزي الحالي، فليس للمريد مثلي إلا أن يجلس متعلما بمقام الأدب!

هذه واردات النور تتدفق جداولُها بين يديك الآن يا صاح!.. فاحمل عصاك على كتفيك، وارحل سائحا نحو شرق الروح؛ بحثا عن منابعه الأولى! فلعلك تدخل زمان الفتح، وتكتشف سر بكاء فتح الله؛ فَتُشْفَى!

* * *

كانت غرفتي تنفتح على غرفة أخرى سكنها مرافقي. لم يكن مرافقا عاديا بل كان صاحب أحوال! قدموه لي على أنه ترجمان لغة، لكنه كان ترجمان روح! كان يتقن لغة الإشارات، ويفك طلاسم السلوك! ما رأيت فتى عميق الغور أَنْكَرَ لنفسه منه! مَنْ أخذه على ظاهره أضاع كنزاً ولا كأي كنز..! كان وجها شرقيا، يتكسر الحزن الجميل على ملامحه أبداً، ولعينيه الراحلتين في بحر الغيب هيبةٌ وجلال! له تجليات يحضر فيها حينا

ثم يغيب أحيانا أخرى، فلا يُدرَى له بعد ذلك مكان! ما بين سواد شعره وعينيه يشرق بياض جبينه الوضاء، فجراً صادق القسمات، لم يزل يبشر -رغم ما يكابده من أسى- بالخير والبركات!

ولعله سمع بخاطره الحساس صراخَ روحي الصامت؛ إذ طلبتُ رفقةَ أمير الفتح؛ نداءً خفيا من عمق ضميري!.. ومن يدري؟

فتح البابَ عليّ بأدب مستأذناً.. كان الليل قد سَجَا جمالُه، وهجع طيفه وخياله.. وكان عند رأسي مصباح خافت صغير، ينبض الهوينى في فضاء الغرفة، وينفث عجائبَ الألوان والأشجان.. قال لي:

- عفواً.. هل من خدمة؟

طالعتُ ملامح وجهه الحزين، وأبصرتُ أثر الدمع نديا على مقلتيه.. فأدركت أنني قد أخرجته على التو من سبحاته الروحية، وشعرت بالندم! فقدَّمت بين يديه بعضَ عبارات الاعتذار المرتبكة، ثم سألته: ماذا قال الطبيب؟

صمتَ قليلا، ثم تمتم ببضع كلمات لم أتبين لها معنى، ثم سرح بعينيه عبر النافذة، متأملا أنوار جُزُرِ مرمرة.. ربما كان قد مضى من الليل نصفُه أو كاد.. فصار للسكون على العالم سلطان رهيب.. نظرت إلى عينيه الراحلتين بعيداً، ثم سألته نزلةً أخرى، لكن هذه المرة بنظرة صامتة لم تنزلق إلى نزق لساني: عفواً هُوجَمْ!.. ماذا قال الطبيب؟[1]

وانتفضت جوانحه بقوة لكنه لم ينبس ببنت شفة! بيد أنني يا سادتي سمعت الكلام ينطلق متدفقا من بين جوانحه، وكأنما هو صدى لهاتف يتنزل عليّ من العالم العلوي!

(1) هُوجَمْ: كلمة تركية تعني: أستاذي، أو سيدي.

- قال لي: جسمك مرتبك جدا يا صاح! لكنما هو رَجْعٌ كسيرٌ لصورة الروح في خابيتك الكسيرة! أما الأطباء فلهم مسالكهم إلى طينك المسنون، وأما من يسلك فيك نحو جراحات الروح.. آه! أما مَسْلَكُ الروح إلى مواجعك يا صاح...آه!

ثم سكت!

وبعد أن أرسل نحو النافذة زفرة عميقة قال: والعلة الأولى يا صاح إنما هي من هناك!؟

وأصابني الفزع يا سادتي! ثم قلت:

- بأبي وأمي أنت أيها الوجه الغريب! قل لي: كيف يكون دوائي إذن وأنى أجده؟

ثم رحل في الأفق مرة أخرى، حتى لكأنما قد فارق هذا العالم، وأرسل تنهيدة لاهبة، تدفقت زفراتُها الحَرّى على نفَسٍ طويل! ثم قال:

- دواؤك أيها الرفيق العليل هو في العثور على لؤلؤة سِرّك!

- لؤلؤةُ سِرّي؟ وما أدراني ما لؤلؤةُ سِرّي؟

- قال: إنها لآلئٌ في صدفات زمردية، تنبت هناك في أعماق بحيرة الأسرار!

- قلت: حيرني أمرك والله يا فتى!.. وما أدراني ما بحيرة الأسرار؟

- قال: هي بحيرة تجمعت مياهها من دموع الصِّدِّيقين! دون الوصول إلى جماها الندي، والإشراف على شواطئها الجميلة سبعةُ جبال، على كل جبل منها سبعون قمة!

لم تزل ترفدها منذ قديم الزمان دموع الحواريين، وأشجان الصحابة الكرام، ومكابدات النُّسّاك المتعبدين، وزفرات أويس القرني، وبكاء الحسن

البصري، وشهيق أبي العالية الرياحي، وأسرار الإمام الجنيد، وأنفاس بشر الحافي، ومواجع الحارث بن أسد المحاسبي، ومواعظ الإمام عبد القادر الجيلاني، ومجاهدات الشيخ أحمد زروق الفاسي، ومواجع عبد الواحد بن عاشر الأندلسي، ومشاهدات بديع الزمان النورسي!

ولم يزل في كل عصر يرقدها بنشيج الشوق اللاهب صِدّيقٌ أو شهيد!

قال لي: هناك في حِمَى بواديها، على جانب شاطئها الأيمن، يقف اليوم فتح الله! ومِنْ خلفه تصطف آلاف الجياد الأصيلة، تبيت الليل مسدلة الأعراف، خافضة جباهها الغراء نحو الثرى، في إخبات يخرق معايير الزمن ومنازل الساعات! ومن حين لآخر تراها في سُدُم الظلام الصافي تصْفِنُ بقوائمها المُحجَّلةِ إلى أعلى، وربما غطستها في ماء البحيرة أحيانا، ثم تكرع من ماء الحياة كل فجر، وترسل دموعها الحرى برداً وسلاماً على العالمين، مصغية بآذانها اللطيفة، في انتظار صيحة الأذان! وثمة حواليها آلاف الأطياف تغوص نحو أعماق البحيرة، بحثا عن الصدفات الزمردية، وآخرون على الشاطئ يفتحون ما مَنّ الله عليهم به منها، فيلتقطون ما يجدون بها من أسرار..!

فجرد عزيمتك يا صاح لاجتياز جبال الطريق! وإنها لمسالك ذات محالك ومهالك! وإنما أمان العبور نظرٌ في أعطاف جسمك الثقيل؛ تخففا من زوائده، وتقللا من خبائثه. ولا إمكان لذلك كله إلا بمقاطعة قيود الشهوات، والتحرر من أَسْرِ الآفات، والخروج من مضايق العادات؛ توبة نصوحاً، تنتشلك من دركات ما فات، وترفعك إلى درجات ما هو آت؛ عسى أن تكون أهلا للتحليق بجناح المتخففين! فإنه لا عبور لجسم ما تزال شحوم الشهوات تخنق شرايينه!

نظرتُ إلى رفيقي فقلت مستعطفاً:

- فكيف الاتجاه إذن؟

- قال: وهل ثمة نور يطلع من غير الشرق؟ ثم رفع يده إلى أعلى وأشار..! قال لي: هناك تجد رائدَ الرحلة إلى بحيرة الحياة في هذا العصر، وإمام السائرين إليها في هذا الزمان! وإنما جُعِلَ الإمام ليؤتم به، "وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ!" فتجرد من طينك يا صاح ثم ارحل!

لِقَاحُ الرُّوحِ

شرق الأناضول له رائحة أخرى.. قيل لي: إن دواءك هناك! فثمة بحيرةُ "وَانْ" الجميلة، تَعْرِض جَوانحها مَجْمَعَ بحرين لطالب الحكمة، ومغتسَلاً أيوبيا للمرضى والمحزونين!

بحيرةُ النور مملكةٌ تحتضن التاريخ القديم، وتُعَلِّمُ الطيرَ المغرد بساتينها أناشيد الروح المفعم بمكابدات الأنبياء! لم تزل قُراها الصغيرة تكتنز بالأسرار: وَانْ، وتَطْوَان، وأَخْلاَط. وغير بعيد عنها نحو الجنوب الغربي تتلفع مدينةُ بِتْلِيس بالحشمة والوقار، وتتخفى قريةُ نُورْس بين بساتينها في خمارها الجميل.

بحيرةٌ ولا كأي بحيرة! طاهرة مطهرة! آية تفيض بالجمال والجلال! عبابها العظيم يمتد من الغرب نحو الشرق، في هيأة طائر أسطوري، يحكي عصر الديناصورات وملحمة العنقاء! رأسها الذي يحمل عرفا كبيراً كعرف الطاووس، يرتفع نحو الشرق عاليا، مستشرفا شلالات "مُرَادِيَا" القريبة، ليرقبها وهي تتدفق من أعالي الصخور المعشوشبة الجميلة. ومن خلفها

تَرَفْرَفُ البحيرةُ بأجنحتها وتتوثب، كأنها تتهيأ للتحليق بعيداً، حتى تحط فوق ثلوج جبل أَرَارَات العظيم!

هنا بهذا الشرق القديم يرتفع سطح تركيا، وينتصب رأس بلاد الأناضول عالياً! مسالكُ برية وعرة، وجبالٌ لا تزال على فطرتها! مرتفعاتٌ لها قصص من الملاحم النبوية القديمة، وحكايات من البطولات القَبَلِيَّةِ لشعوب شتى، وقصص أخرى لا تكاد تنتهي!

كل شيء هنا متميز، ولكل تميز فرادته! إلا أن فرادة مدينة "أخلاط" شيء آخر تماما! فبموقعها شمالَ غربي البحيرة، منحنيةً بدلال فطري، على مياهها الزرقاء، تبدو كأنها حاجب أنيق على عين حسناء! عزيزة مصونة، تنتصب مبانيها بين مسالك جبلية، ذات ثلوج ومروج، مما جعلها عبر التاريخ مَعْبَراً طبيعيا بين الشرق والغرب، لأجيال من القوافل، وشعوب شتى من الغزاة، منذ عصور ما قبل الميلاد إلى العهد العثماني الأخير..! كل ذلك جعلها سجلا حافلاً لحقب شتى من التاريخ الإنساني! ولذلك لم تزل تتنازعها القبائل والإمبراطوريات، إلى أن وقعت بيد الأتراك المسلمين -منذ القرون الهجرية الأولى- فكان لها تاريخ جديد، وميلاد جديد. ولم تزل منذ ذلك الحين تتدرج بمنازل المعاني ومقامات الروح، ما جعلها مصدراً ثَرّاً للحياة المتجددة!

ومن ثم لم تزل "أخلاط" خليطا متناسقا من الشعوب، وفسيفساء مزركشة بألوان مختلفة، ولغات مختلفة، تركية، وفارسية، وكردية، وعربية، وأرمنية! وألوان أخرى من لغات الجن، تلقي بها الريح كلما عزفت أحزانها بين شماريخ الجبال!

لكن الجامع لكل هذا التنوع العجيب، إنما هو تلك الروح التي عبرت

نحو شرق الأناضول، قادمة من منابع النبوة المحمدية، هناك في واحة يثرب، مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام! حتى أشرقت أنوارها هنا على هذه الجبال الأبية! ومن حينها لم تزل شلالاتها العالية تتدفق بالهدى والنور على تركيا كلها.. ومن هناك امتدت شرايين الإيمان إلى القسطنطينية، ثم إلى أوروبا الشرقية حتى أسوار فيينا!

فمنذ أوائل القرون الهجرية، هاجرت حمائمُ وصقورٌ من آل بيت النبوة، تجنبا لفتن جزيرة العرب، شَامِهَا وعِرَاقِهَا، فحطت رحالَها بمسالك شرق الأناضول الوعرة، واستوطنت جبالها ومروجها، بحثا عن مكان آمن لا تصله عيون بني أمية وبني العباس! فكانت هذه الأسر النبوية الطيبة لقاحا روحيا لقبائل الأتراك الأشداء! ومن اجتماع يقين الإيمان وشموخ الجبال، تَخَرَّجَ الإنسان التركي الجديد، رجل الفتح المبين! جامعا بين تجليات الجمال قلباً ووجداناً، وبين تجليات الجلال عزائم وأبداناً! فكان من تاريخ الدولة العثمانية ما كان!

في عمق ذلك التاريخ كانت نُطْفَةٌ من سُنَّةِ آل البيت تتنقل بين المَهَاجِرِ والمَنَافِي، جيلاً بعد جيل، حتى تفتحت وردتُها في أسرة "آلِ كُولَنْ" التركية! من بذرة أصيلة، كان لها منذ قرون شجرةٌ باسقة الأغصان، تنتصب ثابتة في قرية "أخلاط" الجميلة! ولم تزل كذلك حتى كانت فتنة وشجار بينها وبين غيرها من الأسر، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث اختُطفت إحدى أخواتهم، فانتفض أخوها السيد "خليل الأخلاطي"، أحد أجداد "آل كُولَنْ" الأوائل، وقاتل دونها حتى أثخن في الغاصبين، وقتل منهم ما قتل! وعظم الخطب بين القبائل! فأدى ذلك إلى تدخل السلطان، وحكم على السيد خليل هو وأسرته بالنفي إلى "حِصْنِ قَلْعَة"، إحدى قرى

ولاية "أَرْضَرُوم" في شمال بلاد الأناضول! لكنَّ "خليلا" لم يلبث فيها إلا قليلا، ثم هاجر إلى قرية "كُرُوجُكْ" بنفس الولاية. وهناك استقرت الأسرة، وضربت مرة أخرى بجذورها في تربتها.

ومن هنا اشتهر نسب أسرة "آلِ كُولَنْ" إلى أَرْضَرُوم على الإجمال، وإلى قرية "كُرُوجُكْ" منها على الخصوص؛ لِمَا تَعَاقَبَ عليها فيها من الأجيال جُدُوداً وحَفَدَةً. ولم يترك "آلُ كُولَنْ" قريتهم المفضلة تلك بعدها إلا لفترتين، الأولى عندما نزح الناس عن أَرْضَرُوم كلها، إبان هجوم الروس عليها أواخرَ القرن التاسع عشر. فهاجرت الأسرة إلى قرية من قرى "سِيوَاس" في وسط تركيا. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عادت مرة أخرى إلى "كُرُوجُكْ". ثم تركتها للمرة الثانية، عندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى، فهاجرت هذه المرة إلى قرية من قرى منطقة " يَزْكُويْ" التابعة لمحافظة " يُوزْغَاط". ولبثوا فيها بضع سنين حتى انتهت الحرب، ثم عادوا مرة أخرى إلى قريتهم المفضلة بأرضروم: كُرُوجُكْ. ولم تزل الأسرة بها تتوارث مقامات عالية من العلم والصلاح، ومنازلَ نادرةً من أخلاق الزهد والعفاف! فكان أغلب رجالها ونسائها بين الناس، مناراتِ هُدى، ومعالم صلاح.

ثم جاء فتح الله!

هنا قرية "كُرُوجُكْ"، بادية من بوادي مدينة أرضروم الجميلة، هنا لم يزل دَمٌ عربي يتناسل محملاً بأحزان التاريخ وأفراحه.. دَمٌ لم يزل عَبَقُ النبوة يفوح مِنْ بين شرايينه، يُوَثِّقُ بزهوره الجريحة انتسابَه إلى آل بيت

رسول الله، عليه الصلاة والسلام.. دمٌ لم يزل يحمل أشجان النزيف الذي كان، وصرخات التقتيل والتشريد..! كانت نَسَمَةٌ من نور، تتنقل مكنونةً بين أصلاب آل كولن منذ أمد بعيد.. ولم يُقَدَّرْ لها أن تشرق على عالم الدنيا، إلا بعد انسلاخ أكثر من ثلث القرن الميلادي العشرين. كانت الأرض ساعتها قد ارتدَّت على أدبارها، وبلغت من جاهليتها ما كاد ينذر بخروج الدجال الأكبر!

كانت الريح قد هبت هذه المرة غربية العروق! وانطلقت من جبال الكفر القارس! مسلحة بمخالب الذئب الأغبر، وأنياب سباع الاستعمار، وسموم أبناء الأفاعي.. فاكتسح الموت الأزرق كل مدائننا، وجعل أشلاء جسومنا مِزَقاً...!

حتى كان اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر، من سنة ١٩٣٨م.. حيث كان السيد "رَامِزْ كُولَنْ" على موعد مع الرحمة الإلهية، إذ وُلِدَ له "محمد فَتْحُ اللهِ كُولَنْ"!.. وبمولده وُلِدَ معنًى جديد للحياة في بلاد الأناضول! فقبل هذا اليوم بيوم واحد فقط، كان قد مات "أتاتورك"! ثم نشأ "فتح الله" بعده يتدرج بمنازل الفتح، عبر حياة غير عادية تماما! حياة تملؤها أحوال عجيبة من مشاهد الغرابة، ومنازل شتى من ضروب المجاهدات الروحية، والبطولات الجهادية، تُذَكِّرُ بكرامات الأولياء الكبار، وأمراء القصص والأساطير، وأبطال التاريخ القديم!

ولم يكد الفتى يصل سن البلوغ، حتى احتضنته المساجد العثمانية في كل مكان، وخفقت قبابها بنشيجه العميق! وبدأت الطيور والعصافير تأتم به في صلاته وأذكاره! ثم انطلقت النوارس تحمل أصداء بكائه إلى كل بلاد الأناضول، فتوقظ الأنفس الوسنى، وتحرر الأرواح السجينة

من قماقم الفخّار! ولم يزل يرتقي بمنازله حتى حَدَّثَتْهُ الحوادثُ بلغة الإشارات، وألقت إليه الحمائمُ بالنُّذُرِ والبِشارَات! ثم تدفق البوسفور من بين أصابعه جداولَ من نورٍ تسقي كل العالم!

كل الإشارات إذن تدل على أنه هو!.. فهذا صاحب طريقك يا قلبي.. فابحث عن كلمة السِّر أنّى تلقّاها وكيف؟ وفيمَ ألْقَاهَا ومتى؟ عساك تفوز بفك رموز رؤياك القديمة! ففتح الله له سرٌّ ليس يبوح به، ولكنك لو تصادف من صحبته "وَقْتاً" تتلقى منه إشارة! وفتح الله رجل له "أوقات"..! فاصحبْ ظِلَّهُ يا صاح تَرَ عجباً! فإنك إنْ تَعْثرْ على بذرة الدُّلْبِ تملكْ غابتها! فاصبر على نَصَبِ الطريق وانطلقْ!

مَحَاضِنُ الروح

حدثني راوي الأشجان قال:

محاضن الطفولة هي مزارع الأسرار.. في تربتها تُدفن بذور النور، وخريطة الفتح الآتي، ومواعيد الزمان الجديد! ومن يدري؟ فلعلك هناك تتعلم من "فتح الله" كيف تكون رجلا! ولعله يضرب لك موعداً من لثغ طفولته لزحف الخيل الصافنة خلف غيوم إسطنبول، ومواعيد أخرى لدخول عواصم دول العالم، وعبور البوغاز إلى أندلس الأحزان.. وخوضِ بحار أخرى في وجع الليل؛ فرومية ما زالت جثتها تجثم فوق فراخ فلسطين! وليس بين دخول المارد قمقمه وبين شروق الشمس، إلا كلمة سر!.. ولعلك يا صاح تكون هناك!

قال لي: هي مَحَاضِنُ لا تتاح لكل الناس.. إنها من تهيىء القَدَرِ الإلهي،

لمن شاء الله أن يجعل لهم من أمره قَدَراً! فما جاء وَلِيٌّ أو مجددٌ إلا على قَدَرٍ، وما فاض نهر إلا بعد هُطولِ مَطَر! فاحمل عصا سياحتك يا ولدي وارحل! فما كان للسائح في فلك النفوس الكبار إلا أن يعود كبيراً!

المَحضنُ الأوّلُ: صُحْبَةُ جَدٍّ ومكابَدةُ تاريخ!

الثلج هو سلطان الفصول في مدائن أَرْضَرُوم وقُرَاهَا! ولفصل الشتاء امتداد يبتلع كل الفصول الأخرى إلا قليلا من الصيف! فلم يكن للبرد الشديد هنالك من مُغَالِبٍ بين منازل الرياح، إلا ريح واحد.. كان كلما هبّ لهيبه أحال جبال الثلوج القاسية دموعا تبكي شجاها، فتستسلم لربيعها في عز الشتاء! وبأي بَرْدٍ يستغيث البَرْدُ إذا ألهبته مواجيدُ الرجال؟ أو إذا هبَّت عليه في غسق الدجى تباريحُ الأبدال؟!

كُرُوجُكْ كانت هناك.. قرية غير عادية! فيها تكونتْ محاضنُ "فتح الله"، وفيها تفتحت وردةُ الزمان الجديد. ومن هناك امتطى الفارس صهوة النور، ركضا نحو غزو جحافل الظلام!

كان البيت واحداً وكبيراً، فقد اجتمع فيه سبعة أولاد وجمعٌ من الحفدة، التفوا جميعا كأغصان شجرة واحدة، تستند إلى جذع واحد. بيد أنه قد تميز من هذا الجمع الأسري الكبير عملاقان وشِبْلٌ مُتَوَثِّبٌ! أبٌ وجَدٌّ وحفيد. وارتبط الحفيد بجده قبل أبيه! ودخل تحت جناحه الكبير في صحبة روحانية غريبة، كان لها أكبر الأثر على شخصيته القيادية بعدُ!

نظر إليّ الراوي ثم قال:

أما هنا فيعجز السرد عن وصف هذا المقام العظيم! فلندع عبارات الحكي العقيم، ولنطرق باب المشاهدات! فارفع حجاب الكلمات يا صاح وانظر:

هذا "شامل آغا" اسم على مسمى! فالشخصية الشمولية لهذا الجد العظيم، كانت مجمعا لحقائق الروح اللطيفة، ولصرامة الفروسية الشديدة! كان رجلا قويا مهيبا حتى وهو في شيخوخته! لم يزل يلف عمامته الكبيرة في جلال، مثل السلطان عثمان غازي مؤسس الدولة العثمانية! وما كان يضعها عن هامته قط! ولا رآه أحدٌ -ولا حتى من أسرته- حافي الرأس حاسِراً! فقد كان في أشواقه وأحواله رجلا أخرويا عجيباً، مسكونا بالمعاني الكبار!

كان الطفل "فتح الله" يرقبه ويتأمله، ويلتقط منه المشاهد والأحوال، مما ينسج به رجولته الناشئة.. وإنه ليذكر -مُذ درج بين يديه طفلا صغيراً- أنه ما رآه يضحك أو يقهقه قط! وإنما ربما تبسم تبسما! مما جعل له في قلوب أهالي القرية مهابةً عظيمةً، وتوقيراً كبيراً. فلا أحد كان يجرؤ على مَسّ جدار حَرَمِه، ولا الاقتراب من عِرضه وعرينه!

وبميزان جديته العالية كان يقيس العلماء والمشايخ! فيحترم أهل الصدق منهم، ويحتقر مشايخ الولائم والموائد! أو "جماعة الأرز" كما كان يسميهم! لقد كان أبوه "مُلاّ أحمد" حفيد السيد "خليل الأخلاطي"، مرجعَه الأساس في معاني الولاية والزهد، إذ كان رجلَ علم، وصاحب مقام إيماني عالٍ، ليس من السهل أن يدخل المرء مسلكه! لم يكن يستغل عِلْمَهُ للتكسب، ولا صلاحه ونسبه لجمع المال، ولا كان يسأل الناس شيئا، بل لم يكن يقبل حتى الهدايا! كان قواما صواما، قليل الأكل والطعام، وربما اكتفى في كل يومه بحبات زيتون مع أنه كان من الأغنياء، فقد أغناه الله بإرث عظيم من أبيه، ذهباً كثيراً تقاسمه مع أخيه بالطاسات السلطانية حتى صار ذلك حديثَ الناس زمناً! ومع ذلك فلم تنل الدنيا من زهده الصارم شيئا!

كان "مُلاّ أحمد" -الجد الأعلى لفتح الله- رجلا قوي البنية، طويل القامة، مهيب الطلعة. وكان مضرب المثل في الورع، ففي الثلاثين عاما الأخيرة من عمره تفرغ لله تماماً؛ حتى إنه ما مدَّ خلالها جسده نائما على فراش قط! وإنما كان إذا داخله النوم يضع يده اليمنى على جبهته ويسنو لحظات! ثم يستيقظ بعدها إلى العمل في المزرعة، أو إلى العبادة، أو إلى السياحة في ملكوت مكتبته الفسيح، مطالعةً طويلةً لا يجرؤ أحدٌ على إخراجه منها، إلا نداء الصلاة!

تلك كانت رسائل تلقاها "فتح الله" من حكايات جده "شامل آغا" من جده الأعلى، جدٍّ بقيت آثاره مستمرة في زهد الأسرة كلها وورعها، فاكتسب الفتى من أخباره فحولةَ أهل المقامات العالية!

وارتفعت بذلك مقاييس "شامل آغا" عاليا! فلم يكن يقبل مِنْ مدعي الولاية والصلاح مَنْ لم يكن على هذا الوِزَانِ! وفشل بذلك "أولياء الأرز" أو "شيوخ الخبز" في اجتياز هذا الامتحان! فما فاز أحد منهم باعترافه!

ولم يبق من رفقائه في مسلك السير إلى الله، إلا قلة نادرة من أهل العلم والصلاح، كان من بينهم إمام مسجد القرية، الشيخ "محمد أفندي". فهذا الإمام كان رجلا صالحا، قضى زهاء أربعين سنة يصلي بالناس هناك! وكانت له في قلب "شامل آغا" محبة خاصة واحترام كبير. كان صاحب تخلية وتحلية، ورجل رؤى وكرامات صادقة! ولم يزل الجد شامل يقص لحفيده من ذلك قصة الزلزال الشديد الذي ضرب المنطقة قبل الحرب العالمية الأولى، فلم يبق منزلٌ بالقرية إلا صار حطاما! اللهم إلا أطلالا هنا وهناك! فصار الناس يبيتون الليالي بالبيادر حذراً من معاودته! ولم يزل الأهالي كذلك أياما وليالي، حتى أرعد فصل الشتاء، ورمى العراء

بوابل الثلوج! ثم انطلقت سباع البرد تعوي في كل مكان! واشتد البأس على الناس فجعلوا يلتجئون إلى الأدعية والأذكار يستدفئون بها، ويُدَثِّرُونَ بها أطفالهم من قَرِّ البيادر والسهوب! ولم يزالوا كذلك حتى كانت ليلة البشرى..!

كان "شامل آغا" يستدير بخطوه الوئيد نحو أسرته المخيمة بالبيدر، عندما استوقفه الإمام "محمد أفندي" قائلا:

- إلى أين يا سيد شامل؟

فأجاب الرجل بنوع من الأسى: إلى البيدر!

فتبسم الإمام وقال: أبشر! فلا زلزال بعد اليوم إن شاء الله! يا قَوْمُ ادْخُلُوا مساكنكم وناموا بأمان! وإذا سقط عليكم حجر واحد فادمغوا به رأسي!

وعجب الرجل من هذا اليقين الجازم، فقال مستفهما: وكيف وصلت إلى هذه الحقيقة يا إمام؟

وهنا غابت بسمة "محمد أفندي" من على محياه، وارتسمت محلّها معالمُ من أحوال الرهبة والجلال! فنظر في وجه صاحبه مليا، ثم انطلق يقص عليه رؤياه بإيمان عميق:

هذه الليلة قَدِمَ إلى القرية نبي الله محمد ﷺ، كان وراءه الخلفاءُ الأربعة رضي الله عنهم. وكان سيدنا علي ﵁ يحمل في يده بضعة خوازيق.. فما أن أبصرتُهم حتى انطلقتُ نحوهم أسعى، واقتربتُ حتى كنتُ قاب قوسين أو أدنى! فالتفتَ إليّ رسول الله ﷺ وقال لي: مُلاّ محمد! قلتُ: لبيك يا رسول الله! قال: هل هذه القرية لك؟ قلت: نعم يا سيدي! فتوجّه -عليه الصلاة والسلام- إلى سيدنا علي، وقال له: يا علي! وفي هذه القرية أيضا

وَتِّدْ خازوقاً! فوتّد سيدنا علي -كرم الله وجهه- إحدى الخوازيق هنا في هذا السهب حتى لا تهتزّ الأرض مرة أخرى!

واستيقظ الإمام "مُلاّ محمد" صَبَاحَهُ على سكينة السلام.. ثم دخل الناسُ جميعا ما بقي من غرف مساكنهم آمنين!

ولم يزل الجد شامل يقص هذه الحادثة العجيبة مرارًا، ويقول معلقاً: "مُلاّ محمد أفندي من رجال الله، الذين يتلقون الإشارات الصادقة عن عالم الروح، ويعكسون أنوارَها بمرايا قلوبهم الصافية! لا أعرف في هذا الزمان منهم أحدا سواه!"

ولذلك لم يكن "شامل آغا" يُسَلِّمُ لمن يحدثه عن حقائق الروح والكشوفات، إلا بعد التحقق من حاله ومقامه، والاستيقان من صدقه في دينه وصلاحه! ولعل المحن والتجارب المريرة التي عاشها الرجل جعلته حاد النقد، شديد الرفض لكل زيف! كما أن التهجيرات المتتالية التي تعرضت لها أسرته بسبب الحروب العالمية والإقليمية، وهجوم الروس والأرمن على مدائن أرضروم، وما كانوا يُلحقونه بالبلاد والعباد من تخريب وتدمير، كل ذلك جعل منه شخصية شبه عسكرية!

مواجع التهجير

عندما تجتمع ريح الاغتراب الروحي، مع ريح الاغتراب المكاني، تتحول الأشجان إلى عاصفة تضرب مواجيد القلب ببوارق من نور ونار وتورث النسل الجديد شوق السفر الأبدي، وحنين الهجرة نحو المجهول! فلا ترتبط بشيء من معالم التراب إلا قليلاً، لكنها تحتفظ أبداً بقنديل صغير في كل مَهَاجِرِهَا، كلما وصل بها السير إلى شاطئ الغروب، أوقدت فتيله

من جمر الحزن، فعبَرت به ظلمات المحيط، ضرباً نحو شروق جديد!

....

كان الجد "شامل آغا" متربعا وسط مجلس الأسرة ليلاً، يشرف برأسه العظيم من تحت عمامته الكبرى على أبنائه وحفدته، ويحكي.. كان يرسم لهم شريطاً متحركاً بصور الشجا والشجن، ويعرض قصص التشريد والتهجير، الذي تعرضت له أسرته في تاريخها المرير.. منذ عهد النفي من مدينة أخلاط شرقي البلاد، زمن الجد الأول "خليل".. حتى الهجرة من قرية كُرُوجُكْ زمن الجد "مُلاّ أحمد"، وما كان من حرب الروس، وشد الرحال إلى محافظة "سيوَاس"، والإقامة بها زمناً.

كان الجد "شامل آغا" يومها طفلاً يافعاً، قد بدأ يستشرف مرحلة الشباب. ولذلك لم ينس ما صاروا إليه في تلك الهجرة من الفقر والبؤس الشديد! ولم ينس مَشاهدَ "كُرُوجُكْ" الحزينة بعد الحرب، وكيف خربها الروس حتى لم يَعُدْ فيها حَجَرٌ قائما على حجر!.. هناك تُوفي الجد الأعلى "مُلاّ أحمد"، والد "شامل"، بعد نحو ثمانية أعوام من العودة إلى "كُرُوجُكْ". ثم بدأ الأبناء يجتهدون لاستعادة ثروتهم؛ فأفاض الله عليهم من فضله خيراً كثيراً، واشتروا أملاكاً أخرى. ولكن ما كادت تستقر أحوالهم على مراتب الغنى من جديد؛ حتى حلت الحرب العالمية الأولى، وبدأت هجرة الأهالي من محافظة أرضروم مرة أخرى! فأصبحت قرية "كُرُوجُكْ" بعدها خاوية على عروشها!

أما الجد "شامل آغا" -وقد كان هو أب الأسرة آنئذ- فقد حمل ما أمكن حمله من طعام ومتاع، وجهز رحلته على خمس عربات صغيرة أو ستٍ، من العربات التي تجرها الأبقار. ثم هاجر بجميع أسرته إلى قرية من

قرى "يِزْكُونِيْ" التابعة لمحافظة "يُوزْغَاط"، واستقر هناك لعدة أعوام. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها، عاد بأسرته مرة أخرى إلى "كُرُوجُكْ". لكنهم عادوا هذه المرة بلا زاد ولا ماشية ولا متاع! فقد استهلكوا في الغربة كلَّ ما امتلكوه ولم يبق لهم أثناء العودة سوى حمارين اثنين ركبت جدة فتح الله أحدهما، واحتضنت في حجرها أصغر الأبناء، وحملوا كل ما بقي لهم من متاع قليل على الحمار الآخر، وسار الباقون من أفراد الأسرة راجلين، سواء منهم النساء والولدان، يتقدمهم أبوهم "شامل آغا"، فرجعوا يقطعون تلك المسافة الطويلة سيراً على الأقدام!

كانت قريتهم الصغيرة "كُرُوجُكْ" قد هُدِّمت مرة أخرى عن آخرها! فلا أثر لا للمنازل ولا للحدائق ولا حتى للاصطبلات، بل لا أثر لشيء يدل على الحياة! وهنالك قضوا أياما صعبة جدًّا، بلا طعام ولا شراب، يصارعون البؤس الشديد والفقر المدقع! ولكن الجد "شاملا" ما فتر عزمه وما تزلزل أمله، بل وقف بقوة وصَفَّ أبناءه صفا واحداً، لخوض معركة الحياة ضد الفقر والجوع! فانطلق هو وجميع أفراد أسرته يخوضون غبار الكد، ومشاق العمل هنا وهناك لبناء الثروة من جديد حتى أغناهم الله مَن فضله مرة أخرى.

ذلك هو "شامل آغا" رجل الشدائد وإدارة الأزمات!..

عندما كان يتحدث، كان حفيده فتح الله يغرق بروحه في روحه، ويرحل فيها نحو الزمن الماضي، حتى ينزل بكيانه في قلب المشاهدات! فإذا به هناك، يكابد مواجع التشريد مع أسرته في رحلة المعاناة، ويتجرع محن زمن لم يكن قد وُلِدَ فيه بعد! وإنه ليشعر بسياط البرد تمزق جسمه الصغير.. وهو يسير على قدميه في هجرة لم يشهدها! ويجد ألم الجوع

ومشقة السير، ومرارة التهجير والتفقير، وأهوال الحرائق والحروب!

يجد ذلك كله، ثم ينظر إلى جده بإعجاب كبير! ويتفهم جيّداً لماذا صار رجلاً مهيباً. فكل تلك التجارب المريرة قد جعلت "شامل آغا" يتصرف بمسلك جادٍ أبداً، سواء في علاقته مع أسرته، أو في تعامله مع الناس! فلا أحد يعرف لضحكه صورةً ولا شكلاً! ولا أحد يستطيع أن يزعم أيضا أنه رآه يبكي! إلا مرة واحدة! كانت حالا نادرة في علاقته مع حفيده "فتح الله"، حالا كانت في الحقيقة سِرّاً من الأسرار، جعلت الفتى يكتشف في جده عالَماً أرحب لم يكتشفه سواه! ولذلك ارتقت المحبةُ بينهما إلى مراتب الخلة والتوحد الروحي!

كان الجد عميق المحبة لجميع أبنائه وحفدته، لكنه لم يكن يُعلن ذلك لأحد منهم، ولا لفتح الله..! بل كان يضربهم أحياناً، ويزجرهم زجراً، بل لا يزال الحفيد يتذكر أن الجد ضرب أباه "رامزاً" مرة أمام ناظريه! كان "شامل" يبدو رجلا صلبا، إلى ما يشبه القساوة أو يقاربها..! هكذا كان يبدو.. ولذلك كانت أدنى التفاتة طيبة نحو أي أحد منهم، تعتبر أكبر رحمة بالنسبة إليه، ولم تكن تُنسى! ولكن على الرغم من كل هذا، فقد كان يستبطن علاقة من المودة مختلفة نحو حفيده الأثير "فتح الله".. كانت مودة مكتومة، لم تكد تخرج من أعماق الوجدان، ولم يكن من السهل أن يفهمها أحد، ولا أن يدركها سوى المعني بها نفسه: الحفيد فتح الله! كانت نظرات "شامل آغا" نحوه عبارة عن رسائل وجدانية عميقة، ولم تكن تفيض نحو السطح إلا خلال مواقف خاصة ونادرة لم تحدث إلا مرتين أو ثلاثا، لكنها كانت معبرة عن عمق العاطفة التي كانت تتدفق في أغوار قلب الجد بما يخالف مظهر القساوة المعروف به. وقد تلقى فتح الله تلك

الرسالات كلها؛ فكانت -رغم ندرتها- كافية لتجعله يكتشف حقيقة جده، وليدخل من خلالها في وحدة وجدانية كاملة معه! وأَلِفَ الحفيدُ جده إِلْفاً غير عادي، حتى إنه لم يعد يطيق الحياة بغير وجوده، وسماع حديثه!

جَبَلٌ يتفجر أنهارًا..!

"أَلْوَازْلِي" قرية صغيرة من قرى أرضروم، لا تبعد عن "كُرُوجُكْ" إلا ببضع كيلومترات.. كانت بدون إمام للصلاة، فترجّى أهلُها والدَ فتح الله السيد "رامزْ أفندي" بسد هذه الخلة. فكات فرصة للوالد الشاب أن يخوض تجربة جديدة لم يتردد في قبولها، فقرر الرحيل إلى "أَلْوَازْلِي"، ثم استأذن والده "شامل آغا" فأخذ أسرته الصغيرة ورحل إلى مقر إقامته الجديدة. فبقي الجد مع أبنائه وأحفاده الآخرين، بمنزل الأسرة الكبير في كُرُوجُكْ.

كان لشامل آغا سبعة أولاد، منهم أنثى واحدة هي العمة "دُرْدَانَه"، وستة ذكور، هم: رَامِزْ أبو محمد فتح الله، والعم راسم، والعم نور الدين، والعم أنور، والعم صَفَر، والعم سيف الله. كانوا جميعهم آية في الألفة والمحبة، فقد صنعوا رَحِماً لم تزل ترتبط بوشائج من الاحترام والتوقير العظيم، والتفاني في خدمة بعضهم بعضاً، والتعاطف بنوادرَ من أخلاق الإخلاص والإيثار؛ ما جعلها تستحق أن تكون أسطورة تدور على الألسن في "كُرُوجُكْ"!

أسبوع واحد فقط مَرَّ على رحيل الأسرة الصغيرة إلى " أَلْوَازْلِي ".. لكن زمانه الحسي دخل في زمان الوجدان المعنوي؛ فصار في شعور الطفل فتح الله كعام كامل! لم يكن قد جاوز التاسعة من عمره، لكن وعيه بما حوله كان على وِزَانِ وعي الرجال! وإنه ليذكر كيف كانت فرحته عظيمة عندما أمره والدُه بالذهاب إلى كُرُوجُكْ لجلب بعض أغصان

الصفصاف، من حديقة بيت الأسرة الكبير كي يغرسها ذكرى أمام البيت الصغير في ألْوَازْلي.

كان الطفل قد بلغ به الشوق إلى كُرُوجُكْ حد الجنون! فلم يكد الوالد ينتهي من كلماته، حتى انطلق "فتح الله" يركض في اتجاه قريته الحبيبة! كان يشعر وكأنه يطير؛ بما يجد من خفة ساقيه ونشاط خطوه السريع! ولم يكد يصل مقام المحبة حتى انكشف الحجاب عن الأسرار..!

....

ودخل فتح الله الحديقة على حين غفلة من أهلها..! واندسَّ ببدنه الصغير بين الأشجار! فانقطع تيار الزمن! فللذة اللقاء امتدادُ "آهِ" المحبة في قلوب العاشقين! وتفتحت عيناه ترشفان من رحيق الأزهار والورود، متنقلا بين خميلة وأخرى.. ومر زمان من عمر الروح لا يدري له أمداً.. لكنه لم يكن في زمان الأرض سوى لحظات! فإذا به يبصر جده "شاملاً" وهو واقف بين يديه في الحديقة كالجبل العظيم! والتقت عيناهما في خلوة الروح.. فكان الذي كان!

خطا الجد نحو الحفيد خطوات.. وإن الناظر إليه لا يدري بأي التجليات كان يتحرك؟ أبِأَحْوَالِ الجمال أم بأحوال الجلال؟ فليس من السهل أن تعرف ما يسبح في بحره العميق من حيتان أو مرجان! ولا يبوح البحر بأسراره حتى تتدفق أمواجه على الشطآن! ثم اقترب حتى كان قاب قوسين أو أدنى! ولم تزل العينان من الجهتين تتواصلان بأشعة الرهبة والرغبة! حتى إذا ضاق الجبل بمائه الفوار تفجرت الحجارة بالأنهار! ثم تدفقت التجليات تترى فجعلت حصونَ الجد دَكّاً، وخر على جسد حفيده صَعِقاً!

ثم.. ثم احتضن الغلامَ بكلتا يديه وأجهش بالبكاء..! وانجرفت

الحجارة بقوة السيل شهيقا عميقا، ترتجف له من حوله فرائصُ الأشجار والأطيار! ولبكاء الشيوخ رهبة ولا كأي رهبة! بكاء يجرف معه كل أحزان التاريخ، ويُهيج كل مآتم العمر، وكل مآسي الأيام الخوالي! فمن يستطيع سد السيل إذا هاجت وديانه من كل شعابها..!؟

وتَطلق الرياح شهيقها الرهيب بين شماريخ الجبال! لكن الطفل بقي بين يدي جده حائراً! وتساءل خاطرُه الجريح متعجبا: "جدي شامل هو أيضا يبكي؟".. كانت المفاجأة بالنسبة إليه أشبه ما تكون بصعقة الروح، أو بكشف نوراني مباغت! فلا يدري القلب في غمرة النور كيف يتصرف! لكن الحيرة لم تطل كثيراً فما كان لقلب الصغير أن تحجم عصافيرُه عن رد صدى النشيج! ولم يدر كيف دس وجهه في صدر جده، وانخرط يغرف من مواجع النحيب! ثم اتحدت دماء التاريخ بدموع الزمان الجديد! فاخرسي يا حمائم الرثاء وأنصتي! فهذا الشيخ الحكيم ينقش الآن رثاءه لنفسه شعراً يتضور ألماً ثم يلقيه على عصره الراحل من التاريخ الحزين إلى زمن الحفيد، محملا بآلاف المواجع والجراح! ولم يزل شهيقه الكليم يتفجر من أرضروم، ويسرب مع الريح حتى تتكسر أصداؤه الولهى على مآذن إسطنبول، هنالك في الغرب الشمالي للبلاد!

وجعل الجد شامل يردد كلمات من الشعر التركي الحزين، شعر رسخت أبياته في ذاكرة "فتح الله" ألماً لذيذاً لم ينسه قط:

"قد غادرت الوردةُ المكان..

ورحل العندليب!

فكيف يطربنا ضحك؟..

وما يجدينا النحيب؟"

المحضن الثاني: جدة عارفة بالله!

عندما تكون المرأة معلِّمة تخجل كل علوم البيداغوجيا، وتلملم قواعدها المكسرة، ثم ترحل من عالم التربية والتعليم، لتختفي لُقًى في سلة المهملات! فيكفي أن تنحني الأم على الطفل لتنطلق العصافير بالتغريد والتفريد، وتتفتح الأغصان الغضة بأزهارها الجميلة، ويبتهج الربيع!

الأم، أو الجدة، أو العمة، أو الخالة، أو الأخت الكبرى.. هي أميرةٌ تتربع على قلوب الأطفال! أو هي عش من الريش اللطيف يهدهد أحلام البلابل الجميلة..! فلتكن حاضرة ههنا وكفى!.. سواء تكلمت أو صمتت! فإن مواجيدها تشتعل في فضاء المكان قناديل وسُرُجاً، ومصابيح تتوهج بنور لا نار به! فتحتف بها الفراشات الجميلة في احتفالات الليالي المباركة! ثم تتلقى القلوبُ الغضة من دروس المحبة بصَمَاتِ أخلاق، وأصولَ قيم ودروسَ فطرية تحقق أهدافها كاملة بطبيعتها التلقائية، على نجاح كامل بين المعلمة والتلميذ، بصورة لا تعرف مقولاتُ البيداغوجيا لها سَبَباً فتتَّبع سبباً!

"مؤنسة خانم" جدة "فتح الله" لم تكن امرأة عادية.. كانت ذات مقامات وأحوال! لم تزل في رحلة العمر -عبر مواجع التهجير والتنفير مع زوجها شامل آغا- تشرب كؤوس الصبر والاحتساب من موارد المهاجرين؛ حتى ارتقت إلى مقام الصمت الناطق بمعرفة الله! فصار مجردُ وجودها في المكان سبباً لنزول السكينة وغشيان الرحمة!

كثيرة البكاء تعبداً، كثيرة الصمت تفكراً! امرأة عظيمة القدر، ذات أوقات وأحوال! محترمة لدى العلماء ومشايخ العصر الكبار! فقد كانت شخصيتها الربانية أول من فتح الطريق لفتح الله، في مسلك التعرف إلى

الله! فشرب من حوضها الساكن الجميل ما لم يشربه من حياض سواها، من غبطة الروح، ومتعة الخوف والرجاء! ومنها تعلم معنى الارتباط بالله.. وفي صمتها العميق شاهد تجليات النور على خُلَّص السالكين إلى الله!

ما عبست في وجه حفيدها قط، ولا قرصته يوما بكلمة، بل كانت هينة لينة، ذات بسمة تشرق بالنور على محيّاها.. كلماتها اللطيفة توزع ورود الرحمة والجمال، وترش الندى والأريج على كل من أتاها!

وما رآها الحفيد تنتفض وتخرج من بحر سكينتها إلا مرة واحدة؛ كان ذلك ذات يوم عبوس، إذْ غضب أبوه "رامز أفندي" على زوجته "رفيعة هانم"، فانطلق نحوها بما يشبه الهجوم؛ فإذا بالجدة الوقور تثب من مكانها بقوة! وتصرخ في وجهه بكلمات رهيبة: "إياك يا رَامِزْ! كُفَّ وإلاَّ حَرَّمْتُ عليك حليبي، وسحبت منك كلَّ حقوقي!" وتراجع الأسد منكسرا إلى خلف بخطى وئيدة، يثقلها الخوف، ويجللها ندم الاعتذار!

وانطلق المطر يهطل على الحرائق المشتعلة بغزارة؛ حتى اغتسلت من أدرانها أغصانُ السلام!

المحضن الثالث: أُبُوَّةٌ تَتَفَجَّرُ كَوْثَراً!

رامز أفندي كان رجل زمانه، وصاحب مكانه!.. الشعور بالزمن مقامٌ ليس كل الناس يدركه.. فالتبلد الوجداني والجفاف الروحي يحرم القلب مشاهدة حركة الزمن السارية في الأشياء، وعقاربه الهاربة من المشارق إلى المغارب صباحَ مساء! كانت الهجرات العديدة التي طوحت بأسرة "رامز" منذ طفولته الأولى، قد جعلته يتأخر في طلب العلم ثلاثين سنة! ولكنه تعلم -خلال ذلك- أهم درس في الحياة: الإحساس العميق بالزمن!

ولذلك فما أن استقرت الأوضاع حتى سارع الرجل -وهو أب أسرة آنئذ- إلى مكابدة حفظ القرآن، والتفرغ لطلب العلم، جنبا إلى جنب مع ابنه فتح الله! ولا وجد في ذلك أي غضاضة! ولقد فَتَحَ اللهُ له في ذلك فتحا مبينا حتى إنه اختزل عشرات المراحل، وقطع مئات الأشواط في وقت قياسي عجيب! فصار يُنسب -بعد بضع سنوات- إلى أهل العلم والعلماء في بلده!

لقد كان "رامز" ذا ذاكرة حادة، واستيعاب عقلي كبير.. وكان صاحب مواجيد ملتهبة، وروحانية عالية، وصلة دائمة بالله. وكانت له مواعيد في صلواته مع أوقات الوصل العالي، فإذا دخلها كان هناك! كانت عينه رطبة بالدموع على الدوام.. لم يعرف الوقتَ الميتَ قط، ولا عاش في حياته فراغاً! عندما كان يعود من المزرعة إلى البيت، كان يبدأ بقراءة فصل أو فصول من كتاب، قبل أن يخلع حذاءه! فيستغرقه الكتابُ إلى أن يُجهَّز له الطعام. كانت المطالعة بالنسبة له وظيفة يومية، ومتعة عقلية، ولذة روحية عالية، وراحة من عناء الحقل.

وما بين المزرعة والبيت مدرسة أيضا، فقد كان يعمر وقت الطريق ذهابا وإيابا، بمراجعة المحفوظات الحديثة واستذكارها. فلم يكن فمه يفتر، إما من تكرار محفوظه الأخير من القرآن، وإما من ترديد الأبيات الشعرية العربية أو الفارسية،[1] مما تعلمه من هذا الفن أو ذاك، حتى إن ابنه فتح الله قد تلقى منه الكثير من المعلومات حفظا عبر السماع لهذا التكرار والاستظهار! فقد تلقى عنه بهذه الطريقة قصيدة البردة للبوصيري كاملة، وكثيراً من الشعر العربي والفارسي! كما حفظ من مواعظه التي كان يلقيها بالمسجد الشيء الكثير من هذا وذاك!

(١) كانت اللغة الفارسية في العهد العثماني هي لغة الشعر والأدب، بينما كانت العربية هي لغة الدين وعلوم الشريعة. أما التركية فقد كانت لغة الإدارة والمجتمع العام.

ولم يزل الفتى فتح الله يذكر الشيخ "خليل هُوجَا" الذي قدِمَ عليهم في قرية "كُرُوجُكْ"، ونزل ببيتهم أياماً غير قليلة. كان عالما عظيما، محترما لدى العامة والخاصة. فلزمه السيد رامز ولم يفارق مجلسه قط. وكان يتلقى منه العلم والقرآن وهو جالس عند ركبتيه.

عندما غادر الشيخ خليل أفندي "كُرُوجُكْ" نحو قرية "مَصْلَحَة"، تبعه السيد رامز ورحل معه بمفرده. فغاب عن أسرته لطلب العلم عامين كاملين! ولم يكن فتح الله آنئذ قد جاوز الخامسة من عمره. فكان خلالها يشعر بما يشبه اليتم، خاصة في أيام الشتاء القارسة الشديدة! أما الوالد فقد درس خلال غيبته اللغتين العربية والفارسية، واستزاد من علمه كثيراً. حتى إذا عاد إلى قريته تفرغ لدراسة علم التجويد والقراءات، على يد الشيخ "سليمان أفندي".

ولم يزل السيد "رامز" دائم السياحة في عالم العلم والمعرفة، طالبا للحكمة، متدثراً أبداً برداء الهيبة والوقار.. عندما تفتح وعي الفتى فتح الله على شخص أبيه، أدركه في الخامسة والثلاثين من عمره تقريباً. فعرفه بعمامته المنتصبة على هامته بجلال. ما رآه بدون عمامة قط، تماما كجده "شامل آغا"، لكنه مع ذلك كان صاحب لطائف وطرائف، بيد أن طرائفه كانت ثمرة ذكائه العجيب وبداهته السريعة. فقد اكتسب -خلال هجراته القسرية والعلمية- حكمة بالغة في الكلام، فلم يكن ينطق بشيء إلا على ميزان، حتى إن المشايخ كانوا يعجبون -وهم يحاورونه- من دقة عباراته، وجمال أدبه الرفيع، وخلقه العالي الكريم!

كان "رامز" صاحب عزيمة قوية، ومجاهدات شديدة. فقد عاش مراحل الانقلابات الرهيبة من دولة الخلافة العثمانية إلى تركيا العلمانية الحديثة!

وعاش المحن بشتى أصنافها.. ومع ذلك كان منه ما كان! ففي هذه الفترة أُعدِمَت الحروف العربية، وأبيدت اللغة العثمانية الأصيلة! وصار استعمال الحرف العربي أو تحفيظ القرآن أخطر على صاحبه -معلما ومتعلما- من تهريب المخدرات! وبعزمه الشخصي تعلم "رامز" القراءة والكتابة فرداً! والحال أن كثيراً من الشعب التركي آنئذ، كان هائما على وجهه في حروب التتبير والتهجير! حتى إذا أتقن "رامز" فن القراءة واكتشف مسالكها، اندس في حِلَقِ المشايخ والعلماء، يكرع من معين العلوم والمعارف. وقد جعل لمشايخه في منزله مُتَّكَئاً. حيث كانوا هم أغلب ضيوفه، ولم يكن البيت يخلو منهم إلا قليلا.

في بيوت شرق الأناضول، حيث سباع البرد الشديد، تُفَرِّسُ بمخالبها عروقَ الماء والدماء، عادةً ما يوجد بمحاذاة كل بيت منها اصطبل للخيل، وحجرة خاصة للضيوف تلتف مع الاصطبل حول البيت التفافاً. وقد كان ذلك النظام الهندسي العجيب، مفيداً في بث دفء الاصطبل في معمار البيت كله! وخاصة حجرة الضيوف!

وفي أيام الشتاء الطويلة، التي كانت تمتد في مناطق أرضروم نحو تسعة أشهر كاملة! كانت توقد مدفئة فحم أو حطب، في صالة الجلوس باستمرار.. وكانت أباريق القهوة مع فناجينها جاهزة عند النار على الدوام. فالضيوف الوافدون، إن كانوا مضطرين إلى المغادرة سريعاً، قُدِّمَ لهم كأس قهوة ساخن وانصرفوا شاكرين.

كذلك كان بيت رامز أفندي أبداً، بيتٌ يذيب برودة الطقس القاسي بحرارة الكرم، ودفء الاحتضان لجميع ضيوفه، وخاصة منهم المشايخ والعلماء. وما كان أحب إليهم من الاجتماع بهذا البيت الطيب الأعراق؛

مما كان له الأثر الكبير على شخصية الفتى فتح الله، حيث كان يندس مع أبيه بين العلماء، متلقيًا في سن مبكرة جدًا لدقائق من العلم، وكثير من المعارف التي هي فوق طاقة أترابه بكثير!.. وإلى جانب العلماء كان أئمة المساجد أيضا، يُكرَمون بهذا البيت العامر، حتى إن كثيراً من منازلهم قد بنيت على أراضي "آل كُولن"، وصارت من مقتطعاتهم!

خلال السنوات العجاف التي ضُرِبَ فيها المنع والحصار على تعليم القرآن، حفر السيد رامز أفندي في إصطبله نَفَقاً سريا، يسلك من تحت الأرض حتى ينفتح على بيت إمام المسجد في الجوار القريب! وخلال هذا النَّفَق السري كان يتم عبور رامز وأبنائه، إلى غرفة الإمام يتعلمون القرآن! حتى إذا انتهت الحصة، ورجعوا إلى بيتهم عبر النفق كما جاؤوا، سد رامز مدخله بالقش وروث البهائم!

مشهد الوالد رامز هذا كان له أثر بالغ على ولده فتح الله. فما لقيه من معاناة في طلب العلم وهو في ذلك العمر، جعل الابن ينضج عقله في وقت مبكر شديد التبكير؛ إلى درجة أنه ما جالس أقرانه لاهيا قط، سواء في طفولته أو شبابه! ولم يعرف للعب الأطفال ولا لنزق الشباب معنى! لقد عاش مع الكبار أبداً!.. حتى تطبَّع بأخلاق الرجولة وسجايا الفحولة، وهو طفل يافع صغير..!

ولا ريب في أن الدور الكبير لاكتساب تلك السجية كان للوالد رامز، الذي اصطحب معه ابنه في مسيرة طلب العلم المريرة، وأشركه في مجالسه التي ما كان الفتى يشبع من موائدها قط، وخاصة منها مجالس "الإمام الألْوَازلي". ورغم أنه لم يكن يفهم كل ما يقوله الشيخ، إلا أنه كان يحفظ كل ما يتلفظ به! فبعد كل مجلس كان يعود إلى أمه وجدته

وزوجات أعمامه، ثم يقص عليهم ما قاله الإمام الألْوارْلي كلمةً كلمةً! وكان يجد لذلك لذة لا توصف، ومتعة لا تنتهي!

وعن أبيه تلقى حُبَّ الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين. كانت الأسرة سنية أصيلة. وكان رامز أفندي في هذا الأمر على مقام من الوعي والحب رفيعٍ جداً. كما كان له إجلال كبير لفقهاء الأمصار والأئمة الكبار. أما الصحابةُ الكرام فقد كان لحبه إياهم تجليات تستبد به أحوالُها إلى درجة الجنون! كان كثير المطالعة لسيرهم وتراجمهم، يقرؤها ويعيدها كأنها أوراد لا يمل من تكرارها حتى إن كتب التراجم الموجودة في مكتبته قد بليت وتآكلت من كثرة المطالعة وتقليب الصفحات! عندما كان يتحدث عن أحدهم في مجلس الأسرة، كان كأنه يغيب عن عالم الشهادة! كان يحلق بروحه بعيداً، ويرتقي بوجدانه عاليا.. كانت أعينه ترتفع إلى أعلى كأنها تتبع روحَها، أو كأنها تشاهد عالماً آخر! فكان يلقي إلى أبنائه بما قطفه من تلك العوالم العليا من مشاهدات! فيتغذون جميعُهم من رحيق الحب الصافي لأصحاب رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ثمارَ الهدى والكرَم! حتى صار حضور الصحابة في قلوب الأطفال، وكأنه حقيقة مُعَاشَةٌ حية! وصار تداول أسمائهم فيما بينهم، وكأنهم بعض أفراد الأسرة!

وعلى درب طلب العلم نشأت صداقة خاصة بين الفتى ووالده، صداقةٌ لم يَسْرِ تيارها المخصوص إلى شرايين أبنائه الآخرين، رغم أنه غمرهم بشلالات الحب والعطف، ما جعل أرواحهم في مقام البنوة المؤمنة الصالحة. لكنَّ لفتح الله سرّاً من المحبة عند أبيه مكنوناً! فقد كان أحرص عليه من غيره لما وجد فيه من إقبال عجيب على حفظ القرآن وطلب العلم. فكان يعامله بما يشبه معاملة السادة والأشياخ، حتى إنه إذا

جالسه في غرفة ولم يكن معهما أحد، جعل تحته وسادة دافئة، تقيه قر البرد وترفعه وتعليه، تماماً كما يجعلها لأشياخه من أهل العلم! فإن كان المجلس جامعا لأفراد الأسرة دسها تحته خفية!

لقد كانت علاقة الوالد مع ابنه فتح الله علاقة زمالة في طلب العلم. وبما كان يرى فيه ما يرى من مخايل العبقرية كان يعقد عليه الآمال الكبيرة في هذا الشأن، وينظر إليه باستبصار مستقبلي عجيب؛ ومن ثم كان يحرص على تنمية هذه المواهب في ابنه بشتى الوسائل. ففي الوقت الذي كان يجلس فيه فتح الله لحفظ مقرره اليومي من القرآن، كان الوالد يجلس إلى جانبه ليحفظ درسه من ذلك اليوم! تشجيعا له وتشويقا. ولذلك فقد كان الفتى يكتسب منه طاقةً وحيويةً لا تُوصف، وكان يجد لذة في مسابقة أبيه، محاولا أن يحفظ مقرره قبله بإحساس يجمع بين متعة الدعابة ونشوة السباق!

ورغم ذلك كله فلا يذكر الفتى أن أباه خرج عن مقام وقاره وجلاله، ولا هتك ستر الأدب معه، ولا مع إخوته قط! فهو أبداً بين حالين: إما في تصريف عواطف المحبة والجمال، وإما في تصريف مشاعر الغضب والجلال!

تأديب نفسي

وليس ينسى فتح الله أبداً ذلك الدرس الرهيب، الذي تلقاه يوما من مقام أبوته العالي، سياطَ تقريع صامت من التجليات اللاذعة، لو أبدلها له بمائة جلدة لكانت أهون عليه! كان في حوالي الخامسة عشرة من عمره.. حيث التقط آفة التدخين لأيام قليلة تقليداً لبعض الرجال الكبار في القرية على عادة الأطفال في تقليد ما يعتقدونه مظهراً من مظاهر الرجولة والفحولة! واتخذ لذلك غليونا على طريقة بعض المترفين! فاستمر على ذلك لمدة

شهر، فإذا بالوالد يكتشف الخلل الطارئ على مسلك الفتى النجيب! فما انتهره ولا زجره، ولا حتى فاتحه بشيء في الموضوع، ولكن جعل له مسلكا آخر من العقاب المعنوي، هز كيان الفتى هَزّاً..! ففي مجلس من مجالسهما الخاصة، والابن جالس بين يدي والده، إذا بالأب يضع رجلا على أخرى؛ بنوع من التظاهر بالعجرفة والكبرياء، على غير عادته، ثم أخرج من جيبه علبة السجائر نفسها التي كان الفتى قد أخفاها تحت وسادته، وأشعل سجارة بقداحة الفتى عينها، وكأنه يهم بتدخينها، وما هو من المدخنين!.. وسُقِطَ في يد الابن الْحَيِيِّ! كان العرق قد فاض على كل ثيابه بحمّى لاهبة من الخجل الشديد! وشق مشاعره بحرج أليم من الندم، لم يجد له مثيلاً في حياته قط حتى إنه ود لو ابتلعته الأرض، وما كان ليرى نفسه بين يدي والده في ذلك المشهد الرهيب! ورأى رأيَ العين، فيما مَثَّلَهُ له أبوه ساعتَها من هيأة استكبارية، كيف أن تلك الحال الدنيئة لا تليق بجلال الرجل العالِم وجماله! فكان ذلك الدرس العملي البليغ، كفيلا بجعل الفتى يتخذ قرار مقاطعة التدخين إلى الأبد!

المحضن الرابع: أمٌّ تَسْتَدِرُّ بَوارِقَ القرآن بلَيْل!

ولِلقرآن في زمن الغربة نورٌ لاهب! من يقبضْ على آياته يُحَرِّق الجمرُ مواجيدَه! ومن ذا قدير على المغامرة بالسير ضد تيار العواصف الهوج!؟

أمُّ فتح الله، السيدة "رفيعة هانم" معلمة القرآن لنساء القرية أجمعين، آلت على نفسها أن تلقي بنفسها في أخدود المحبين!

تلقت شغفها بالقرآن عن والدها الشيخ أحمد الزاهد.. كان يختم كتاب الله كل ثلاثة أيام، فإن تأخر فكل أسبوع! قَوّامٌ صوّام، عاش بعيدا

عن المدائن وزخارفها، فلم يكن ينزل بها إلا لضرورة؛ لِما كان يراه من فساد الزمان وأهله! يعيش مع الله على كل حال. هكذا بقيت صورته الربانية شاخصة في ذاكرة ابنته أم فتح الله، فكانت بذلك آية في الجهاد بالقرآن، خاصةً عندما صارت الدولةُ العلمانية الحديثةُ تُشَرِّدُ قُرّاءَ كتابِ الله وتُقَتِّلُهُمْ تقتيلاً!

كان منتصف الليل موعد العصفور الطريد.. لم تكن ثمة فسحة للتغريد بالنهار.. وأنى له ذلك وهذه بنادق القناصة قد شرعت فوهاتها الرهيبة تجاه كل الأشجار الخضراء.. تنتظر سماع ترتيلة واحدة لإخراس صوت الحياة الجميل غدراً، بألف طلقة وطلقة!

كان فتح الله في السنة الرابعة من عمره، عندما بدأ يجلس تلميذاً في جوف الليل، يردد آيات الشجا على مواقد الدموع المتوهجة بمآقي والدته! كانت الثلوج تضرب حصار القرّ على الأبواب والمنافذ، وترسل زمهرير الغضب عاصفا يجوس خلال الديار، ويعصف بالأحجار والأشجار! كل الأجسام الآن تتلبد في أغطيتها خوفا من عض أنيابه الضارية، إلا هذين الطيفين المتحلقين على موقد الشجا: الطفل وأمه! فقد كانت حرارة الأشواق، ونار الأحزان المشتعلة في قلوبهما، أقوى من برد الشتاء وزمهريره! كانت أنفاسهما اللاهبة تنتشر في زوايا الغرفة الصغيرة، فتتصدى لألسنة البرد المتسرب عبر شقوق النوافذ والأبواب، فتردها على أدبارها، دموعاً متبخرة على نار الاغتراب!

وترتل الأمُّ زفيرَها عبر الآيات، ثم يردد الطفل الزفيرَ زفيراً، وتشتعل في سماء الليل الحزين أشواقُ المستضعفين، أملاً يحلق بأجنحة الجراح. وفي ظرف ثلاثين ليلة من زمن الأرض، موصولة بأزمنة أخرى من

بركات السماء، كان الطفل قد بلغ سدرة المنتهى من معارج القرآن، تلاوةً وترتيلاً! فأعلن أبوه وليمة القرآن، نداء لكل أهالي القرية احتفالا بطفله العجيب! ولم يزل فتح الله يذكر كيف أن أحدهم داعبه بقوله: هذه ليلة عرسك يا فتى! فأغرقه خجلٌ شديد! وهو الطفل الذي نشأ في بيت العفة والحياء، فلم يتمالك نفسه حتى أجهش بالبكاء..! كانت ليلة لم ينس جمالها وجلالها قط! ولم يزل بعد ذلك يتزود منها أشواق القرآن وأنواره، كلما ناداه داعي الإسفار عبر معارج الروح، ضربا نحو مقامات الملأ الأعلى! ولم تزل تنفتح عليه من ذلك أبوابٌ من كرامات الفَرَج، كلما ضاقت به مسالك الأرض الوعرة، خلال محن حياته اللاهبة. ولم تزل أمه واقفة خلفه بشخصيتها الربانية، تمده بإشارات الفتوح، وتنفحه ببشائر الروح، كلما اشتد الحصار على الديار!

كذلك الليل كان!

حتى إذا أدركَ الأمَّ الصباح سكتت عن كشف الجراح! ثم استعدت لجهاد النهار، وانطلقت إلى الحقل لتساعد زوجها في أعمال المزرعة، وتحلب الماشية، ثم تعود إلى البيت، حيث تتفرغ لطبخ الطعام، لأسرة لا يقل طاعموها عن خمسة عشر شخصا إلى عشرين، حتى إذا آبَ النهار إلى الأصيل انطلقت إلى مخابئ نساء القرية المتخفين هنا وهناك، خلف حُجُبِ الأحزان -متحدية رقابة الحديد والنار- لتعليمهن القرآن! وإن المرء ليحار متعجبا: أي صبر كان للمرأة في ذلك الزمان العصيب، وأي جهاد!

وفي قرية "ألْوَازْلي" صار عبء الأم المجاهدة أشد، وهي المرأة العليلة التي لا تكاد الأمراض والأوجاع تفارق جسمها الليل والنهار! وكيف لا؟ وقد كانت مسؤولة عن تربية ثمانية أطفال، من أحد عشر كوكباً ولدتهم

بطنا بعد بطن، توفي منهم ثلاثة وبقي ثمانية. ومما زاد حجم المعاناة أنها تركت بنتها الكبرى بقرية "كُرُوجُكْ" لتساعد جدتها إيثاراً لحماتها الصالحة! ومن ثَمَّ تَحَمَّلَ فتحُ الله ذلك الدور، فكان خير مساعد لأمه؛ لأنه أصبح هو الابن الأكبر الآن في البيت، وإن لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره بعد. فصار يعجن الخبز ويطبخ الطعام، ويغسل الأواني والملابس، علاوة على اشتغاله اليومي بإتمام حفظ القرآن الكريم! كل ذلك وهو لا يدري أن القَدَر إنما يُعِدُّهُ بذلك التدريب لحياة خاصة، سيجد فيها نفسه وحيداً يحتاج إلى إتقان ذلك كله!

لقد صنعت السيدة "رفيعة هانم" -بمواقيت الليل الساجي وهموم النهار- من ابنها "فتح الله" رجلا صاحب أسرار..! وصنعت من جيلها وجيل بناتها، أمهات ربين فهوداً وأشبالا، كانوا هم طلائع الفتح المبين في معركة الزمان الجديد..!

المحضن الخامس: شيخٌ مُرَبٍّ، سِرُّهُ في ظله العالي!

هو "الإمام الألْوَازْلِيّ"، عالم وإمام، وشيخٌ مُرَبٍّ، صاحب معارف ومشاهدات، وصاحب أذواق وأحوال.. كان مداره حول مقام القرب، فكوكبه السيار كان يجري بِفَلَكِ الحضور الدائم.. ومن هنا لم تكن مجالسه إلا نثاراً من فَيْءِ تلك العطايا! كانت أسرة "آل كولن" كلها متأثرة به أشد التأثر.. محبوبا لدى جميع أفرادها، بل مهاب الجانب موقراً أشد التوقير.. كان مجرد ذكر اسمه يبعث على ذكر الله، وعلى فتح أبواب القلوب مباشرة على معارج الروح! ولذلك فقد كانت الظروف كلها مهيأة لفتح الله، كي يتعلق بهذا الشيخ الجليل، ويتوجه بقلبه إلى حضنه العالي؛ فيتلقى عنه العلم والمعرفة، ويرتبط به تلمذةً وصحبةً إلى درجة التوحد الروحي.

فالكلمات التي كانت تتناثر من فم "الإمام الألْوَارْلِيّ" كان يتلقاها الفتى، وكأنها إلهامات جاءت للتو من عالم الغيب!

كان إذا تكلم عن حقائق العلم والمعرفة بهر القلوب بحديثه الشيق، وبيانه الندي. لم يكن كلامه عاديا كسائر المتحدثين، بل كان يتكلم كمن يصف ما يشاهد لا كمن يستذكر ما استوعب! فيصبح الناس كلهم آذانا صاغية، تتلقى حقائق سماوية، وكأنها تواردت على الأرض توّاً، فتتجنح القلوب بأشجانها وأشواقها خوفا ورجاء، وتتطهر الأرواح بدموعها.. مما يجعل حلقة الدرس ترتفع بمواجيدها الحرى إلى أعلى شيئا فشيئا، حتى يشارك الجميع في مشاهدة النور، ويشربون من كوثر المعرفة بالله حقائق الإيمان، المغترفة من بحر اليقين.

كان الشيخ قلبا نادراً في زمانه، فقد كان ممن وُفِّقُوا إلى الجمع بين موازين الشرع والتفكير الصحيح، وبين مواجيد القلب وأذواق الروح. ولذلك كان له سلطان عجيب على مريديه من الكبار والصغار على السواء.

عاش "الإمام الألْوَارْلي" بصدقه النادر حياة روحانية عملاقة، لم يسقط في شَرَكِ الفولكلورية الصوفية التي كانت سائدة في عصره، ولم يُبْتَلَ بمرض التظاهر والتعالم قط. بل عاش وكأنه طائر الحُمَى الأسطوري،[1] له ظلٌّ على الأرض ولكنَّ جسمَه لا يُبصره أحد!

ورغم أن صحبة الفتى لشيخه إنما كانت خلال طفولته الأولى حتى

(١) هو طائر أسطوري يستخدم مَثَلُهُ غالبا في منطقة "أرضروم" من بلاد الأناضول. ويُوصف بأن له جناحين أخضرين بريين، يُشَبَّهُ بالحمامة حينا، وبعصافير الجنة حينا آخر. ويُعتقد أنه يعيش في الذرى العالية من جبال الهمالايا. وهو لا يُبصر بسبب تحليقه في الأعالي البعيدة، وإنما يُعرف وجوده بانعكاس ظله على الأرض فقط. ويُضرب ذلك مثلا للحقائق التي يجد الإنسان آثارها، لكنه لا يدرك ماهيتها أو لا يستطيع وصف سيماتها. كما قال قائلهم:

فكان ما كان مما لستُ أذكرُهُ ... فظُنَّ خيراً ولا تَسْأَلْ عن الخَبَرِ!

حدود بداية شبابه -إذ مات الشيخ ولم يكن المريد قد جاوز السادسة عشرة من عمره- فإن عمق الصلة التي جمعت بينهما كانت ذات طبيعة أخرى.. وقد كان احتضان الشيخ لتلميذه أكثر من احتضان تربوي أو تعليمي، بل كان احتضانا عاطفيا فياضا، أشبه ما يكون بفيض الأمومة الجارف! ولم ينس فتح الله كيف هاج طبع صاحبه لما علم أن الأسرة سوف ترسله إلى شيخ آخر ليتعلم العربية، فانتفض الشيخ ثم أدخل تلميذه في حضن حضوره الروحي، وصاح مخاطبا إياه: "والله وبالله وتالله! لو ذهبت لتمزقتَ إرْباً إرْباً!" كان حاله كحال أُمّ أُرِيدَ نزعُ ولدها منها فَتَمَسَّكَتْ به تمسيكاً!

كلما كان الشيخ يمسح رأس مريده الصغير وهو يقول: تلميذي، تلميذي؛ كان الفتى يشعر بالمواهب الربانية تتوارد على قلبه الغض الصغير، فتزداد محبته وثقته بشيخه، وتسري في جسده مواجيد عجيبة من مشاعر الأمان والسلام، وكأنه مستند إلى ركن أمين.

ولذلك لم تزل مشاعر التلقي لتلك المواهب تملأ قلبه طيلة حياته، ولم يزل يجد لطافة يد شيخه وهي تدلك شحمة أذنه بلين ألطف من لين الديباج، ولم يزل يسمع صدى صوته العُلوي، وهو يقول له: "لأَرْطِبَنَّ أُذُنَكَ حتى تنفتح أبواب ذهنك جميعاً!"

كان الشيخ يُعْرَفُ بمهابة سيمائه الجليلة، التي تعكس شرف أصله، ونبل محتده، وأصالةَ جذوره المعنوية، وموارده الروحية. ولذلك لم يزل الفتى وهو في مجالس التلقي عند شيخه، ينظر إلى ملامح وجهه الوقور، ويحاول قراءة سيمائه الغريبة.. كان يتلمس بوجدانه الصغير نورَ جبينه، وإشراق خديه، ومعالم حاجبيه، ثم يغوص في بحار عينيه المكتنزتين

بالأسرار، محاولا الوصول إلى شيء، من خلال قراءة تلك السيماء الظاهرة الخفية. ولطالما تساءل في نفسه: "يا تُرى.. هذا الرجل الجِدّيُّ المهيب، بأي شيء من سيمائه يشبه جده الأعلى سيدنا محمد، شرَفَ نوع الإنسان؟" عليه أكمل الصلوات والسلام.

بهذا المستوى كان التلميذ معجبا بشيخه، حتى إنه كان شغوفا بالبحث عن معرفة "ما وراءه" من منابع الروح، محاولا التمسك بمسالكه، والتعرف عليه من خلالها. فجاذبية الشيخ الروحية، واستعدادات المريد النفسية، كانتا تلتقيان وتتعانقان، فتنتجان بقلب الفتى أحوالا، تجعله يعيش أوقاتاً ذات أذواق، ومشاهدات غنية بالألوان!

المحضن السادس: الشيخ "وهبي أفندي" رائد علم الصمت!

هو شقيق "الإمام الأَلْوَارْلِيّ"، كان أكبر منه سنا، لكنه كان ذا خصائص روحية من نوع آخر.. فقد كان صاحب أحوال ربانية فريدة، وأطوار إيمانية عجيبة.. فهو إنْ صمتَ كان ناطقاً في صمته، وإن تكلم كان ساكتاً في حديثه! كان رجلا مثل اليَمّ في سعة صبره، ورحابة صدره، ذا قدرة عجيبة على استيعاب الناس على مختلف طبقاتهم، يعامل كُلاًّ بما يليق به. معتصما بحصن صمته العالي، لا يخرج عن مقامه ذاك إلا نادراً، فإن خرج فلإلقاء حكمة بالغة، أو لإرسال نكتة إشارية طريفة، ولا يكون ذلك منه إلا لحظات، ثم يغطس بعدها في بحيرة صمته العميق! كان الصمت هو الحال الحاكم عليه، والسلطان المتجلي في الغالب عليه. وبكثير من أطواره العجيبة تلك، كان يُمَوِّجُ الحياة الروحية للناس من حوله. ولقد شرب الفتى من كؤوس صمته الطافحة بالأسرار، كثيراً من الحقائق

والمعاني، التي غذت مواهب التأمل بوجدانه، وأذكت جذوة التفكير في مسيرة حياته.

• • •

بهذا التلقي الشمولي الجامع أنتج فتح الله مواجيده الأولى وإحساساته، التي صنعت شخصيته الروحانية شابا وكهلا ثم شيخا. وبتلك القوة الروحية العظيمة، أسس طلائعَ الفتح تحت قباب مساجد مدينة "أَدِرْنَه"، ثم على حُضن مدارس "إِزْمِير"، ومجالسها الليلية، ومخيماتها الصيفية. ثم رص صفوف خيولها بعدُ على صدى مآذن إسطنبول ورجع خلجانها.. ضربا إلى حدود مشارق الأنوار في بلاد الأناضول، من أرضروم إلى حوض بحيرة "وَانْ"، وتُخُوم جبل "أَرَارَات"! حتى إذا كبرت أشجار الدُّلْب في كل مكان، واستوت على سوقها؛ ناداها الفتى الفاتح بتلك الروح العميقة: ألاَ يا خَيْلَ الله ارْكَبِي..! فرددت الغاباتُ والشواطئ والخلجان: ألاَ يا خَيْلَ الله اركَبي.. اركَبي، اركَبي..! صدى ملتهباً يضرب كالبرق نحو شماريخ الجبال، فترده نحو المدائن مطراً ربيعياً، يسقي عطش المآذن والقباب!

ثم ينطلق الصهيل يسابق أعراف الجياد، وهي تعدو مثل الرياح اللواقح، ركضاً نحو كل قارات العالم، ترفع ألوية النور والسلام! فانظر يا صاحبي هنا وهناك!

ألست ترى؟.. الذين يبصرون وحدهم الآن يشاهدون بوارقها خفاقة في كل مكان!

الفصل الثاني

بين الكتب والأغنام

من نافذة المدرسة الأيوبية كنت أراه..!

كان الراوي يحدثني كل مساء عن فتح الله.. كنتُ نزيلَ المدرسة الأيوبية آنئذ، وكان المستشفى يطل على بحر "مَرْمَرَة"، هو بحر يعكس أنوار الأسماء الحسنى ليل نهار.. أما الليل ففيه من عجائب التجليات ما يبهر أولي الأبصار، وأما النهار فسبحات وأذكار.. وكنتُ أبيتُ أتلقّى مشاهداتٍ عن بطل النور، وارث أسرار الحكمة.

ما بين عشية وعشية، كنتُ أنخرط مِنْ عَلَى سرير العِلّةِ في صحبة المؤادي.. كانوا من بعض رواد النور وحُمّالِ ناره. فكنت أشرب من جمال الأدب الغالي متعةَ رُوحٍ ولذةَ شفاءٍ.

وكل صباحٍ، كنتُ أسير الهوينى مقتفيا أثر فتح الله، كانت ظلاله تمتد على كل بلاد النور، وكنتُ أتقصى ما في مسافتها الممتدة من خطوات، أحصيها واحدة واحدة.. حتى كدت أسمع أصداء بكائه الليلي تحت بعض قباب إسطنبول! شعرت بقرب الوصول.. وبدأ قلبي يهزّ في صدري بقوة! فقد كان طمعي أني أكتشف سر بكائه، وأعثر على مفتاح فؤاده، وأرى كيف يقدح نار توهجه وسهاده.. أو أني أجد على النار هُدى!

لكني واأسفاه كنتُ قد استنفدتُ القَدْرَ المأذون لي به في بلاد النور! فاضطررت إلى العودة بجراب خَاوٍ، لا أحمل إلا أثقال الآلام إلى مكناسة الزيتون في وطني، على أمل العودة لاستئناف دروس الحكمة في مدرسة النور! لكن القدَر أخرني عنها نحو عام أو يزيد قليلاً!

عندما غادرت مطار إسطنبول أحسست بأني أحمل في كبدي كل أوجاع الدنيا، وأني لم أفلح بعد في العثور على سر دوائي! فوضعتُ رأسي بين يدي، وانكفأتُ على مؤخِرة الكرسي أمامي، وأغمضت عيني في استرخاء ناعس، وجعلتُ أنظر من خلف مُقْلَتيَّ إلى شاطئ الآخرة قريباً، وتجلت لي أعمالي وهول حالي فبكيت!

* * *

في وطني المكروب، خرجتُ حبوا نحو مسجدي، فشاهدت منبري القديم، وهزتني الأشواق إلى الأيام الخوالي، فلم أطق يا سادتي حبس جماح الحنين إلى أعواده، فألقيت بنفسي في أحضانه العالية! وجعلت أشرب من عيون مصحف صغير منشور بين يدي، وأرش سنابلَ القمح الخضراء أمامي.. كانت غصونها الرطبة تنبت من تحت حصير المسجد، وتزدحم وريقاتها الجميلة بين السواري والأقواس، حتى تملأ المكان خضرةً، ثم تشرئب برؤوسها الملأى نحو القبلة.. ولكن واأسفاه!.. لم تمض سوى أيام حتى تحطم المنبر من تحتي، فوقعت على الأرض صريعا! وعلمت بأني واعظ غير مأذون فرجعت إلى فراش العلة كسيرًا!

ثم لم تكد السنة تسلخ من عمري أيامها، حتى هبت رياح السفر مرة أخرى، فجمعت أوجاعي ورحلت..

....

كل طائرات العالم تسافر في المكان، إلا طائرة إسطنبول؛ فهي وحدها ترحل في الزمان! كلما نزلتُ في مطار دار الخلافة، وجدتني أعيش في زمن آخر تماما! ولم يفلح ضجيج العصر الآلي، ولا تقدمه الصناعي، في حجب الحقيقة عني! كنتُ أتجول بسهولة ما بين خيول الفاتحين.. كنت أشاهد

جيوش الصحابة والتابعين تتدفق أمواجها على سور القسطنطينية القديم؛ تتعالى في الفضاء تكبيراتها بالبُشْرَى والنور! كنت أقترب جدا من عَرِيش السلطان مراد الثاني، فأصغي إلى تهجده وأذكاره، وأسمع حمحمة خيول ابنه محمد الفاتح. ولقد اقتربت منه حتى تجلى لي وجهه كاملاً مثل البدر الجميل.. كان شابا في التاسعة عشر من عمره، تماماً على سن الصحابي أسامة بن زيد ﵁، لما جعله النبي ﷺ أميراً على جيش أصحابه في غزو الروم! ورأيت محمداً الفاتح مرة أخرى في مدينة "أدِرْنَه" يرص صفوف جيشه العظيم لفتح القسطنطينية.. كان قريباً مني قريباً.. وودت لو أني سلمت عليه وقبلت يديه، ولكن ما منعني من ذلك إلا أني لم أكن مأذوناً!

وإني لأتجول ما بين زمن السلاجقة في بلاد الأناضول إلى زمن العثمانيين، وخلافة الإسلام العظمى، وأنا أشاهد أمواج التاريخ تتدفق حية بين يدي، وأتبع حركة الفتوح ما بين أضلاع أوروبا إلى أقصى تُخُوم الصين! وكم كنت أتجهز الليالي بوقود الصبر لدخول زمن الذئب الأغبر! كنت أشاهد تلاشي آخر ملوك بني عثمان، وسقوطهم في شباك يهود! وأسمع صيحات الألم الصاعدة من أعماق تلال إسطنبول، وشلالات تركيا، وأنين فلسطين! كنت أتتبع خاتم الحكمة التركية وهو يتقلب بين أصابع الوارثين أنى مرساه! ولقد رأيته بعد سقوط مئذنة السلطان في يد بديع الزمان النورسي! حتى إذا رحل شاهدتُ فتح الله يدسه في محفظته القديمة!

ثم ما أزال أتدرج عبر الأزمنة مقاماً بعد مقام، حتى أصل إلى باب المستشفى، وهناك أدرك أني قد دخلت زماني، فأتسلق أغصان دالية الحزن وأدخل عش شجوني!

* * *

عندما كنت أتلقى دروس الحكمة بين يدي راوي الأشجان، كانت عيناه تبحران في برزخ غروب هارب، فلا يزال يحكي حتى تخرج أشباح مرمرة من مخابئها، وتبيت تسرح في ظلمة شاملة، تثقبها بالنور مصابيح الزوارق الصغيرة، المبحرة هنا وهناك، وأنوار الجزر الناعسة فوق الماء..

قال لي:

صحبة الأغنام في مسارح الخلوات يا صاح، هي أول مدارج الأنبياء إلى مقام الوصل العالي، وهي طريق الأبدال إلى تلقي الأحوال. لا مسلك لعاشق النور سواها! فاحمل عصاك على كتفك، وارحل إلى وادي الروح فَرْداً! فكل عقبات النفس سيناءُ، وكل أشواقها طُورٌ ونورٌ! لكنك لن تدرك بوارق البشرى يا صاح إلا بعد مسير دام على أشواك الليل ترعى أكباد غنم لم تزل ترغو بين الوديان، في طريقها إلى موعدها الموعود.. حتى إذا نطقت البُهْمُ بما يُفهم فاعْلَمْ أنك قد أدركتَ مقامك! وهناك يا صاح هناك، اِخْلَعْ نَعْلَيْكَ وَأَلْقِ عصاك... واشْهَدْ في أفق الظلمة أنوارَ الوصل، سُرُجاً من عناقيد الحب تتدلى... فاقطف منها ما أنت تشاء! فإنَّ لكَ بكل خفقة قلبٍ نورًا ونارًا! أما النور فذاك غذاؤك عند رجوعك إلى مدائنهم، وأما النار...

قالها ثم سكت مَلِيّاً، انتظرتُ تتمة حكمته، لكن لم يَنْبس ببنت شفة!

قلتُ وقد نفد صبري: بأبي أنت وأمي يا زاويةَ الروح.. ما شأن النار؟

لكنه التفت عني جهةَ شروق الشمس وصمت.. كان ينظر إلى ضوء الفجر الآتي من أفق الروح البعيد، ويشير بيده إلى منابعه الكبرى، فنظرتُ:

فإذا فتح الله كان هناك!.. كان يمشي بقدمين حافيتين على حقول الجمر، فينبثق البرق شديدا من بين جوانحه، حتى يضيء الآفاق، فيتألم

من أوجاع المحنة! وما أدرك سارٍ نورَ بشارته إلا بنار تصفي خافقه من أتربة الأهواء، حتى لا يبقى من معدنه إلا الإبريز الخالص!

وعرفتُ طريقي، فاتبعت آثار الأغنام؛ فتلك مواقد النور اللاهب تشتعل عند مراعيها..

....

فتح الله الآن فتى يرعى غنمه في حِمَى قريته البرية، كان يتأبط كتابه ويحتضن سِرَّهُ! لكن فتح الله ليس يبوح به! فلم يزل في ظلال طفولته يتدرج بمسلكه سِرًّا، وأنا أتبع ظله، فلعلي أعثر بين خطى سيرته على أبواب معارجه، ولعلي أرى صندوق مفاتحه المكنون!

قال لي:

هو إمامٌ تخرَّج من محاضنه متعلقا بمعارج الحب، عاشقا لحقائق الروح، مرتبطا بمسالكها العلوية؛ فكان بذلك محافظا على صلاته منذ صباه الأول، فلم يذكر أنه ترك صلاة واحدة قط، منذ أن شرع في التتلمذ على والدته، وهو ما يزال يتدرج بمدارج طفولته الأولى. وهنا بدأت أولى لسعات النار!

عندما افْتُتِحتْ أولُ مدرسة ابتدائية في القرية انخرط فيها مستمعا فقط، وذلك لمدة ثلاث سنوات، حيث لم يُسمح له بالانتساب الرسمي إليها لصغر عمره آنذاك عن السن القانوني. ولكنه مع ذلك أثبت أنه كان أذكى من كل زملائه وأوعى! ولم يزل أثناء تمدرسه الأولي محافظا على صلاته، مرتبطا بمواقيتها بصورة عجيبة!

والصلاة محنة لصاحبها في تلك المرحلة العصيبة من تاريخ تركيا! فقد كان هناك جيش من المعلمين، تلقنوا الإلحاد في مدارس العلمانية

الحديثة، ثم نُشروا على طول البلاد وعرضها؛ لتربية الناشئة على نظريات الإلحاد وإنكار حقائق الدين! وصادف أن كان المعلم الذي يدرس الطفل فتح الله أحدهم، فجعل يمنعه من أداء صلاته، ويطارده من أجلها حتى في أوقات الاستراحة! ولكن بقدر ما كان المعلم يسخر بالدين وأهله، ويُشدد الحصار على براءة الطفل الوديع، كان فتح الله أشد ارتباطا بصلواته، وأكثر إصراراً على الحضور بمواعيدها؛ مما أفشل مشروع المعلم الملحد، وحطم ما وراءه من ترسانة بيداغوجية حديثة! فأثار ذلك كله حفيظته وأذكى غضبه، فجعل يسخر من الطفل وينعته بلقب "المُلاَّ!"(١) وكل ذلك إنما كان يزيد الفتى محبة في صلاته، وعشقا لمعراجه الروحي الأثير، رغم قساوة تلك المضايقات البليدة!

إلا المعلمة "بَلْمَا" فقد كانت أستاذة لطيفة حقا.. كانت امرأة مدنية جاءت من إسطنبول، وعندما رأت الطفل اكتشفت فيه مخايل العبقرية فاهتمت به اهتماما خاصا. وقد زادها خُلُقُهُ الرفيع وأدبُه الجم حبا له وتقديراً! فلم تزل تلاطفه وتواده إلى أن فارق المدرسة.. كانت تنظر إليه أحيانا، فتقول بأسلوب التنكير، مشيرةً إليه أمام التلاميذ جميعا: "سيأتي يوم يتجول فيه ضابطٌ سامٍ على جسر كَلَطه!".. وجِسْرُ "كَلَطه" قنطرةٌ تاريخية مشهورة، تنتصب فوق مياه الخليج بإسطنبول، مدينة الجمال والأحلام! وكان المثقفون والأدباء والشعراء يومئذ، يتجمعون حوالي الجسر بالمقاهي المفتوحة هناك، ويجلسون على الكراسي المنصوبة بحواشيه.. وكثيراً ما كانوا يمشون فوقه متنزهين ذهابا وإيابا. فكانت المعلمة "بَلْمَا" تغمض عينيها ثم تتخيل هذا الفتى ذا العبقرية الخارقة، قد كبر وترقى بمراتب

---

(١) لقب علمي للمتخرجين من مدارس التعليم العتيق بتركيا.

الدراسة، كما يترقى الجندي البسيط بالمراتب العسكرية، حتى يحوز على الألقاب العليا؛ فيكون من كبار الضباط! وتشاهد الفتى بخيالها وهو يتدرج من قريته النائية الصغيرة، شيئا فشيئا إلى أن يصير من خاصة الخاصة بمدينة إسطنبول متنبئة للطفل بمستقبل زاهر، يكون فيه أحد أعلام الفكر والثقافة في البلد.. وقد كان!

ولا ينسى صاحبنا أبداً ذلك اليوم الذي أحدث فيه التلاميذ ضجة وفوضى في قاعة الدرس، فحشرتهم المعلمة للعقاب، ولم يدر الطفل كيف وجد نفسه وسط جماعتهم وهو ليس منهم؟! فجعلت تضربهم واحداً واحداً، حتى إذا جاء دوره للعقوبة ووقف أمامها، قالت له: "حتى أنت!" فمعكت شحمة أذنه ثم أرسلته ولم تضربه. لكن هاتين الكلمتين الصغيرتين، كانتا كافيتين لإيلامه وتعذيبه، بما هو أقسى على قلبه من كل الضرب الذي تلقّاه التلاميذ، حتى ولو اجتمع كله على ظهره ويده!

وكم كان أسف المعلمة "بَلْمَا" كبيراً لما فقدت الطفل بعد ذلك في الصف! وإنما كان السبب رحيل أسرته الصغيرة من قرية "كُرُوجُكْ" إلى قرية "أَلْوَارْلِي"، حيث صار أبو فتح الله إمام القرية الجديدة، فاضطر الطفل للانقطاع عن الدراسة في منتصف الصف الثالث! ذات مرة زار قريته الأولى حيث الجد والأعمام، فأبصرته المعلمة ونادته بإغراء وتَرَجٍّ:

- "محمد!.. لقد نقلتك إلى الصف الرابع، ما رأيك؟ ألا تستأنف الدراسة؟"

هكذا بلا امتحان، ولا حتى إتمام لما فاته من برامج الصف الثالث كان رجاؤها أن يتحقق حلمها فيما رأته من عبقرية هذا الطفل الصغير، ولكن دون جدوى.. فقد اختار الفتى طريقا آخر! فكان ذلك آخر عهده

بالمدارس الرسمية. ولم يتتبع مسلك الشهادات والبرامج المقررة، وإنما اكتفى بالشهادة الابتدائية، التي حصل عليه -فيما بعد- بالمشاركة الحرة في أرضروم.

• • •

ما بين مساعدة الوالدة في أشغال البيت، ومساعدة الوالد في رعي الماشية، كان الفتى يحتضن الكتاب بشوق غامر، فيختلي بمناجاته في البيت أو في جلوات المراعي، يلتهم بروحه المتبول الصفحات تلو الصفحات، ويدس في أعماق صدره الكتاب تلو الكتاب! والغريب أنه كان يتقن قراءة الخط العثماني والكتابة به، وهو الخط العربي الذي كان معتمد الكتابة والنشر، في عهد الدولة العثمانية. ومكمنُ الغرابة في ذلك أنه لا يذكر متى تعلمه ولا كيف!؟ فما ثبت أن تلقاه عن أحد داخل الأسرة ولا خارجها! فمذ عَقِلَ وجد نفسه قارئا له كاتبا! ولم تكن المدرسة الرسمية يومئذ تعلم سوى الخط اللاتيني، الذي فرضه الانقلاب العلماني، بعد تحريم تداول الحرف العربي، قبل ميلاد فتح الله بسنوات!

ومع هذا وذاك؛ جعل الفتى يجهد لإتمام ما بقي له من أجزاء القرآن، حفظاً واستظهاراً. وكان الوالد أحرص ما يكون على أن يرسخ كتاب الله في قلب ابنه رسوخاً؛ فجعل يقرئه بنفسه السورة تلو السورة، حتى جمع القرآن كله في صدره جمعاً. وقد احتضن الوالد -إلى جانب ابنه- ثلاثة طلاب آخرين، يقرئهم القرآن جميعا، فكان حفظ فتح الله عجيباً! لقد كان يسابق الزمن، إذ كان الفصل شتاء، وهو يخشى من حلول فصل الصيف، حيث تتكاثف الأشغال ما بين المزرعة والبيت، بما يملأ ليله ونهاره، فجعل يحفظ في كل يوم نصف جزء من القرآن. فما أن حل فصل الصيف

حتى كان قد تم له المراد، وحفظ فتح الله القرآن، كل القرآن. ولا أضاع -رغم ذلك- للبيت ولا للماشية حقًّا!

نعم، لقد كان طفلا، لكنه كان يحمل في صدره قلب رجل. فعومل لذلك معاملة الرجال، ولمّا يجاوز حينها السن العاشرة من عمره.

مدارس التعليم العتيق ورحلة المعاناة والألم!

كانت مدارس بلاد الأناضول قد احترقت كل حدائقها؛ وباتت كل الكتب وقوداً للنيران، منذ أن ضرب الإعصار اللاهب دار الخلافة! ولم يبق لمحاضرِ العلماء بها إلا خيط دخان، لم يزل يرحل في الأفق الغارب على وهن، من هذا المسجد أو ذاك!

كان فتح الله يبصر طريقه إلى غده من على مئذنة المسجد.. كان يرى الخيول تنتظره هناك، في الجهة الأخرى لشاطئ زمن، لم يعلن الصبح عن مولده بَعْدُ، لكنه كان على يقين بمجيء موعده! وكان عليه أن يتلقى حكمة ألف كتاب وكتاب! عسى أن تُتَوِّجَهُ الخيل أميراً على زمن الفتح! فكان لا يرى بين حرائق مساجده دخاناً إلا اتبع بمسلكه سبباً!

قال الراوي: لم تكن آنذاك مدارسُ ولا معاهدُ -بالمعنى الحقيقي- للعلوم الدينية واللغوية، في منطقة أرضروم ونواحيها. فمن ناحية قضى الانقلاب العلماني على كل أشكال التعليم الديني في بلاد الأناضول كلها، ومن ناحية أخرى بدأ جيل العلماء ينقرض شيئا فشيئا.. ولم يكن قد أتيح للخلَف أن يكون في نفس المستوى إلا نادراً! فما كان من ملقني العلوم الشرعية آنئذ إلا بعض أئمة المساجد، المتناثرين هنا وهناك، بين

القرى والبوادي، لا يحمل أغلبهم من العلم إلا بضاعة مزجاة!

ذلك كله بالإضافة إلى عوامل أخرى، جعلت الفتى فتح الله لا يكاد يستقر عند شيخ من الشيوخ، إلا شهراً أو شهرين، ثم يحمل عصا ترحاله من جديد بحثا عن شيخ جديد! ولقد وجد في ذلك من مرارة البحث المستحيل، ومعاناة السفر من هنا إلى هناك، بلا مِزْوَدَةٍ ولا زاد؛ ما جعله يروي غليله بنفسه بمطالعة الكتب الدينية واللغوية بشتى أنواعها، دراسةً واستظهاراً حتى نبغ وفاق كثيراً من شيوخ زمانه ولم تزل زهرة عُوده يومَها تتبرعم ما بين الطفولة والشباب!

كانت الرحلة مريرة على كل المستويات، النفسية والاجتماعية. فبعد أن لقنه والده مبادئ اللغة العربية، واطمأن إلى إتقانه للقرآن، قرر أن يرسله إلى "الحاج صدقي أفندي" بقرية "حصن قلعة" من أقاليم أرضروم، على بعد نحو سبع كيلومترات من قريتهم أو تزيد. وطار الفتى مسروراً، متلفعا بجناح الريح؛ شوقا إلى مشيخة الإمام صدقي أفندي. هذا الإمام الذي كان مشهوراً بتلقين قواعد التجويد، وبعض العلوم الشرعية. لكن المأساة أن الطفل لم يجد مكانا للمبيت بمحضرة الشيخ! فاضطر للذهاب والإياب كل يوم ما بين قريتهم وقرية الشيخ، فيقطع ما بين الصباح والمساء، أكثر من أربعة عشر كيلومتراً، سيراً على الأقدام!

أما الشيخ "صدقي" فقد كان بزازاً، وكان لديه دكان لبيع القماش، وإنما كان يدرس الطلبة في أوقات فراغه لكنه ما كان يأخذ أجرة التدريس من أحد. فقد كان يفعل ذلك لوجه الله. وكان رحمه الله رجلا كريما، حيث كان يجهز طعام الغداء لطلابه في بيته كل يوم.

لكن والد فتح الله ما اطمأن -بعد ذلك- إلى وضع ابنه هذا إطلاقا،

فأمره بالانقطاع عن الذهاب إلى محضرة الشيخ صدقي أفندي؛ لأن ما يقضيه من الوقت في الطريق إليها صباح مساء، أكثر مما يقضيه متربعا بمجلسها، فكانت فرصة أخرى لمعانقة فتح الله للكتاب، والسياحة الحرة في أفق المعارف والعلوم.

إلا أن الإمام الألوارلي تدخّل بعد فترة، فاقترح على الوالد أن يرسل الفتى ليدرس عند حفيده "سعدي أفندي"، إمام مسجد "قُورْشُونْلُوْ" الموجود بمدينة أرضروم، حيث اتخذ الإمام الشاب غرفة صغيرة جدا من بناء المسجد، جعلها مدرسة لتدريس علوم الشريعة. كانت المدرسة من الضيق بحيث لا تتسع لاستيعاب أكثر من بساطين صغيرين، وكان سقفها من خشب، لا يقي من مطر ولا يحمي من ثلج. ومع ذلك كان يبيت بها خمسة طلبة، ثم جاء فتح الله ليكون سادسهم.

انطلق الفتى مرة أخرى إلى المدرسة الجديدة، فإذا به بين يدي إمام شاب، لا يكاد يفوقه سنا إلا بخمسة أعوام أو تزيد قليلا. كان سعدي أفندي متمكنا من معارفه، إلا أنه كان عديم الخبرة في التلقين والتدريس. ورغم أن الفتى فتح الله كان قد درس المقررات الأولى؛ فقد أصر عليه الشيخ الشاب أن يبدأ من الأول. فكان أن استظهر بين يديه كل المقررات بعد شهرين ونصف، فاضطر الشيخ بعد ذلك إلى أن يجعله ضمن حلقة المتقدمين الذين بدؤوا دراسة النحو والصرف قبل سنتين.

بيد أن الطفل قضى أياما صعبة جدا بمدرسة سعدي أفندي هذا، أياما لا تكاد تنمحي من ذاكرته الجريحة، حيث كان يضع كل أشيائه في صندوق صغير يحمله بيده أبدًا. ولم يكن أبوه يستطيع أن يوفر له من النقود سوى ثمن الخبز، ثم ينفق الباقي من مدخوله الزهيد في إعالة أبنائه

الصغار. ذلك أن أسرة رامز أفندي والد فتح الله، تغير حالها المادي كثيرًا، وقُدِرَ عليها رزقُها، خاصة بعد مغادرتهم قرية "كُرُوجُكْ"، فعاشت فاقةً وحرمانا شديدين.

وإن كان الإنسان ينسى فإن فتح الله لا ينسى أبداً أيام القر الشديد والزمهرير المديد، وأرضروم كلها -مدائنها وقراها وجميع حِمَاهَا- هي موطن البرد ومسكن الثلج الأبدي، من كل بلاد الأناضول.. صيفُها شتاءٌ، وشتاؤها فَنَاءٌ.. غيابٌ شاملٌ للإنسان والحيوان والأشياء.. كل شيء تغطيه الثلوج، فلا تواصل بين أهاليها إلا عبر الخنادق والأنفاق التي يحفرها الناس من تحت تلال الثلوج؛ فَيَتَسَرَّبُونَ بها لقضاء ضرورياتهم الاجتماعية، ثم يؤوب كل شخص إلى عشه، محتميا بموقد أسرته قبل أن يتجمد لحمه ودمه.

في تلك الأيام الرهيبة كان الفتى كلما اضطر إلى الاغتسال، يدخل مرحاض المدرسة، فيغسل جسمه بماء بارد عقيم لم تخالطه ولا غرفة واحدة من ماء سخين. كان ذلك في الحقيقة عملا رهيبا! فلم يزل فتح الله يذكر كيف أن قدميه كانتا تلتزقان -أثناء الاغتسال- بالجليد الذي تساقط ماؤه قبل ثوان مِنْ عَلَى جسمه، فتجمّد للتو من تحت رجليه، ثم اعتقله إلى الأرض. فكان إذا أراد غسل قدميه اقتلعهما -الواحدة تلو الأخرى- من الجليد اقتلاعا! ثم هو مع هذا وذاك، لا ينسى أبدا تلك الرهبة الشديدة التي يحدثها صب الماء القارس على جسمه، إفراغاً من فوق رأسه إلى أخمص قدميه. ولولا أن الله متّع الفتى -منذ صباه- بقوة جسمانية خاصة، لكان من الهالكين.

الفقدان الأليم..!

يُتْمٌ ولا كيُتم الأبوين!

حزنٌ ولا كحزن الثقلين!

غيابٌ ولا كغياب القمرين!

قال لي: بينما كان الفتى بالمدرسة منهمكا في مطالعة كتاب في علم الصرف، كان الطلبة من حواليه يتهامسون بشيء..! ففهم من هيأة نجواهم أنهم يحاولون إخفاء خبر ما عنه.. لكنه ما لبث أن طار إلى سمعه من لطائفهم أن جده "شامل" وجدته "مؤنسة هانم" قد توفيا هذا اليوم -بقرية "كُرُوجُكْ"- في ساعة واحدة. فطار الفتى مِنْ عَلَى الأرض فزعاً، وازْلزلت به الأرضُ زلزالا شديداً، وكأنما الدنيا كلها قد انهدمت فوق رأسه، فتحطّمَ كلُّ شيء من كيانه. ولكن المأساة كانت أعظم بالنسبة إليه لَمَّا وصل القرية، فعلم أنهما قد دفنا قبل وصوله، وانتهى كل شيء.

وبكى الطفل على جديه طويلا..! لم يستطع أن يصدق أن جده الأثير قد فارق الدنيا إلى الأبد فعلا، ولا أن جدته الصالحة قد غادرته من غير كلمة وداع! فقد كان حبه لهما غير عادي، وكانت علاقته بجده العظيم موصولة بلغة الروح والوجدان، فصعب على قلبه الغض هذا الفراق الأليم حتى إنه جعل يدعو صادقاً: "اللهم توفني حتى أرى جدي وجدتي!"

كان رباط المحبة بين أفراد الأسرة وثيقاً، وكانت علاقة فتح الله بِجَدَّيْهِ من نوع آخر، فلما قَضَيَا شَعَرَ بانقطاع موارد الاستمداد لطاقة الروح، وانبتات جذور الشعور بجمال الحياة. ومن غريب الموافقات أن الجدين قد توفيا معا في لحظة واحدة، وكأنهما اتفقا على موعد الرحيل! مات

الجد شامل أولا، ثم ماتت الجدة مؤنسة في الغرفة المجاورة بعد ساعة واحدة فقط! رحلا معا ثم وُورِيَا التراب، وفتح الله لم يزل في الطريق قادما من أرضروم، بقلب يمزقه الألم والأسى، حتى إذا وصل وجد البيت أفرغ من فؤاد أم موسى، فوقعت الصدمة على قلبه أضعافا مضاعفة. فلم يزل يبكي أياما حتى تواترت التنبيهات من حوله، بضرورة استئناف الذهاب إلى المدرسة.

عندما مات الجد "شامل" شعر فتح الله أن معراجه إلى الزمان القديم قد أُغلق إلى الأبد، ووجد أن عليه فتح معراج جديد على جدار قلبه الجريح، وأن ليس له إلا أن يطرق بمواجده الْحَرّى باب الزمان الجديد.

عندما تسلق تلال قلبه الزمردية، فاجأه أنْ وجد بين خمائلها وصية جده، مكتوبة على قوس قزح، كانت عبارة عن خريطة من نور تسلك به إلى مَكانِزِ الروح، وتُوَرِّثُهُ أسرارَ الحكمة، وتكشف له عن موازين دورة التاريخ، فحمل الفتى أحزانه على كاهل الصبر، وسافر إلى مدرسته البعيدة من جديد.

حكاية الواعظ الصغير

قال الراوي:

كانت العادة في الأعياد والمناسبات الدينية، أن يعود الفتى إلى القرية، ويلتحق بأسرته التي كانت تجتمع في كُرُوجُكْ مع الجد والأعمام. وللعيد في البادية جمال احتفالي خاص، لا تعرفه الحواضر والمدن.

في مناسبة من أيام عيد الأضحى، طلب بعض الناس من فتح الله

أن يلقي عليهم وعظا بمسجد القرية، وربما كان ذلك بإيعاز من والده رامز أفندي، فلعله أحب أن يتدرب ابنه على هذه الصناعة منذ طفولته. وهرع الفتى إلى كِتَابٍ للوعظ، فراجع فيه مقاطع من السيرة النبوية لوقت وجيز، ثم دخل المسجد. كان كرسي الوعظ عاليا جدا، وكانت درجاته من الارتفاع بحيث لم يستطع الواعظ الصغير تسلقها، لكن فترة الحرج لم تطل، فما هي إلا ثوان حتى وجد نفسه محمولا بين يدي أحدٍ من أصدقاء والده، إذ رفعه عاليا حتى وضعه مستويا على الكرسي بصورة لا تخلو من مداعبة. فتبسم الحضور لطرافة المشهد.

كان الدرس الذي اختاره فتح الله متعلقا ببيان جانب من محنة الرسول ﷺ في سبيل دعوته، ومن ثم جعل يحدث الناس بقصة عدو الله "العاص بن وائل" الذي وصف النبي ﷺ بالأبتر، والذي نزل في حقه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾(الكوثر:٣) لكن الفتى أخطأ في ضبط اسم الرجل؛ لأنه عندما كان يراجع القصة قبل لحظات اختلط عليه اسم راوي الحديث مع اسم عدو الله العاص بن وائل، فبدل هذا الاسم القبيح، لا يدري كيف رسخ في ذهنه اسم التابعي "أبي صالح"، بل لقد سقطت من ذهنه حتى كلمة "أبي"، فجعله بعد ذلك أثناء الوعظ "صالحا" فقط! فصب الفتى كل غضبه على "صالح"، وجعل ينعته بأسوأ النعوت والصفات. لكن المشكلة الكبرى ههنا أن رجلا من القرية كان اسمه "صالحا"، لكنه لم يكن يملك من أوصاف الصلاح شيئاً، بل كان خبيث الطبع، سيء المعاملة، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، ولا يأتي الصلاة إلا في الأعياد! فكان قَدَرُهُ هذه السنة أن وجد نفسه متربعاً بين يدي الواعظ الصغير، ليسمع من التجريح ما لم يسمعه قط في حياته!

وبدأ الفتى الهجومَ على "صالح" على ما توهمه من أنه عدو الرسول ﷺ، فجعل يصيح من كرسي الوعظ: "يا عديم التربية يا صالح"!.. يا كالح الوجه يا صالح"!.. "يا غليظ القلب يا صالح"!.. "يا خبيث اللسان يا صالح"!.. "يا سيء الطوية يا صالح"!.. إلى آخر ما خطر بباله من ألفاظ النعوت القبيحة وعبارات الهجاء اللاذع، عَدَّهَا عليه الواحدة تلو الأخرى من كرسي الوعظ، أمام الناس.

كانت العبارات تنزل كالصواعق على رأس "صالح" الآخر، وهو جالس قريبا من كرسي الوعظ! فكلما أصابت دماغه قذيفةٌ من قذائف الطفل البريء، احمرت عيناه وانتفخت أوداجه حتى قاربت الانفجار. وماذا عساه أن يفعل أو يقول؟ فإنما هو طفل صغير، وسيرة نبي كريم. فما أنهى فتح الله وعظه، حتى كان الغضب قد أوشك على خنق أنفاس الرجل الشقي.

ولم يغب ذلك عن كثير من الحضور، فكانوا يبتهجون لكل صاعقة تقرع رأس صاحبهم، ويتنفسون الصعداء لكل كلمة تصدر من فم الطفل في حق "صالح"! كانوا يجدون النعوت والصفات القبيحة التي يذكرها الواعظ الصغير، تنطبق جميعها على هذا الرجل الفظ الغليظ. ولكأن الله قيض له مِنَ الصِّغار مَنْ يؤدبه بما عجز عنه الكبار. ولقد حدث ما حدث والفتى مُتَّقِدُ الوجد، خالص القصد، هائم في درسه بكل براءة، ينافح عن حبيبه رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وهو لا يدري ماذا يقع بين يديه من مَقَارِعَ ومَصَارِع.

وبعد انتهاء الصلاة عاد الواعظ الصغير إلى البيت، فما أن رآه والده حتى انفجر بضحك عميق، استبد به -على غير عادته- حتى كاد يتمرغ

على الأرض، وبقي الطفل مشدوها لا يدري سبب هذا المشهد العجيب من والده.. حتى إذا سكنت عاصفة الضحك، جعل الوالد يخبر ابنه بقصة وعظه الذي جلد به طاغية القرية بسبب خطأ غير مقصود.

وفاة الأب الروحي، ومأساة التهجير!

كانت العلاقة الأسرية بين آل الإمام الألْوَارْلي؛ وبين آل كولن متميزة جدا، إلا أن حفيده "سعدي أفندي" لم يستطع أن يحافظ على نفس صفائها، ففشل في معاملة تلميذه فتح الله بمدرسته الصغيرة في أرضروم، وضايق الفتى أياما، ثم اضطر بعدها إلى ترك مدرسته ورجع إلى القرية ليتفرغ للمطالعة الحرة مرة أخرى.

بينما كان فتح الله يستريح ممتدا على أريكة قديمة في صالة بيتهم الصغير بقرية ألْوَارْلي، إذ سمع هاتفا يطرق أذنه بشدة: "إن أفا قد مات!" فوثب من مكانه فزعا! "أفا؟" إنه لقب الإمام الألْوَارْلي: محمد لطفي أفا.. وانطلق يركض في اتجاه منزل شيخه الروحي المحبوب، فما أن وصل حتى أدرك أن الهاتف كان حقا. فهؤلاء الجيران يتجمعون حول البيت، ولما ينتشر الخبر بعد في أنحاء القرية. وأدرك الفتى أن القرية قد فرغت من روحها بفقدان مرشدها الحكيم! وانخرط فتح الله مرة أخرى في مسيرة جديدة من البكاء! فإذا بكى أمس -بموت جديه- لنزيف الرَّحِم؛ فإنه يبكي اليوم -بموت شيخه الأكبر- لنزيف الروح!

وبموت الشيخ الإمام أدرك رامز أفندي والد فتح الله، أنه لم يعد له في قرية ألْوَارْلي مكان. فالشيخ رحمه الله هو الذي نصبه إماماً لمسجد ألْوَارْلي،

وكان له حصنا منيعا من حساده، ومنهم أبناء الشيخ نفسه وحفدته! فكان رامز بذلك في حمى مهيب، لا يستطيع أحد من أهل القرية أن يقترب منه، بَلْهَ أن يقتحمه أو يهدم أسواره! أما وقد مات الشيخ فقد تحطمت الأسوار، فما بقي لآل كولن إلا الرحيل مرة أخرى! ورغم أن عامة أهالي القرية على تقدير عظيم لإمامهم "رامز أفندي" واحترام كبير؛ إلا أنه -رغم ذلك- لَقِيَ معاملة قاسية، ومضايقات من أبناء الشيخ الأَلْوَازلي وأنصارهم، وهو الغريب عن البلدة، لا حمى له بها ولا عشيرة! فبدأت طلقات الكلمات الجارحة تخرق أذنيه وتدمي قلبه! فمنصب الإمامة في القرية منصب محسود، وكل من له حظ من القرآن يرغب في أن يسطو عليه. أما الطفل فتح الله فقد تأذى من ذلك كثيرا! فما كان يطيق أن يرى أباه المحبوب في ذلك الموقف المهين، ومن ثَمَّ لم يكن للأسرة بد من الرحيل.. ولكن إلى أين؟

كان التفكير الطبيعي أوّلَ الأمر هو الرجوع إلى القرية الأصلية، حيث البيت القديم والأسرة الكبرى: كُرُوجُكْ. لكن هذا صعب جدا على الفتى، لأن رجوع الوالد إلى كُرُوجُكْ معناه رجوعه إلى الزراعة والماشية. وكان يحب أن يرى أباه إماما يؤم الناس ويعلم القرآن! ومن حسن الحظ أن الله يسر له وظيفة الإمامة بقرية أخرى غير بعيد، فرحل إلى "أَرْتُزُو" بضواحي أرضروم. وهنالك حطت الأسرة رحال المعاناة إلى حين.

تشرد في ليالي الإعصار

وماذا بقي من حدائق الروح سوى هشيمها؟ وماذا بقي من حرائق الغابات سوى رمادها؟ فلم يزل طلاب العلم البؤساء يبحثون بين أطلال

المدارس الإسلامية عن ورقة، أو بعض كراس، أو مخطوط لم تزل مخايل حروفه تتجلى باهتة من خلف سواد الحريق.. فلعلهم يجنون من بقايا النار بعض الآثار أو لعلهم يعثرون على بقايا عش لم تدركه ألسنة اللهب فيرممون أضلاعه المهشّمة عسى الطيور تعود..!

فواحسرتاه عليك يا زمن الربيع واحسرتاه!

بعد الانقلاب العلماني بتركيا، ملايين الكتب الإسلامية والمخطوطات العربية النادرة، أرسلت لتعجن في معامل الورق بالخارج! وكان مصير كثير من الكتب الأخرى المحارق والأفران! أما المصاحف فقد أعدمها أصحابها إعداما! وقليل منهم جعل لمصحفه صندوقا، ودفنه بمنزله على عمق في التراب، أو تخلص منه بعيدًا في كهوف الجبال! ويا ويل من عُثر في بيته على كراس أو حتى على ورقة، فيها أثر لحرف عربي أو خط عثماني! فسلاسل الأحرف اللاتينية صارت تعتقل أصابع الأطفال والمدرسين في كل بلاد الأناضول!

أما المدارس الدينية التي كانت في العهد العثماني، فقد أغلقت بعد الانقلاب الجمهوري، أو حُولت إلى مدارس لتعليم الإلحاد وترسيخ العلمانية الجاحدة، ولم يبق لطلاب الشريعة سوى الفرار إلى البوادي النائية، والمدن المنعزلة، والاختفاء بغرف صغيرة اتخذوها مدارس لهم بعيدا عن أعين السلطات.. غرف لا تتجاوز سعتها بضعة أمتار، تكون في الغالب مقتطعة من مرافق المسجد؛ بها يتلقون الدروس، وبها يتناولون القوت، وبها ينامون.

ورغم هذا وذاك فقد بدأت أشواق الدراسة، والتلقي عن الشيوخ، تهيج بقلب فتح الله مرة أخرى، وتلهب آماله الكبرى من حين لآخر،

حتى إنها لتكاد تكشف عن أسرارها.. ولم يطق الفتى بعد ذلك صبرا على عصفها الشديد.. فما كان منه إلا أن استأذن والده، وحمل صندوقه الصغير الذي يضع فيه كل ما يملك من لباس وكتب، وشد الرحال إلى مدينة أرضروم مرة أخرى. وهناك التحق بمدرسة أخرى للتعليم العتيق، بالقرب من مسجد "كَمَخَانْ"، لكنه وجد المكان ضيقا جدا كالمدرسة الأولى تماما لا يؤوي أكثر من خمسة طلاب أو ستة على الأكثر! وصادف أن بعض القاطنين به كانوا من قرية أَلْوَارْلي، بل من أسرة لها صداقة خاصة مع أسرته؛ فكان سادس المجموعة مرة أخرى! واختنقت المدرسة بسكانها حتى أنه إذا ابتلي طالب منهم بضيف لا بد منه؛ كان معناه أن أحدهم سيبيت واقفا أو -في أحسن الأحوال- قاعدًا.

أما فتح الله فقد بات ليالي جالساً، يغفو أحياناً ثم يصحو..! ذلك أنه كثيراً ما كان لا يبقى له مكان لمد رجليه! وهو لا ينسى -في هذا السياق بالذات- ذكرى عجيبة ذات دلالات عميقة على طبيعة شخصيته، ورهافة حسه، وشاعرية وجدانه، إلى درجة تكاد جوانحه تشف عن دفقات الدم الجارية بشرايين قلبه! فذات ليلة لجأ الأصدقاء إلى مراقدهم، وتمدد كل منهم على راحته في فراشه، وأوَى فتح الله إلى فراشه مثلهم، لكنْ ما هي إلا ثوان حتى انتبه إلى أن قدميه قد انتصبتا بمحاذاة رأس زميله، فكره هذا جدا؛ لما فيه من سوء الأدب.. فجعل يحول وجهتهما إلى الجانب الآخر، فإذا به يتذكر أنها وجهة القبلة، فكره هذا أيضا، ثم مدهما إلى جهة ثالثة، فإذا به يجدهما مطروحتين على الكتب، وإنما هي كتب في علوم الشريعة والدين؛ فكان حرجه أشد وأنكى! وفي الأخير مد رجليه تجاه قريته الأولى كُرُوجُكْ! فإذا بخافقه يهتز مرة أخرى ويقول له: لعل والدك

قد بات هذه الليلة في كُرُوجُكْ! وكان احترامه لوالده من القوة والعمق، بحيث لا يستطيع مد رجليه تجاهه ولو احتمالا! فما كان منه في النهاية إلا أن بات جالسا!

بعد ستة أشهر من هذه الوضعية الْحَرِجة، قرر أكبر الطلاب سنا مغادرة السكن، لكنه اتفق خفية مع مؤذن المسجد على أن يسلمه مفتاح الغرفة، حتى يتمكن هذا من ضمها إلى مرافق منزله، فإذا بفتح الله ومن بقي من أصحابه يجدون أنفسهم بلا مأوى.

ترك الفتى صندوقه الصغير بالمدرسة إلى حين، ثم قصد مسجد "تَاشْ" غير بعيد، فدخل مدرسته عساه يجد قبولا أو ترحيبا، ولكن بمجرد ما رآه الإمام -وهو صهر لابن الإمام الألوارلي- صاح في الطلاب: هذا ابن رامز أفندي! إياكم أن تسمحوا له بالمجيء إلى هنا مرة أخرى!

وخرج الطالب الصغير جريح القلب، كسير الوجدان!

وأشْكَلَتْ قضية المأوى فعلاً! وفي بلدة محافظة مثل أرضروم، يعتبر كراء بيت لأعزب -ولو كان صغير السن- فضيحة كبرى وعاراً لا يطاق!

ولم يزل الفتى هائما على وجهه، يبحث ويسأل هنا وهناك عن بيت للكراء، حتى أخبره أحدهم بأن ثمة نَعَّالاً سيلتحق بالجندية الإجبارية، وعنده دكان يعرضه للكراء، فقصده الفتى، فلما اطلع على الدكان وجده صغيرا جدا، بحيث لا يتسع حتى لفراش واحد، بل لا يمكن لأحد أن يبيت فيه إلا جالسا. فقال الفتى في نفسه: وليكن! فإنما أنا الآن في حاجة إلى مأوى! فاتفق مع النعال على الكراء بخمس ليرات للشهر. ثم رجع إلى المدرسة الصغيرة فرحا، وأخذ صندوقه الصغير، وانطلق نحو دكان النعال لا يلوي على شيء، لكنه ما أن وقف بين يديه حتى قال الرجل

بكل برودة: لقد ألغيت فكرة الكراء، أنا لن أؤجر الدكان! وتجمد الدم في عروق الفتى، وظل واقفا وسط الشارع زمنا، ذاهل البصر عديم الحركة كالتمثال. كان يحمل صندوقه الصغير بيديه، والحزن يلطم خديه يمينا ويسارا.. وتيار الريح يجري بين رجليه.. لقد صار الآن بلا مأوى حقاً.

ولا أشد من غربة طالب العلم، إذا طوحت به ريح التشرد في المتاهات... طفل من القرية يبحث عن مأوى ينقذه من مخالب البرد، ومناجل البؤس، ولا يد تمتد إليه ولو بمسح مواجع رأسه، وتسكين شعره المضطرب بريح الاغتراب... في زمنٍ غربتُه أشد على النفس من ظلمات الليل العقيم... ألا ما أشقى أن يجد الإنسان نفسه وحده، في رحلة المعاناة والألم... ضائعاً بين نكران قريب أثيم، وهجران بعيد لئيم.

سراج الروح ببلاد الأناضول، تحاصره الريح الضاربة ذهاباً وإياباً، ما بين فاس وإسطنبول! وأذان الديك يضيع ما بين ضجيج الإعصار، وعواءِ ذئابٍ هاجت غضباً من بكاء النور الغارب! ولا من يجعل لمصباح الأحزان زجاجَ أمان! ولا من يجعل لفراخ الطير الهارب أعشاش حنان!

وبقي فتح الله زمناً لا يدري مداه، هائماً على وجهه بين الدروب!.. كانت الأحزان تبني بمواجيده جسورَ السير إلى زمن الكشف، وتسلح روحه بأضلاع الصبار المر، وأشواك الورد البري!.. هنالك بباب الريح المفتوح على مدى مواجعه، ظل جسداً يقاتل بصلابته عصف اليأس القارس، ويخوض بغضبه الثائر ظلمات الغربة، يتحدى بإيمانه خطط الشرّ وعاصفةَ القرّ!

كل ظروف القهر، وكل أنياب الفقر، وجميع سياط التشريد، تدفعه للعودة إلى قريته، لينكمش في عش أسرته مع الفقراء، ويموت بشرايين

عليه أمل الفتح! لكن فتح الله صمد... وأنّى لمن سكنته الأسرارُ أن يُدْبِرَ عن خط النار؟

ولم يزل فتح الله كذلك حتى مَنَّ الله بعودة الروح إلى القلب، فاتقدت عزيمته مرة أخرى، وانطلق يبحث بين المساجد والدروب عن مأوى..

بينما هو سارب أمام بعض المساجد القديمة، لفت انتباهه انعزال محرابه عن بنايته، وانفتاح ثغرة كبيرة منه إلى الخارج، فسأل عن سبب ذلك فقيل له: إن شخصا قد اقتطعه من المسجد في وقت سابق، وسكنه زمنا ثم راح وتركه هكذا خرِباً! ودخل الفتى المسجد فوجده متداعي الأركان، واهن الجدران، إلى درجة أن من رفع صوته بداخله؛ تساقط عليه الحصى من فيه مع رجع الصدى.. كان ذلك المسجد هو مسجد "الأحمدية"، وهو مسجد أثري في غاية الأهمية، بني في العهد السلجوقي، وكان في الأصل مدرسة للحديث. ثم تنكرت له الأيام -ككثير من المساجد السلطانية- فصار إلى ما صار إليه.

بيد أن نظر فتح الله ظل معلقا بالمحراب المتهدم، وما هي إلا ثوان حتى استقر تفكيره على اتخاذه مسكنا. وانطلق إلى صديق له اسمه "ذو النور"، كان ما يزال في مرحلة حفظ القرآن، وكان مثله بلا مأوى! فعرض عليه فكرة المبيت في المحراب بعد التعاون على إصلاحه وترميمه، فقبل بلا تردد. ولم يُضِع الفتى وقتا، فجعل يبني حائطا بداخله تجاه المسجد -وصديقه يساعده- حتى رفعه إلى علو ستة أمتار! ثم شده بأسلاك حديدية إلى سقف المسجد، وجعل له بابا صغيرًا إلى الخارج.

كانت محاريب المساجد في العهود القديمة بتركيا عالية جدا، وربما كانت على مستوى علو سقف المسجد نفسه، كما كان بعضها من السعة

على قدر غرفة صغيرة، ومن ثم كان هذا المحراب الأثري كافيا لإيواء الطالبين براحة تامة.

ثم يسر الله لهما -بعد ذلك- العثور على مدفئة، أوقداها فبثت الدفء الجميل حولهما. وجعل الصديقان يأويان إلى بيتهما هذا، وهما يشعران كأن الدنيا كلها قد سيقت لهما بحذافيرها! أوليس لهما الآن بيت يأويان إليه؟ ومسكن يبيتان فيه؟ مسكن رفعا قواعده بسواعدهما، ولا أحد ينازعهما فيه! ورغم أن بعض الناس كان يحذرهما من خطر انهدام المكان أو المسجد برمته فما التفتا إلى شيء من ذلك قط، بل كانا ينامان كل ليلة بطمأنينة كاملة، وسكينة تامة. ولقد بقيا فيه حتى أتما ما قُدِّرَ لهما بأرضروم من دراسة، ثم تركا المكان لطلاب آخرين سكنوه بعدهما زمنا.

وقد بقي المسجد هكذا إلى أن تنفست البلاد بعض نسيم الحرية والانفتاح؛ فقام المسؤولون بإعادة الاعتبار للمساجد السلطانية والجوامع العتيقة؛ فتم ترميم مسجد الأحمدية وأعيد إلحاق محرابه بمصلاه.

"عثمان بَكْتَاش" شيخ الزمان العقيم

منذ أن ترك الفتى مدرسة سعدي أفندي حفيد الإمام الألوارلي، كان قد التحق بحلقة الأستاذ "عثمان بَكْتَاش".. الأستاذ عثمان كان متمكنا من علم النحو والصرف، والفقه وأصوله، وغيرها من علوم الشريعة لدرجة أن مفتي المدينة كان يستدعيه إلى مكتبه لاستشارته، كلما عرضت له نازلة.

ورغم انشغالاته المتعددة فقد اهتم الأستاذ عثمان بالفتى فتح الله اهتماما خاصا؛ لِمَا رأى من سبقه وتميزه، فجعل يدرسه مقررات المستوى العالي.

وبذلك تمكن الطالب حقيقة من علوم اللغة والبلاغة، والفقه وأصوله. فانفتحت عبقريته على أفق أعلى، وارتقى إدراكه العلمي إلى مستوى أدق حتى صار الأستاذ يكلفه بتدريس المستويات الأولى، وبمراجعة الدروس مع المبتدئين في هذا العلم أو ذاك. وذلك كله أفاده في ترسيخ معلوماته السابقة، وفي اكتساب خبرة أولية في التدريس والتعليم.

ولعل الأستاذ عثمان هو الشيخ الوحيد الذي يمكن أن نقول -إلى حد ما- إن الطالب فتح الله قد تَخَرَّجَ على يديه وبه، رغم قصر المدة التي لازمه فيها. فلو جمعنا كل ما درسه فتح الله على المشايخ بمدارس التعليم العتيق لما تعدى ذلك كله مدة سنتين؛ إلا أن الأشهر التي قضاها متتلمذا على شيخه عثمان بكتاش كانت كافية لانطلاقه في بحر العلوم فرداً! فبفهمه الدقيق لأسرار البلاغة وقواعد اللغة، وتلقيه لقواعد الفقه والأصول؛ انفتحت أمامه كنوز محفوظه القديم، من المقررات العلمية التي استظهرها من قبل، فصار يغرف العلم بعد ذلك من قلبه وعقله، مغذيا ومتغذيا. ومن ثم استفاد من تلك العلوم ما لم يستفده منها شيخه عثمان، ولِمَ لا؟ "فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ" ولذلك فقد اتضحت له السبيل بعدُ فانطلق.

في هذه الأثناء يسر الله لرامز أفندي والد فتح الله، الحصول على وظيفة الإمامة بأحد مساجد المدينة المركزية: أرضروم، فرحل إليها واستوطنها مع أسرته أبداً. وكان ذلك بداية عهد جديد في حياة الفتى، كفاه هم الطعام والشراب، والمساكن الضيقة والخَرِبَة، ومخاطر التشرد العقيم؛ فتفرغ للتعمق في طلب العلم والمعرفة. لكن أغلب ذلك كان عن طريق المدارسة الفردية لكتب العلم، إذ تبين له عقم مناهج التدريس عند مشايخ التعليم العتيق. فهي لا تتجاوز تحفيظ الطلاب مجموعة من متون الفروع

وعلوم الآلة، مع إسراف في تحفيظ كثير من الأنابيش، وشواذ النحو والصرف والبلاغة، مما لا يفهمه الطلاب أبداً، بل مما لا يفهمه كثير من الشيوخ المدرسين لها أنفسهم. هذا إضافة إلى أنهم كانوا أعجز عن الارتقاء بالطالب إلى أفق التعامل مع نصوص الكتاب والسنة، ومحاولة تذوقهما؛ عسى أن تتفتق عبقرية هذا أو ذاك فيكون من المجتهدين. وإنما كان غالب علمهم وتعليمهم جامدا على محفوظات عقيمة، لا تفضي بالطالب إلى أي أفق. ولذلك فقد أعرض فتح الله عن هذه المسالك الميتة، التي تستهلك العمر بلا فائدة، وتفرّغ لتكوين نفسه بنفسه.

بعد رحلة جديدة في العلم والعمل تبين للطالب أن الأستاذ عثمان بكتاش نفسه كان محدود المعرفة جدا، ولم تكن له قدرة الاستنباط للأحكام، رغم معرفته النظرية بكثير من قضايا الفقه وأصوله، وإنما كان يفتي في النوازل من محفوظه فقط. وإن الفتى لا يزال يذكر عندما عاد مرة إلى أرضروم، من سفرٍ طال نحو أربع سنوات، قضاها ما بين وظيفة الإمامة في مدينة "أدِرْنَه" بغرب تركيا، وما بين الانخراط في التجنيد الإجباري؛ أنه زار أستاذه عثمان بكتاش، فسأله الأستاذ عما كان يطالعه من الكتب؟ فأجاب بأنه كان يتدارس مع مجموعة من الطلاب كتاب صحيح البخاري بشرح الإمام القسطلاني، ففزع الأستاذ مما سمع، وبادر الطالبَ بسؤال إنكاري: "صحيح البخاري؟ ومن أنتم حتى تقرؤوا صحيح البخاري؟" وإنما كان استعظام الشيخ أن يقرأ هؤلاء الشبان صحيح البخاري راجعا إلى أنه هو نفسه لا يعرف صحيح البخاري إلا سمعاً. فلم يكن يقرؤه، ولا أحد من المتفقهين بالمنطقة يعرفه! وربما ما رأى نسخة منه قط في حياته، ولا عرف أضرابه من كتب الأمهات الحديثية وشروحها! وإنما كان علم الشيخ -وهو رأس المدينة ومفتيها-

محدودا فيما تعارف طلبة العلم على حفظه واستظهاره، مما بقي رائجا ببلاد الأناضول، بعد محاولة المحو الشرسة -التي باء بها طغاة العلمانية- للدين وعلومه، وإعدام كثير من العلماء الكبار، أو فرارهم إلى خارج البلاد.

مَسْلَكٌ غير مسلوك!

بلغ وعي فتح الله بأزمة زمانه ما جعله يؤمن بأنه مُرَشَّحٌ لِسَنِّ مسلك جديد، في طلب العلم والحكمة، وأن عليه أن يكسر أغلال الجمود والتقليد التي كبلت شيوخ عصره، وأن يخرج في سيره إلى الله عن خمول الزوايا والتكايا إلى نور الآفاق، ورحابة الروح.. كان لا بد من تفجير الماء من الصخر، ومن تحطيم حدود الوهم القاتل.

كان يرى أمته قد ضلت في صحراء التيه.. ويرى قبابَ إسطنبول، وكُلَّ مآذن الأناضول، وعتبات الباب العالي، وأسوار التاريخ الذي كان.. كلها قد هدمها جيش جالوت الجديد ثم حرّقوا كلَّ خزائنات الحب، وكل مخطوطات الأسرار، ونبذوها رماداً في مياه البوسفور... وبكت إسطنبول على حرائق أعشاش حمائمها وهناً.

فتح الله وحده كان يسمع عويل نوارسها، ويصغي إلى نشيج الليل، وشهيق الشطآن... فيبكي ويبكي... كان يرى خيول النصر هناك تقف صافنة على شاطئ الغيب، ولكنها أفراس بغير فرسان... فيبكي ويبكي...

ما بين خلوة وجلوة كان فتح الله يدرس خارطة فتح القسطنطينية سِرّاً.. كان يقرأ في كتب الصرف كيف يصرف أجيال الترك على موازين القرآن؛ وينظر في كتب النحو إلى كيفية جبر الكسر، ورفع الهامات في كل مكان،

وعلاج الفعل اللازم؛ فلعله يتعدى إلى نصب جسور الفتح على مياه البوسفور؛ ولعل الفاعل يتحرر من أغلال الفعل الجامد، ولعله في يوم ما يعرف مفعوله؛ فتلتقي الأفراس مع فوارسها، وتتخلص الأمة من بناء الفعل للمجهول.

واشتغل في دراسة علوم الحديث ورجاله، بتضميد آثار التجريح النازف في جسد الأمة، وعلاج عللِ أسانيدَ عجزت عن إدراك مشكاة النبوة؛ فعساها إن صَحَّتْ تبعث في الأمة كمال الصحة، وتكشف عنا غمة هذي الظلمات. ثم يبيت الليلَ يُعَدِّلُ رجالاً ورجالاً، على شرط الإمام البخاري، ويختار من بين رواياته أقرب الطرق إلى كلمات النبوة؛ إذ لا فتح لبحر الظلمات بغير جيوش السند العالي.

كان يستخرج من قراطيس الفقه أحكامَ جراحاتِ الطير، وحُكْمَ رضاع القَطْرِ، وجبر السهو الحاصل في سجود القلب لغير القبلة.. وحُدوداً أخرى لم يبصرها علماء الأرز ولا فقهاء الخبز.

ويقرأ في كتب السيرة منازل السير إلى النصر المشهود، ويقيس مسافة ما بين النصرين: من فتح مكة إلى فتح القسطنطينية؛ عساه يقيس ما بقي من السير إلى النصر الثالث في فتح رومية!

وفي كتب المنطق كان يتعلم أسراراً من منطق الطير، ولغات الريح، وخُطبَ الرعد القاصف، وسِرَّ نشيج المطر المكتوم! ويحفظ أذكار الجبل الخاشع، وتراتيل الليل الساجي، فيبكي ويبكي!

ويتلقى في مسلك الروح، بسند الإلهام الصافي: حدثني قلبي عن ربي، أن لا إشراق لصبحٍ إلا بصفاء دموع الليل، فيبكي ويبكي!

....

ومن ثم فرغم تفرغ فتح الله لطلب علوم الشريعة، متنقلاً بين المدارس العتيقة ومشايخها، فإنه ما أهمل الارتواء من مجالس الذكر، ولا الاغتراف من حياض الروح. كان شيخه الأول في هذا المسلك هو الإمام الألوارلي رحمه الله، الذي كان يحبه كثيراً. فقد كانت مجالس الشيخ، هنالك بقرية ألوازلي هي المحضن الرئيس، الذي تفتقت فيه مواهب الفتى الروحية، ونضجت فيه مواجيده الإيمانية. ومن ثَمَّ فقد كان كلما زار قريةَ ألوارلي، لم يرجع إلى مدرسته حتى يتزود من مجالس الإمام ما يملأ قلبه شوقا إلى طلب المنازل العليا بمعارج الروح. وبعد وفاة الشيخ -رحمه الله- واظب الفتى على التردد إلى مجالس شيخ آخر في أرضروم، اسمه رَاسِم بَابَا. وما أن انتبه الشيخ إلى الفتى حتى أُعجب به، وانبهر بسمته وخلقه، وتميُّزِ نباهته وسَعَةِ أفقه، فقربه إليه جدا، إلى درجة أنه صار يجلسه على يمينه رغم حداثة سنه. ولكن ما مضت أيام حتى بدأ القيل والقال يسري بين رواد المجلس، وألقى بعضهم شائعة بينهم أن الشيخ يعزم على تزويج ابنته من فتح الله. وما أن بلغت الشائعة سمع الفتى حتى بردت عواطفه تجاه المجلس فانقطع عن التردد إليه.

بعد بلوغه منازل العلماء الراسخين، تيقن فتح الله أن هذا التوازن التلقائي الذي كان يجده ما بين متابعة الدراسات الشرعية، وبين المواظبة على حضور مجالس الذكر، هو الذي مكنه من اكتساب نظرة شمولية متوازنة، لمفهوم الدين حقيقةً وشريعةً. ولذلك لم يكن الفتى من الدراويش الذين يتوسلون إلى مرادهم بخشن الثياب والمرقعات، بل كان يعتني بلباسه اعتناءً، ويحرص على نظافة هندامه وأناقته، ويداوم على كي معطفه وسرواله، ولا ينسى أبدا مسح حذائه، حتى إنه إذا لم يجد مكواة

مد سرواله ما بين خشبة سريره وفراشه، ثم نام فوقه ليلة كاملة. فإذا كان الصباح استخرجه مستقيم الثنايا بلا تجاعيد. فلا يخرج من غرفته حتى يكون آية في الأناقة والجمال. خاصة وأن الله قد أعطاه من حُسْنِ الخلقة حظا ليس بالقليل، زاده بريق عينيه المشع بوهج الروح هيبةً وجلالا.

ولذلك ما تَفَهَّمَ أحد من أصحابه -في مرحلة الطلب- العلاقة بين الحالين في شخصيته، ولا وجدوا انسجاما بين الطورين في طبيعته؛ حيث كانت الثقافة الصوفية الرائجة يومئذ -بين رواد الزوايا والتكايا- تفسر الزهد بأنه الابتذال في اللباس، ومعاداة الأناقة والجمال، حتى إن بعضهم انتهره يوما من أجل كيّ سرواله، قائلا: "ألا تستح يا هذا؟! كن تقيا ولو شيئا قليلا!" وقد حزت في نفسه هذه العبارة زمنا؛ فكما أنهم لم يفهموا سلوكه ذاك، فإنه هو أيضا لم يفهم العلاقة بين سروال مكوي ومصادرة مقام التقوى.

كان بعض أصدقائه يتعجبون من اختلاف أطواره وأحواله، ما بين إقباله الروحاني العالي، وحرصه الشديد على الذكر ومجالسه، وانجرافه السريع عند المواعظ مع غدران البكاء إلى درجة الشهيق؛ وما بين انفتاحه الفسيح نحو الذوق الجمالي في مظهره وملبسه، بل كانوا لا يستسيغون حتى انجذاباته الشاعرية نحو السياحة، وعشقه لمشاهدة جمال الحياة من الأعالي.

فتح الله كان فتى جوالا، ذا طاقة اكتشافية غير عادية، لم يكن يتخلى عن تمريناته الرياضية أبداً. فقد وهبه الله فُتُوَّةً في الروح، وبسطةً في العلم والجسم، فصار -وهو في بدء تفتح زهرة شبابه- فتى يفيض حيويةً ونشاطاً. وهو ليس يدري لماذا حُبِّبَتْ إليه الأعالي والخلوات، وضروب المغامرات. فقد كان يجد نفسه راكضاً بجموح شديد نحو المجهول..!

لقد عاش مراهقة من نوع آخر، مراهقة جعلته يعشق مشاهد البطولة، ومظاهر الفروسية. فكان لذلك يحب التحدي، ويحطم جدران الخوف في كل شيء، ومن أي شيء..!

كان يعشق أن يسير ليلا بجانب الأنهار الرهيبة، والوديان الجارفة، كان يضع قدمه بقصد على حافة النهر، وهو يجرف ما حوله من تراب وشجر. وكان يتسلق الأشجار العالية، والمآذن الشاهقة.. كانت شجرةُ صفصاف عظيمة تنتصب بالقرب من أحد المساجد بأرضروم، لم يكن أحد يجرؤ على تسلقها لانتشار أغصانها في أعالي الفضاء بصورة مخيفة.. فكان فتح الله يقتحم أغصاناها الضارية في السماء بسرعة فائقة، فما يكاد يضع قدمه على أسفل جذعها حتى يراه الناس قد استوى على ذؤاباتها العالية؛ بينما لم يكن يقْوَى حتى على تسلق أقرب أغصانها إلا القليل من أقرانه!.. ومن هناك، على رؤوس الأغصان العالية، كان يسرح ببصره في أفق المدينة وضواحيها، ويروي عطشَ حبّه للطبيعة بمشاهدة روابيها... فكم كان مغرما بالإشراف على العوالي من الأعالي. وربما صعد مئذنة المسجد الرشيقة، فمشى على حافة شرفاتها من الخارج حتى إن الذين كانوا يرونه من الأرض، تأخذهم الرهبة؛ فتضيق صدورهم من متابعة حركة التفافه حول المئذنة، بهذه الصورة الخطرة!.. أما هو فقد كان ينشغل بمطالعة الأفق البعيد، ومشاهدة المناظر الجميلة، على أوسع ما تكون المشاهدة.. كان ينظر هناك هناك.. فلعل ومضة من نور تلمع في الأفق، فتشير إليه بما هو يترقب، ولعلها تدله على معالم الطريق!.. كان فتح الله -كلما تسلق شاهقاً- أشبه ما يكون بالحمام الزاجل، يرتفع محلقاً في الأفق عاليا، حتى إذا حدد الاتجاه استوى على مقام السفر، وضرب بجناحه في الطريق المناسب!

لقد كان فتى جسوراً حقا، تفزع الشجاعة من جسارته وتَفْرَقُ البسالة من جرأته... يصارع الشباب في الرياضة، فلا يناوره أحدٌ من أنداده إلا طرحه أرضاً ولا يواجهه بطلٌ إلا صرعه في أقل من لمح البصر حتى إن المطروح لا يكاد يدري كيف ولا ماذا حصل. كان فتح الله هو الطليعة في كل شيء، ومع ذلك كله كان شابا أنيقا جميل القوام، يلفت الأنظار بنظافته، وحسن خُلُقِهِ. وهو في كل ذلك لم يزل يحتفظ بسره، ويخفي حقيبة مكنونه، ثم يمضي متخفيا بين أقرانه، سارِباً تحت ظلال جيله حتى يَحُلَّ الإبَّانُ ويأذن الزمان.

الفصل الثالث

مَنْزِلَةُ الكَشْفِ والتَّجلِّي

مِنْ سُرَى الدَّيْجُورِ إلى مَعَارِجِ النُّور!

كان الإمام بديع الزمان النورسي قد أشعل قناديل النور بجميع بلاد الأناضول..! عندما حُطّمت أعشاش اليمام، وخنق الهديل في حناجر الحمام، وكسرت المصابيح فوق رؤوس المتهجدين، فانكسفت الشمس حزناً على فقدان أقمارها، وانتشر الظلام في كل مكان؛ حينئذ غادر الإمام النورسي فراشه بليل، وخرج في هوج العواصف، يوزع الشموع على بيوت الفقراء.

كان الظلام الزاحف على البلاد قد عصف بكل مصابيح المدائن الحزينة، فأطفأها جميعاً!.. وصدرت قوانين مصادرة النور، عَصْفَةً بعد أخرى، حتى عم الظلام الدامس كل مكان، فلا حق للمساجد في ذرف دموع النور، ولا في احتضان المواجيد المشتعلة!.. ولا حق للكتاتيب في توفير أعشاشها الدافئة لفراخ الطير، إذ تصدح في الأمة كل صباح بوعود القرآن.. ولا حق لحروف العربية في أن ترسم على لوحات الروح نزيف القلب المجروح.. كل العمائم قد اقتطفها رصاص الغدر في حرب القبعات، فذُبِحَ الأئمةُ والمؤذنون، وشُرِّدَتْ أصداءُ الذكر فيما وراء البحر، وصودرت مفاتيح المساجد كلها، وطُردت أسرابُ النوارس والحمام من على أبراجها، وحُطِّمَتْ أعشاشُها من بين المآذن والقِباب، وأصبح فؤاد المدينة فارغاً.. ولا حق للأذان حتى في البكاء!

وأذِنَ الظلامُ لأشباح الليل في الطواف بالبلاد، تختطف الأطفال

والشباب، وتهتك الحجاب على أعراض المسلمين! وتُعلم الغربان أن تغني على رؤوس المستضعفين برطانة الشتائم والسِّباب! فنفضت جميعُ الأشجار أوراقَها حَزَناً، وهاجرت كل الأطيار إلى المجهول، ولم تَعُدْ قط إلى أعشاشها! فأقفرَتْ كلُّ الوجوه في الأزقة والدروب من وميض بِشْرِهَا! وبِمَ يستبشرون أو لماذا يضحكون؟ كيف؟ وهَا علماءُ البلاد قد قُتِلُوا تقتيلاً، أو هُجِّرُوا تهجيراً!..

لكن بديع الزمان وحده بقي هناك، يبشر الناسَ بالأمطار والأنوار!.. ويغرف في منفاه من بحار القرآن، ويرسل الغيوم إلى المدائن الحزينة. ولم يزل يكتب رسائل النور ما بين المنافي والسجون، ثم يُهَرِّبُهَا مع الريح إلى بيوت الفقراء حتى اشتعلت المواجيد بالأشواق والبروق.. وهطل المطر!

لقد أدرك النورسي ببصيرته القرآنية أن هذا الزمان هو زمان إنقاذ الإيمان، وبعث الأمل في الشعوب، وأن واجب الوقت هو محاربة الزندقة والإلحاد، وإفشال مخطط تجهيل البلاد؛ فتفرغ لتعليم العصافير الصغيرة سورةَ الفتح!..

عندما فَتَكَ الذئبُ بالراعي، وتولى رعاية القطيع بنفسه؛ جعل بديع الزمان يصارع من أجل انتزاع الخراف من بين يديه! عندما كان الناس يفزعون إلى مخابئهم، كان هو يعلمهم أن يفزعوا إلى حصون القرآن! كان يرسم في رسائل النور معالم الطريق للخروج من دياجير اليأس القاتل، وينقب في صخر الكهف المظلم ثغرة صغيرة، يبصرون من خلالها أشعة الشمس المشرقة على المستقبل.

وقاد النورسي بذلك قلوب الشعب التركي كله، وسيف السلطان لم يزل في قبضة الشيطان! ولا طاقة لشيطان في مغالبة سلطان القرآن!

فأنقذ الشيخُ خِرافَهُ من بين مخالب الذئب الأغبر، وتركه يعوي في تَلَّتِهِ مغتاظاً..!

تلك المرحلة الأولى من دعوة النور، قد أوصلها النورسي إلى أن وقفت على باب مقام الهجرة وما بين مكة والمدينة سَفَرٌ آخَرُ، يَقْدَحُ أشواقاً أخرى، لبناء أمة الشهادة على الناس! لكن النورسي ترك رسالته لفتى الأسرار، ثم رحل.. فلكل زمان صاحبُه، ولا شمعة تحترق بنورها مرتين! فأبشر يا صاح؛ فإنه لا يخرج للناس من مدرسة القرآن إلا إمام مأذون!

حدثني راوي الأشجان قال:

لمَّا كان بديع الزمان يجاهد الظلام في خريفه الثمانين، كان فتح الله قد بدأ يتسلق دالية الشباب.. حيث تعرَّف على رسائل النور سنة ١٩٥٧م، ولم يكن يومئذ قد تجاوز سن التاسعة عشرة من عمره!

كان النورسي قد أنجز خطوة جبارة في سحب بساط الطغيان من تحت أقدام الشيطان. ثم حرث الأرض، وخَصَّبها، وبذر البذور في كل مكان، وترك لطلابه رسائلَ في أسرار الفلاحة وخصائصها، ثم اختفى.

وجاء فتح الله..

عندما عثر الفتى على رسائل النور، أدرك أنه هو المخاطَب بها خصيصاً. وعلم أن عليه أن ينجز الخطوة الثانية، وأن يرعى البذور حتى تؤتي ثمارها. وأدرك أن هذه الفلاحة ليست ترتوي بغير دموع العاشقين، ومن ثم لم يزل يبكي حتى انتفخت مقلتاه..! فكانت الحقول تخضر لنشيجه، وكانت الثمار تزدهي لشهيقه العميق! وكانت الرياح تهب الهوينى خاشعة عند مسجده، فليست تؤذي من غِراسِهِ الكريم من شجر ولا ثمر..!

عندما فَقَدَ النورسي قَبْرَهُ المغصوبَ، رقد في قلب فتح الله خُفْيَةً،

فخرج التي على الناس متكلماً بلسانه، لكنهم أنكروه وجحدوه، فبكى ثم بكى..! لم يزل يبكي حتى اهتزت الأرض وَرَبَتْ، وأنبتت من كل زوج بهيج.. ثم كانت الأشجار والأطيار، واخضرت عيون الناس في كل مكان، وغرد الأمل، ولكن فتح الله لم يزل يبكي.. فواعجباً!

فَتحُ الله لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتحُ الله لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتحُ الله يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمع لمأتمه!

فَتحُ الله وارِثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبلُ العالي؛ لانهدَّ الصخرُ من أعلى قمته، ولخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!

....

عندما وجد فتح الله رسائل النور انكشفت له خريطةُ فَتْحِ العالَم، فتحسس مخطة مَفَاتِحِه، وتوقَّدَ جمرُ مواجده لهباً.. ثم دخل محراب الليل وحيداً، فاتبع به سبباً.

* * *

"محمد قرقنجي"، طالبُ عِلْمٍ وطالبُ نور، دَرَسَ مع فتح الله في حلقة الأستاذ عثمان بكاش، لكنه كانَ أكبر منه سِناً بكثير. فقد كان قِرْقِنْجي في حلقة المتقدمين، وكان فتح الله حديث القدوم إلى المدرسة، فلما أدرك الأستاذ عثمان تفوق الفتى ألحقه بحلقة المتقدمين فكان أصغرهم سِناً.

محمد قرقنجي كان قد تعرف على رسائل النور للأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله.. كان النورسي ساعتها يضرب بعصا الترحال بين السجون والمنافي، محاصَراً بأشباح المخابرات ليل نهار! ومن ثَمَّ كان

الانتماء إلى جماعته يعتبر مغامرة قد تُلقي بصاحبها في غيابات السجون! ولكن طلاب النور كانوا -رغم ذلك- يحملون الجمر بأيديهم، ويوزعون الدفء والنور على المستضعفين في كل مكان!

ذات مساء ملتهب الأشجان، جاء قِرْقِنْجي إلى فتح الله، فوجده جالسا مع زميليه في الدراسة "حاتم" و"صلاح الدين"، فأخبرهما بأن رجلا غريبا قد قدم إلى أرضروم من عند الأستاذ بديع الزمان النورسي، وأنه سيعقد مجلسا بمكان ما في المدينة ليلا، وسيلقي كلمة. فرغبهم في الحضور، وما كان منهم إلا أن وافقوا على الفور مسرورين. فقد كان اسم بديع الزمان جاريا على كل لسان، وإن لم يكن قد سَعِدَ برؤيته إلا القليل.. وجعل قلب فتح الله يخفق بقوة لعله يُسَرِّعُ من وتيرة الزمن فيحل موعد اللقاء، ويشاهد هذا الرجلَ الذي شاهد الأستاذ النورسي. ولِمَ لاَ؟ فقد كان بديع الزمان يومئذ -ولم يزل- أسطورة بطولية، وخارقة نورية، تبهر القلوب بكل بلاد الأناضول! أوَليس هو الذي هزم الإنجليز بـ"ست خطوات" فقط؟! أوَليس هو الذي أذل قائد الروس -وهو أسير- ببلادهم، فقتلوه ولم يمت؟ أوَليس هو الذي حاصر الحرائق التي أوقدها الشيطان في تركيا كلها، فأطفأها الرجل بمجرد "كلمات صغيرة"، ألقاها فوق اللهيب فخنس إلى الأبد؟ ثم أليس هو "آخر الفرسان" الذي بقي يحمل راية الجيش العثماني، ويرسم طريق النور لفتح العالم، في زمن اليأس والانهيار؟ فَلِمَ لاَ تتعلق بحبه القلوب وتهفو لرؤيته النفوس؟

وما أن دقت ساعة الموعد حتى كان الطلاب أمام مكان اللقاء! كان مجرد دكان لخياط اسمه "محمد شَرْكيل". مكان ضيق لا يتسع لأكثر من حلقة صغيرة من الجلساء! وكان الليل قد ابتلع حركة الناس في المدينة،

وقطع ضجيج الباعة والأسواق، فأقفرت الشوارع والدروب من المارة إلا قليلاً.

وتحلق الحاضرون بحميمية بالغة، كأنهم أسرة واحدة اجتمع أفرادها بعد فراق طويل، رغم أن أغلب هؤلاء لم يكن يعرف بعضهم بعضا إلا بواسطة "محمد قِرْقِنْجي".

مجلس صغير من مهنيين وبضعة طلاب، كان لهم بعدُ في تاريخ دعوة النور أثر عظيم!.. أما فتح الله فقد وجد لقاح سره، وبرق غيمته، ورياح مطره، فبكى! ومن كان يدري أن ذلك المجلس الدافئ، سيقدح شرارة الفتوح في قلب الفتى؟ أو من كان يدري أن ذلك الشاب اللطيف، هو من سيركب فرس السلطان محمد الفاتح، ويعبر بقوائمه بحر الظلمات؟

رجل يسافر في الزمان..!

عندما جلس مُظَفَّرْ أرْسلاَن منتظما بهدوء ضمن عِقْدِ حلقة النور، توجهت كل الأنظار إليه: هذا هو رسول بديع الزمان النورسي إلى أرضروم! إنه أحد تلامذته الأوائل، الذين شاركوه محن السجون والمنافي، فما وهنوا في تبليغ رسالة النور، ولا في محاصرة خفافيش الظلام. كان مُظَفَّرْ رجلا متواضعا بسيطا، هادئ السمت. أرسله بديع الزمان ليتجول في شرقي بلاد الأناضول، فطاف على كثير من مدائنها وقراها. ومكث في أرضروم نحو خمسة عشر يوما.

كان مجلس الليلة الأولى خليطا عجيبا من الطلاب والتجار وبعض ضباط الجيش. وكانت القلوب تهفو إلى سماع كلمات الضيف، عساها

تكشف ما يحمل من أسرار، وكانت الأبصار تتملى ملامح وجهه الهادئ.. الكل ينتظر ما تنطق به شفتاه! كان فتح الله مشدوه البصر هائج الوجدان، فقد بهره منظر هذا الرجل قبل أن يتكلم!

تحدث الرجل بكلمات قلائل عن أستاذه بديع الزمان، ثم أخرج من جيبه ورقات من "رسائل النور"، وشرع يقرأ من رسالة "الخطوات الست"، وكل الآذان له مصغية، فكانت تلك مائدة الليلة الأولى. وفي الليلة الثانية ألقى عليهم وَمَضاتٍ من "الشعاع الخامس"..

أما رسالة "الخطوات الست"، أو "الهجمات الست"، فقد كانت بيانا جهاديا من بديع الزمان النورسي، وتوعيةً إيمانيةً، وخطةً دفاعية شعبية، في مواجهة الإنجليز، عشيةَ احتلالهم لمدينة إسطنبول، خطوات معنوية تحبط مقولات الحرب الإعلامية والنفسية التي بثها الاحتلال في الناس، وتحيي روح المقاومة فيهم. أما "الشعاع الخامس" فقد كان فصلا من كتاب "الشعاعات".. فيه تفسير رمزي لأشراط الساعة، وبيانٌ لمقاربة مُعاجلة العصر لخصال الدجال الأكبر، وأن مآل الدجل دائماً هو الخسران المبين!.. كانت الشعاعات تشرق بتجديد الحياة، وتفتح أبواب الأمل في وجه ملايين المستضعفين!

بعض الطلاب الذين حضروا المجلس الأول، كانت متون التعليم العتيق الميتة التي عكفوا عليها زمنا، قد أماتت قلوبهم وأعمت بصائرهم، فلم يستطيعوا إبصار النور المتدفق من شفتي هذا الرجل الغريب. وزادهم عمًى بساطةُ هندامه القديم، الذي لا يشبه هندام العلماء، وتبرؤه من كل حول وقوة، على غير عادة كثير من شيوخ العلم والتصوف في ذلك الزمن العقيم! فجعلوا يقاطعونه بالاعتراض على هذه الكلمة والإنكار

لتلك القضية، محاولين الانصراف بالدرس إلى ظلمات الجدل البيزنطي، فصرف الله قلوبهم عن مشاهدة شلالات النور التي تتدفق ساكنةً بلا صَخَبٍ، من فم هذا الرجل الزاهد الفقير.

بيد أن فتح الله كان منذ الليلة الأولى قد انجذب كلية إلى هذا الرجل العظيم، وسحرته الكلمات القلائل التي تحدث بها، أو التي قرأها عليهم من رسائل النور. فشعر وكأنه قد خرج من برزخ الحيرة إلى منزلة اليقين، وصاحت روحه الولهى: الآن وجدت الطريق، الآن وجدت نفسي.. الآن وجدت النور الذي كنت أبحث عنه ما بين شيوخ التكايا والدراويش، ولكن بلا جدوى!

كان مظفر أرسلان رجلا فقيراً. كان معطفه باليا جدا، تتخلله مِزَقٌ صغيرة في الحواشي والمرفقين. أما عندما جلس فقد بدت للجميع رُقَعُ سرواله المخيطة على ركبتيه! كل لباسه كان يوحي بأنه استُعمل لسنوات عديدة، ولُبِسَ ثم لُبِسَ حتى تمزقت أطرافه وثناياه! والعجيب أنه -رغم هذا وذاك- كانت ثيابه نظيفة بفقرها، أنيقة بِمِزَقِهَا وَرُقَعِهَا! فهي رقع بلا تصنع، وأناقة بلا كلفة! وبين هذه وتلك هلك كثير من الزهاد وكثير من المتكبرين! رجل بسيط حقا كل البساطة، لكنه عميق الوجد، ينظر المرء البصير إلى عينيه الهادئتين، فيكتشف أنهما لؤلؤتان تلمعان في عمق المحيط! كان فتح الله ينظر إليه، فيشاهد فيه بوضوح أثر السفر، نعم ولكن، هو سفر أعلى من سفر... سفر في غير قطع المسافات والأميال، ولا في اجتياز فراسخ المكان، وإنما هو سفر في اختراق طبقات العصور وبرزخ الزمان. وكأنَّ مُظَفَّراً رجلٌ حَلَّ بالأرض قادما من عصر الصحابة يحمل بشائر الفتح المبين، وينادي في جموع الشباب: "ألاَ يَا خَيْلَ الله ارْكَبِي..!"

ومن ذا أشد من فتح الله حُبّاً لأصحاب رسول الله؟ وهذا مظفر يأتيه الليلة بقبس من حالهم ومقامهم العظيم.

كان مُظفَّرُ أَرْسَلاَنُ إذا شرع في الحديث عن بوارق النور، انساب صوته الهادئ برفق، وهو يحدو قافلة المحبين إلى زمن السلام، وأشرقت عيناه بشعاع روحاني عظيم حتى إنهما لتكادان تضيئان المكان. كان فتح الله ينظر إليه بتركيز شديد، وحضور كلي عجيب، فينسى ظلمات عصره الكئيب لما يجد من وهج النور في عينيه المشرقتين، ولمَا يرى في هيئته من شبهٍ بأطياف الصدِّيقين..! كان مظفرٌ يرحل في حديثه إلى حيث يَصِفُّ حتى إن المستمعين ليرونه هناك! عَجَباً! بل إنهم ليشمون مسك الزمان النبوي يملأ المكان، ويجدون بأنوفهم دخان معسكر الصحابة إذا نزلوا بوادٍ بعد الرواح، ويشعرون بحرِّ غبارهم إذا ركضت الخيول عند الصباح! ولقد رأى فتحُ الله -وليس من سمع كمن رأى- جيوشَ الفتح تحاصر عاصمة الروم القديمة! وإن شَعره ليقشعر خشوعاً لما رأى أن صاحبه مُظفّراً كان هناك! ولعله ربط حصانه بأحد مداخل المدينة، وعلق سيفه بغصن شجرة، ثم دخل أرضرومَ على حين غفلة من أهلها.. عجباً!

وهناك عزم فتح الله على أن يرافق مظفراً إلى مكانه، وأن يرحل معه إلى زمانه!.. وشعر الفتى بأريج الهجرة يملأ رئتيه، فتنفس الصعداء.. ثم بكى!

وبلغ الخبر إلى شيوخ التعليم العتيق بأرضروم! وبالخصوص إلى سعدي أفندي حفيد الإمام الألوارلي، والأستاذ عثمان بكتاش. وكان بعضهم على غير وفاق مع الأستاذ بديع الزمان النورسي ودعوته؛ إما لجهل بحقيقته أو لشعورهم بحرج المنافسة على الأتباع، وما هو لهم في ذلك بخصيم. ومن ثم بذل الشيخان كل الجهد لصد هؤلاء الشباب

عن الانخراط في مسلك النور! ورَهَّباهُمْ من مغبة اتباع رجل تطارده الحكومة، وخَوَّفَاهُمْ من قراءة كتبه ونشر رسائله؛ لِمَا يجره ذلك عليهم من خطر التعرض للاعتقال والتشريد. أما الأستاذ بكتاش فقد استعظم أن يفقد تلميذه الذكي محمدا فتح الله، فبذل ضغطا غير عادي على طالبه؛ عساه يترك صحبة النور. إلا أن الفتى -وهو الذي يحب أستاذه بكتاش كامل المحبة، ويبذل في حقه كل الاحترام والتقدير- لم يستطع أن يستجيب لطلبه هذا، ولا اقتنع بشيء من بياناته وتفسيراته في تحذيره من السير على أثر بديع الزمان النورسي.

وإنما مَثَلُ الفتى كرجل أوغل في سفر بعيد، فاشتد به العطش في لفح الرمضاء ومسالك الصحراء، حتى إذا أيقن بالهلاك جاء الله بالفرج؛ فأشرف على واحة خضراء ذات مياه باردة وظلال! فأي بيان ثقيل يستطيع -بعد ذلك- أن يصده عن التعريج السريع على منابع المياه؟

لقد شاهد فتح الله ببصيرته الصافية ووجدانه الوهاج، تجليات النور على طلاب النور.. فما كان منه إلا أن انجذب إلى لهيب الكوكب الدري، ولم يزل يدور بِفَلَكِهِ، ويكتوي بناره حتى احترق! والاحتراق في مسلك الروح شرط الاختراق؛ وإلا ظل السالك يكدح محجوبا دون سماء الوصول!

كان الفتى يبصر دروس الأستاذ النورسي، ويرى بصماته التربوية حركة حية، تنبض بالحياة في شرايين طلابه وإخوانه. فأنى له الانصراف -بعد ذلك- إلى تكايا وزوايا قضى عليها الدهر بالموات؟ كان مشهد مظفر أرسلان وهو يصلي، يستولي على قلب فتح الله وكيانه. فبمجرد ما يُحْرِمُ الرجل بالتكبير للصلاة؛ تنفجر غدران المواجيد من قلبه، ويتدفق كوثرها الصافي على فمه ولسانه، ثم تمضي إلى ربها هادئة، بعمق وخشوع لم

يشهد الفتى لهما مثيلا. فقد بليت فريضة الصلاة في ذلك الزمن العصيب، وأصبحت حركات سريعة، مضطربة الوقع، فارغة المعنى، أبعد عن أن تكون معراجا يصل العبد بالسماء.. لقد اتسخت المقاصد وتعفنت، فأسدلت الْحُجُبُ وغُلِّقَتِ الأبواب، ثم تساقط الذباب على التراب!

أما البقال "زكي أفندي" فقد كان إذا رفع يديه للدعاء، انتابه خوفُ مَنْ يرى أمامه عذاب جهنم ملتهبا، وكأنه يشاهد من منازل الآخرة ما يملأ قلبه رهبا فتتن الكلمات في فمه، وترتجف أجنحته ارتجافا حتى لا يكاد يجلس إلى جانبه أحد -وهو مستغرق في هذه الحال- إلا تَمَلَّكَهُ الخوفُ والرَّهَبُ!

وانطلق فتح الله راكبا مع خيول الفاتحين..

ومن ثم لم يزل الفتى يزور مُظَفَّرًا أَرْسَلاَنَ يوميا في بيته المؤقت بأرضروم، يتزود من أقواله وأحواله، حتى حان موعد الرحيل. وعند الوداع وقف فتح الله حزينا على رصيف محطة القطار، مع خمسة من طلاب النور، ينظرون بعيون الإشفاق والأمل، إلى رجل حط بجناحيه على شرفات قلوبهم، فأوقد بها قناديل المحبة ثم طار!

رسالة غير عادية!

ليس شيء أفيد للقلوب من التواصل الروحي، الذي يطرد الوحشة، ويؤنس الوجدان، وينشط القلب في سيره إلى الله! وكلما ضعف التواصل وقلّ خفتت المواجيد وبهتت الأشواق، فتعثّر السير، وخِيفَ على السالك الانقطاع! ولذلك كان لمجالس الأرواح أثر الزاد على قافلة المحبين، تنشط السير وتطوي المسافات إلى ديار الحبيب. ومن هنا لم يكن بديع

الزمان يهمل طلابه مهما كثروا وانتشروا، سواء منهم من رآه ومن لم يره. فقد كانت عيون الروح تمتد أشعتها بين الأحبة، وتتجلى الأطياف بعضها لبعض، على آلاف الأميال، فتتعانق القلوب ويحصل المقصود.

كان فتح الله في صحبة إخوانه بمجلس الذكر، عندما زف إليه أحدهم خبر ورود رسالة من الأستاذ بديع الزمان النورسي، تخص مجلس طلاب النور بأرضروم، أي هذه المجموعة الصغيرة نفسها، التي تجلس متخفية تحت جناح الليل بدكان صغير! كان الفرح والسرور قد هز أغصان جميع الطلاب طربا، أما فتح الله فقد شعر بقرب شديد من بديع الزمان غير معهود. وانتصبت معالم الطريق أمام عينيه واضحة، ترسم له مسلك أستاذه الحكيم بين عواصف هذا الزمن! وقُرئت الرسالة على الجميع، فخنعت لها الأعناق وانتصبت لها القلوب، تتلقى عبارتها كلمة كلمة، في صمت شامل يخفي ضجيج البحر المجذوب، الضارب بموجه العالي على شواطئ الصدور.

كانت مفاجأة غير عادية لجميع الجلساء، لكن مفاجأة الفتى كانت ذات طبقة أعلى.. فعندما اختُتمت الرسالة بالسلام على من بلغ خبرُه إلى الأستاذ النورسي، وقع ذكر اسم فتح الله على قلبه المَشُوق، وقوع البرق على الشجر، فجعل النور اللاهب يرتفع من أغصان قلبه حتى أضاء كل زوايا المكان! ولم يزل فتح الله يعيش لحظات ألمه اللذيذ، سروراً لم تكد روحه تطيق شدة اشتعاله حتى إنه لا يذكر أنه سُرّ في حياته إلى هذه الدرجة إلا بضع مرات! وأي شيء أسعد لقلبه المشوق بالنور من كون مجدد الدين ببلاد الأناضول قد سلم عليه؟ وإن في ذلك ما فيه من الدلالات والإشارات التي كان قلبه في حاجة ماسة إليها. ومهما طال

الزمن وتناسخت الأيام، فلن ينسى أبداً سلام بديع الزمان: "وبلغوا سلامي إلى فتح الله!..."

فهذا باب الإذن قد انفتح بين يديك يا فتى فانطلق!

مَواجعُ البِدايات..

في أرضروم هناك عادة سنوية، يختم فيها القرآن ألف مرة ومرة! ثم يكون الدعاء الشامل لكل تلك الختمات بمسجد جامع من مساجد المدينة. يتعهد الآلاف من الناس تطوعا بتلاوة ما يستطيعون من قرآن، فيبيتون الليل كله أو بعضه، يرتلون ما نذروه لله من تلاوة، حتى تمام ألف ختمة وختمة! فإذا صلى الإمام الفجر، قرأ دعاء الختم الجامع، وانصرف الناس. كانت تلك وسيلة من وسائل مواجهة الزحف الإلحادي الكاسر الذي حظر على الناس تلاوة القرآن لسنوات عديدة، ومنع حناجر الطير المتبول بحب الرسول، من التغريد بليل أو نهار..!

في تلك الليلة بكُر فتحُ الله بالذهاب إلى المسجد الجامع، لحضور دعاء الختم، فهذه السنة وافق الختمُ فيها ليلةَ النصف من شعبان. وفي مثل هذه الليالي تغص مساجد أرضروم بالناس حتى تضيق بالمصلين، فلا يكاد أحد يسجد إلا على ظهر صاحبه! وأما من لم يحضر قبل العشاء، فإنه لن يجد له مكانا داخل المسجد في صلاة الفجر!

استطاع الفتى أن يصل إلى مقصورة الاحتفال وسط المسجد، وهناك صلى العشاء مع الجماعة. وفي تلك الأجواء الروحية الغامرة، بدأت روابي قلبه تهتز وتعلو..! كانت الأشجار تنبت من تحت الأرض في

سرعة غريبة، بقلةً، ففسيلةً، فشجيرةً، فدوحةً عظيمةً! ولم تزل الأغصان تمتد نحن السماء عاليةً عاليةً، حتى إنها لتكاد تخرق حجب الغمام! كان فتح الله قد انجذب -من حيث لا يدري- إلى عالم الملكوت العُلوي، رافعاً يديه إلى السماء على هَيئة الابتهال، يدعو ويدعو، ثم يدعو.. كانت المواجيد التي اتقدت بقلبه قد فَتَّقَتْ تربتَهُ بغابة أشجار عالية، يضربها الشوق ببارق إعصاره، حتى ينكشف فضاءُ الليل عن بشائرَ من لهب، فيرى الفتى فيها ما يرى ويهتز من طَرَبه ألماً! كانت الدموع السخينة تجرف ما بقي بعينيه من إبصار حسي لعالم الأشياء والأشباح، لكنهما انفتحتا على مشاهدة عالم الأرواح.. ولقد فني تلك الليلة عما حوله من ضجيج وعجيج، وما بقي طيلتَها إلا بالله!

وهناك من معراجه الروحي، شاهد كتائب طلاب النور قد سبقت إلى الثغور، فتدفق جدولُ لسانه بدعوات لم يتغير صفاؤها، ولم يَبْلَ بهاؤها: رب اجعلني منهم! اجعلني بين سراياهم، أسير كما ساروا بقناديل النور حتى ألقاك! أدخلني من باب الخدمة، واقبلني عبداً! ها أنا ذا قد ذقت، ورأيت، فاجعل نعمتك عليَّ تدوم! أعوذ بك إلهي أن أدخل من باب ثم أخرج محروما من باب! ثبِّت قلبي الراحل في النار ببرد وسلام! واجعل روحي وَقْفاً أبديا لك وحدك، لك وحدك!

....

ولم يزل يرفع يديه مبتهلا، والريح تعصف بالأشجار، حتى ما بقي بأغصانها من ورقة! ثم انهال المطر يغسل ما بقي بين خمائلها العارية من أدران وفتح الله يدعو ويبكي ثم يبكي!

وانفجر بالمئذنة تكبيرٌ رفيع الصدى، ومضى يتردد في برزخ ما بين

ملكوت الروح ومدائن الطين.. وذُهل فتح الله لأذان الفجر! فقد غاب بزمن الروح عن زمن الأرض، حتى أدركه الصباح، فسكت عن البكاء المباح!

بات الفتى يدعو الليل كله، وما نام لحظة، بل ولا طرفة عين! وكيف ينام وقد حلّق قلبه المتبول من أعلى شرفات مقام اليقظة؟ كانت ليلة يتيمة في حياته، لا يذكر أنه عاش مثلها قط، وكانت مفرق طريق في مسيرةِ دُنْيَاهُ الصغيرة، ومحطة انطلاق في رحلته الكبرى.

قبل أداء صلاة الصبح، صعد الإمام "صادق أفندي" إلى كرسي الوعظ، فكانت له كلمات رقيقة هيجت الأحاسيس والمشاعر، وبكى فأبكى من ليس يبكي! كان "صادق أفندي" رجلا متيما بحب الرسول ρ إلى درجة لا توصف! فكلما قال: "سيدنا، أو حبيبنا، محمد ρ"، توقف عن متابعة الدرس، وامتصَّ شفتيه بعمق، وكأنما هو يرتشف مشروبا لذيذًا، ثم قال وهو يمط الكلمات مَطًّا: "محمد..! ما أحلاها!"

والشعب التركي كله شعب متبول بحب الرسول ρ، وله في حقه -عليه الصلاة والسلام- ملاحم من الأشواق والأشجان، لو وزعت على أهل الأرض جميعا لوسعتهم محبةً وسلاما! قوم توارثوا حبا سُنِّياً صادق الوجد، في حق آل البيت والصحابة أجمعين! مواجيد إيمانية حَرَّى، زادتها مصادرة الحب والسلام من قلوب المستضعفين -في زمن الجبر والجبروت- نارا واشتعالاً! فما من أحد يتسلق تلال القلب فيحرك أغصان الأشجار إلا أومض البرقُ في غسق الليل، وأرعدت الآفاق بغزير الأمطار!

وبكى فتح الله مع وعظ الشيخ كثيرًا.. وانخرط مرة أخرى في ترديد دعاء الليلة، واستدرار شعاع النور. حتى إذا فرغ الناس من صلاة الصبح،

ودعاء ختم القرآن؛ جعل الفتى يضمد آلام مفاصله، ويحاول حمل أطرافه من فوق الأرض عضوا عضوا، حتى إذا استقام واقفا، غادر المسجد مع شروق الشمس.

كان حاتم -صديقُ فتح الله، وزميلُه في الدراسة وفي صحبة مجالس النور- واقفاً بباب المسجد بعد الصلاة، ينظر إلى وجوه المصلين بتفرس، وكأنما هو يَعُدُّ الخارجين من المسجد عدّاً، حتى إذا وقعت عيناه على صديقه، أسرع نحوه فألقى على وجهه قميص البشرى! قال فتح الله: ما شأنك يا صاح؟ فأجاب صاحبه: هذه الليلة رأيت الأستاذ بديع الزمان النورسي في المنام، رأيته في شأن يخصك أنت، لقد كان يرسل إليك الرسالة التي هي في "السيرة الذاتية"، ومعها جُرّة مملوءة بالجوز. نعم هكذا، وانتهت الرؤيا!

كان العاشق الولهان يضرب في متاهات الصحراء، سيراً نحو ديار الحبيب! كان يدري أن مسالك البيداء خطيرة، فالموت يسكن جبالها ورمالها! لكن العاشق مملوك لجنون الشوق العاصف! فلا سلطان له على منع جوارحه من ركوب السفر المجنون! كانت حواشي شفتيه قد تمزقت بلهيب القيظ، وكان حلقه قد جف من العطش، وانطوت ثنايا بطنه من الجوع، ثم تطايرت أطراف ثيابه مِزَقاً في الريح! ولم تزل رجلاه تَرَجْرَجان بين تلال الرمال، حتى إذا هب نسيم الأحبة ندي الأريج، يبشر الفتى المتبول بقرب الوصول، اشرأبت عنقه من خلف التلال، وما أن رأى أول خيام الأحبة حتى خر على الأرض فرحا!

ألم تكن دموع فتح الله تجري الليل كله شوقا والتياعا؟ فها هو ذا الآن يتلقى بشرى الوصول صباحا! فينهار ما بقي في قلبه من تلال الصبر على

نار الجوى، فيبكي مرة أخرى! ولكن دموع السرور لها أثر الضماد على الفؤاد، فأبشري يا جوانح الروح بسكينة الموافقات وجمال الكرامات!

وجعل الفتى يزمزم بكلمات وكأنما هو يهذي.. يردد ما كان يقوله الإمام الألوارلي من الشعر، كلما غمرته الألطاف الإلهية بالكرم والعطاء! فكيف بعبد لم يزل في بدء الطريق، ثم تفاجئه كرامات المقامات العالية؟ أنّى له وأنّى أن تتحمل حَدَقَتاهُ العليلتان النظر إلى قرص الشمس؟

هُوَ أمْرٌ فَوْقَ حَدِّي وَأنـا عَبْـ   ـدٌ ضَعِيفٌ لَسْتُ أهْلاً للكَرَمْ!

فلماذا كُلُّ هَذَا اللُّطْفُ وَالإحْـ   ـسَانُ يَرْمِيني بِأمْطَارِ النِّعَمْ؟

وتساءل فتح الله: عَلامَ تدل رموز هذه الرؤيا يا ترى؟ أما مشاهدة الجوز عند أرباب التعبير فيفسرونها بالسفر. أما رسالةٌ من "السيرة الذاتية" للنورسي فلها قصة أخرى، وإن لها لتعبيراً بمقام آتٍ.. ولكن ما دلالة المشهد كله؟ وفي هذه الليلة بالذات، التي بات فيها الفتى يتقلب على جمر قلبه، ويستحم بلهيب دموعه!

لكن الشيء الذي رسخ في قلبه رسوخا، هو أن هذه الرؤيا، مع ما سبقها من إشارات، كتلقيه السلام من بديع الزمان بالاسم، وحالته الروحية ليلة أمس، كل ذلك دليل واضح على أنه مأذون له في اتخاذ طرق النور مسلكا! كان هذا المعنى قد طرق قلبه من قبل، لكن أحوال ليلة أمس، وموافقة رؤيا حاتم، جعلته يشعر بأنه الآن ليس مأذونا فحسب، بل هو طالب نور مأمور! فقد انكشفت له الأستار عن الأسرار! وتدفقت القلوب على القلوب، فلْيَنبَض الشيخ بصدر مريده وَجَعٌ واحدٌ! وما كان لمن ابتلي بمكاشفة المحبة أن يخذل خليله، وإلا كان من الهالكين!

أخِلاَّيَ أنْتُمْ أحْسَنَ الدَّهْرُ أمْ أسَا   فَكُونُوا كَمَا شِئْتُمْ أنَا ذَلِكَ الخِلُّ!

طالب نور

أن تكون طالب نور في زمن الظلمات، يعني أنك قد انخرطت في جندية الروح، وأنك قد وهبتَ قلبك لمشكاة الفقراء، يتخذونه مصباحاً تشتعل فتيلتُه من شريان دمك!.. ومن يدري؟ فربما تحمل فوق رأسك خبزاً تأكل الطير منه! وتُذكي الشمسُ مواجيدَك الحَرّى، فتمسي قمراً يرحل نحو أعالي الأفلاك!

فأن تكون طالب نور، يعني أنك تخرج في عاصفة الليل وحدك، وتواجه مخالب البرد القارس بصدر عارٍ..! تسعى بين الدروب الخالية، لتوزع بعض النبض الساخن على قلوب قلّصها البرد، فتبعث خلف الأكواخ المرتجفة! فلا يحجبك عن قناصة قراصنة الليل إلا قدر الله!

آلاف العلماء هناك قَضَوْا صَلْباً أو شنقاً على أعمدة النور! وباتوا ليالي شتى أراجيحَ تهدهدها الريح بمرثية الأعراس!.. ولقد شهدت عمائمُهم الدامية على كسوف الشمس، في زمنٍ حَجَبَ الشيطان به شروقَ الروح بوجه كالح، وكانت بنادقه تحاصر كل مآذن الوطن، وتصادر أشواق الفقراء، وتحظر كل ورق موشوم بدموع البدر، أو بصور جذلى لعصافير الفجر، وحناجر الطير وهي ترتل في الليل الساجي مواجعَها!

حدثني راوي الأشجان قال:

عندما رحل النورسي لم يترك سوى سلةٍ صغيرة، فيها لباسٌ بالٍ، وساعة جَيْبٍ، كان يَعُدُّ بها أشجان الليل، ورسائل أرسلها إلى طيف كان يراه من على بُعْدِ خمسين سنة!.. أما فتح الله فقد أرسل له كل دموع الدنيا وجميع جراح التاريخ، فقال له: قد آذناك يا فتح الله فقم!

....

حذيفةُ بنُ اليَمانِ صَحابيٌّ من نوعٍ آخر.. كان يسأل نبيَّ الله عن الشر مخافة أن يدركه! وللشر في ملحمة العصر أخبار من لهب لَمّا سألتُ عنها الراوي زادتني رهقاً! أما فتح الله فلما ألقى إليه النورسي برسالة الأحزان بكى، ثم استل لها سيفَ القرآن! عندما كان يقرأ مواجعَها سِرّاً، كان يشاهد مصرعَ أشجار الدُّلْب في كل مكان! ويرى فراخَ النور وهي تحترق في جحيم الظلمات! كانت كلمات النورسي قصصاً من أمثالٍ وعِبر، لكن فتح الله كان يفتح أقفال حقائقها؛ فيتلقى جمر مآتمها بصدر عارٍ، ويبكي ثم يبكي!

هذا زَمَنُكَ يا فتحَ الله!.. هذا قَدَرُكَ! فاحمل عصا أشجانك وارحل إلى موعد طُورِكَ! فقد جئتَ على قَدَرٍ، ليس لكَ خيار.. وما كنتَ مُريداً قط ولكنك أنتَ مُرادٌ..! ما كان لمن آذَنَهُ وهجُ النور اللافحِ أن يختار..!

نظر فتحُ الله إلى حرائق زمنه المنكوب، فرأى أدخنةَ الشيطان تسد أفق الطريق إلى موعده! لكنه حمل على كتفه رشاش دموعه ودخل في اللهيب!

حدثني راوي النور عن ملحمة الحزن فقال:

كان ربيع سنة ١٩٢٤م فصلاً من غير زهور، فقد احترقت فيه كل حدائق تركيا، واحتملت أنهارُها رماداً مسموماً نحو جميع بلاد الإسلام.. كانت تلك سَنَةَ النكبة الكبرى، حيث تم الإعلان عن القطيعة الدامية مع تاريخ الأمة الذي كان، ودخول بلاد الأناضول زمن النار والإعصار! فصار لقصص النسوة الباكيات خلف الأستار ألف حكاية وحكاية!

حكاية المؤذن الحزين

الشيخ محمد أفندي مؤذن بمسجد صغير، ومدرس لكتاب الله في محرابه الدافئ.. عندما طار الشَّرَرُ بخبر عزل السلطان، وإلغاء خلافة الإسلام، نظر إلى تلاميذه الصغار ثم بكى..! كان يرى في عيونهم الصافية شريطَ الملحمة الكبرى، تهب عواصفها في غسق الليل القادم، وأنهار الدم تجري من بين شرايينهم، فتلتهب جميع مصاحفهم بالنار! قَبَّلَهُمْ واحداً واحداً، وأوصاهم بمسجده خيراً ثم خرج ولم يعد!

وما هي إلا أيام حتى صدر قانون حظر تدريس الدين بتركيا، سلاسلَ تكبل أجنحة الطير الشادي فوق مآذن إسطنبول.. وتخنق بوحشية حناجر فراخ، كانت تثغو ببعض حروف القرآن، فَغُلِّقَتْ دونها كل نوافذ الروح، وماتت آلاف خلايا النحل خنقاً، أو غرقاً في عسلها المرِّ!

عندما توصل المؤذن محمد في بيته الصغير، بقانون إجبار القَيِّمِينَ على المساجد، من أئمة ومؤذنين، على ارتداء الزي الأوربي، ووجوب رفع الأذان باللغة التركية، وحظر اللسان العربي في خطب الجمعة؛ أدرك أن إذن الهجرة قد ضرب برقه المرعد في أفق الغيم الأسود! وقبل أن تبدأ حفلة رقص ماجنة، مختلطة بين النساء والرجال، كان قد أُعْلِنَ عنها في إسطنبول، لأول مرة في تاريخ تركيا؛ حمل المؤذن محمد متاعَه القليل، ثم هاجر سِرّاً ناحيةَ الشام!

حكاية الواعظ السجين!

أما الشيخ "بَيْرَامُ الواعظ" فقد وجد نفسه فجأة بغير وظيفة! فلا هو قادر على اعتلاء منبر الوعظ والإرشاد، ولا هو يستطيع ممارسة مهنة التوثيق

الشرعي لعقود الزواج والطلاق، أو الفصل في قسمة المواريث، التي كان يزاولها بمكتبه الصغير كل مساء! فقد ألغت الدولة الحديثة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، وجميع المحاكم الشرعية، وصدرت القوانين تمنع نظام الإرث الشرعي، وتجيز زواج السِّفَاح على الطريقة الغربية، بلا مَهْرٍ، ولا ولي، ولا شهود..! وصار للمرأة الحق في أن تزوج نفسها بنفسها، ولو حتى من يهودي أو نصراني! كما أُلغيت جميع القوانين الشرعية واستبدلت بها القوانين السويسرية والإيطالية! وطُرِدَتْ عبارةُ: "الإسلامُ دينُ الدولةِ الرسمي" من دستور الدولة! وحُذِفَ اسمُ الله ﷻ من قَسَمِ رجال الدولة، وأصحاب المهن المتخصصة، وسائر الموظفين السامين!

وبقي الشيخ "بَيْرَامُ الواعظ" حَبِيسَ منزله لمدة اثنتي عشرة سنة يكرر ختمات القرآن سِرّاً، لا يخرج من بيته، ولا يطل حتى برأسه من النافذة حرجاً من قانون القبعات، الذي أجبر الناس على لبس القبعة الغربية السوداء. وكيف يطيق الشيخ نزع عمامته العظمى وارتداء قبعة أهل الذمة؟ ولقد فر من استطاع الفرار من العلماء خارج الحدود، واستشهد الآلاف منهم شنقاً أو رمياً بالرصاص، وسط الشوارع والساحات العمومية! لكن بيرام لم يستطع الفرار ببناته الخمس خشيةَ قَراصنة الأعراض هنا أو هناك! ففضل البقاء بسجنه الاختياري إلى الأبد..! ولكم باتت أسرته على الطوى، إذ لم يكن اشتغال بناته وزوجته المريضة بطرز السُّتُرِ والخُمُرِ عمالةً مطلوبةً على الدوام. كيف وها الخِمَارُ قد صار محظوراً بموجب قانون النار؟ وما كان للشيخ أن يخطو خطوة واحدة خارج باب بيته البئيس بغير الرداء الغربي المفروض. فلم يزل قناصة الغدر يلتقطون ببنادقهم الظالمة، رأس كل مؤذن أو إمام، نسي ارتداء قبعته في طريقه إلى المسجد! وتدفقت

شوارع المدن التركية بدماء المستضعفين زهاء ستين سنة! أما الشيخ بيرام فلم يخرج من بيته، إلى أن انفتحت دفة بابه القديم عن جنازته الحزينة!

حكاية يوسف الخطاط

كان "يوسف أوزجان" يفتخر بسند شيوخه العالي في الخط العربي، ويعلق على جدار مكتبه الجميل شهادة إجازته العتيقة، التي أجازه بها شيخ الخطاطين في ديوان السلاطين! لم يكن يوسف يتخذ مهنة الخطاطة مجرد مصدر للرزق فقط، بل كان قبل ذلك يُغَذِّي رُوحَهُ بها، ويستظل بالدخول تحت خمائلها، ويتمتع بالسياحة بين أقواس الحروف المزخرفة بجمال الإيمان. كان إذا شرع في تطريز الكلمات أحرم بمحراب الحروف، وغاب عما حواليه مستجيباً لنداء الروح! وما كان أغضبَ له من زبون بليد، يُكلمه وهو غارق في إبداع لوحة، أو منهمك في تخطيط عنوان كتاب!

عندما صدر قانون حظر استعمال الحرف العربي في كل ربوع البلاد، وتم فرض الحرف اللاتيني على الناس بالقوة؛ صار تداول الكتب والوثائق المكتوبة بالخط العربي لا يقع إلا خلسة وتهريباً! وبيعت أطنان من الكتب والمخطوطات للأوروبيين بأبخس الأثمان! وأُرْسِلَتْ أطنانٌ أخرى إلى مصانع الورق! وبين عشية وضحاها صارت جميع الصحف تُطبع بالحرف اللاتيني، وكذلك جميع اللوحات الإشهارية والتجارية، وأسماء الأزقة والشوارع! ووُضِعَ الحظر الصارم على تدريس اللغة العربية وكتبها، ثم تَمَّ تحريم قراءة القرآن الكريم في أي مكان! وانتشر رجال الدولة يتصيدون المستضعفين المستخفين بقراءة كتاب الله تحت الأقباء، فيقودونهم مجرجرين بالأغلال إلى غياهب السجون!

وخضع جميع الناس لقرار حظر الحرف العربي، تحت سيوف النار، إلا الخطاط "يوسف أوزجان"! فقد أعلن تمرده على القرار، واستمر يطرز لوحاته علناً، ولو لم يجد لها زبوناً! لقد كان الانقطاع عن التخطيط بالنسبة إليه انتحاراً روحياً، وموتاً وجدانياً أليماً! وهو لذلك ربما استغرق أياماً في تطريز آية، أو عبارة ذِكْرٍ، أو تسبيح، إذ ينقش لوحته بالألوان والزخارف الدقيقة، فيجعلها تعبر عن أشواقها الروحية، وأشجانها الوجدانية؛ بما يهيج المشاهد الذواق على البكاء العميق، حتى إذا أنهاها عرضها على المارة أمام مكتبه أياماً، فيمر عليها الناس وهم ينظرون إليها من جانب خفي، خوفاً من رقابة الشيطان! ينظرون ثم يعجبون من مغامرات هذا الخطاط المجنون! حتى إذا أشبع الرجل قلبه من معرضها الاحتفالي، حملها إلى أحد مساجد المدينة، وعلقها على صدر جداره العالي!

ولم يدم حال يوسف الخطاط هكذا طويلا، إذ لم تمض سوى بضعة أشهر، حتى هاجمه رجال الشرطة في مكتبه، فدخلوا عليه، وقد صوب أحدهم مسدسه نحو هامته العالية، وخلال بضع ثوان كان الخطاط مقيداً بأغلال من حديد!

وفي السجن، كان يوسف يعتلي ظهر أحد السجناء الأقوياء، ويطرز على أعلى الجدار بقطعة فحم متين: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟﴾(يوسف: ٣٩)..!

حكاية المعلم المختلف

"مصطفى أرسلان" معلم قروي، كان قد تخرج من مدرسة المعلمين، التي أُسِّسَتْ خصيصاً لتخريج مدرسين ملاحدة! آلاف من رجال التعليم

انطلقوا زحفاً على طول البلاد وعرضها، يلقنون الأطفال والشباب المراهقين نظريات التطور والارتقاء، والفلسفات المادية الملحدة، وتصورات الزندقة، والإباحية الخلقية لتمزيق النسيج الديني الاجتماعي في البلاد! فانتشروا في المجتمع التركي كله، انطلاقاً من قطاعه الأوروبي إلى أقصى شرق الأناضول مع التركيز على البوادي والقرى الصغيرة، حيث ما يزال الناس متشبثين بعقائدهم وأخلاقهم الإسلامية.

وشرعت المدارس في تعليم نظريات الإلحاد رسميا على كل المستويات، بل تم استيراد خبراء من روسيا الشيوعية لذلك! وجُعل يومُ الأحد عطلةً مفروضةً على الناس بدل الجمعة.. ثم انطلقت في البلاد حركة ثقافية واسعة، وموجة إعلامية قوية، ترفع راية الإلحاد ثقافةً للعصر، وموضة للمثقفين الجدد!

لكن المعلم "مصطفى أرسلان" كان من طراز آخر، فقد طبعه أبوه الذي كان مجرد فلاح بسيط بشرق الأناضول، على حب الدين وشيوخه، ومن ثم فرغم تخرجه من مدارس المعلمين الحديثة، وخضوعه لعمليات "غسل الدماغ"؛ فإنه لم يفقد ذاكرة روحه، ولم يتأثر إيمانه بالله شيئاً، بل ازداد يقينا بحقائق الدين، وبات يتتبع حركة التغيير العلماني بعين نقدية! ولم يزل يبحث عن سر غلبة الطابع اللاديني على مظاهرها؟

وتسابقت الصحف الجديدة في تمجيد الزندقة ورموزها، ونشر صور الخلاعة، وأخلاق الرذيلة والسقوط! وفي هذه المرحلة تم الإعلان عن مسابقة ملكة الجمال بين المسلمات، لأول مرة في تاريخ العالم الإسلامي!

وتم تخفيض عدد موظفي المساجد من أكثر من ألفي ومائة قيِّم إلى

أقل من مائتين فقط! وفي إسطنبول وحدها تم إغلاق تسعين مسجداً! أما المدارس الإسلامية والزوايا والتكايا، فقد أُغلقت عن آخرها، وصُودِرَتْ جميعُ ممتلكاتها على طول البلاد وعرضها! وتم تحويل مسجد "آيا صوفيا" الشهير إلى متحف، ومسجد الفاتح الأعظم إلى مستودع! بينما اتخذت مساجدُ أخرى اصطبلات لخيول الشرطة، أو خمارات!

قال لي راوي الأشجان:

أما آخر المهازل فقد كان إصدار قرار بفرش المساجد بالكراسي بدل السجاد، وإدخال آلات "الأورج" الموسيقية إليها، لتنظيم حفلات تجويد القرآن على وقع المعازف! إلا أن هذا القرار وحده لم يجرؤ على تنفيذه أحد..! ولعل الله عصم كتابه المجيد من هذا الهوان!

وارتبطت في ذهن المعلم مصطفى حلقات السلسلة الجهنمية، وأدرك يقيناً أن وطنه المريض قد وقع أسير أخطبوط أسود! وأيقن أن هذا الدخان الشديد لا بد أن تلتهب نَارُهُ يوماً!

عند دخوله على تلامذته ذات صباح، وجد نفسه يقرأ بصوت عال: "بسم الله الرحمن الرحيم!" كانت الكلمات تفيض من قلبه الكريم على مقامات الشَّجا، مما جعل لها أثراً خاصاً في نفوس التلاميذ! ولما استوى بين أيديهم واقفاً، وجدهم ينظرون إليه باندهاش، وساد بينهم صمت غريب حتى تشجع أحدهم فقال: هلاَّ تفضلتَ أستاذنا فشرحت لنا كلمات هذه النشيد الجميل؟

وفي أقل من ومضة نور، وجد المعلمُ نفسه يقود بطلابه سفينةَ الأشواق في بحار الروح! ولم يستيقظ من مشاهدة رؤياه، حتى سمع جرس المدرسة يعلن نهاية المساء الدراسي!

لما وصل المعلم مصطفى مدرسته في اليوم الموالي، وجد المديرَ في استقباله، واقفاً بالباب كأنه صنم من حجر، فما أن اقترب المعلم منه حتى اعترضه بإشارة حازمة من يده، وأوقفه على طريقة رجال الشرطة ثم سلمه قرار الطرد إلى الأبد!

باب الخروج: بين سعيد النورسي وسعيد بيران

كلاهما "سَعيدٌ" إن شاء الله!.. إلا أن سعيدا النورسي هو بديع الزمان!

ففي البدايات الأولى لهذا الكسوف الرهيب، قام الشيخ سعيد بيران البالوي -رحمه الله- بثورته الكبرى في شرقي الأناضول، فجهز جيشاً من خيرة القبائل، ورؤساء العشائر، وأعلن العصيان على السلطة الحاكمة! لكن جيوش الدولة قمعتها بالطائرات والأسلحة الفتاكة، وطاردت الثوار في المغارات والجبال، فكانت مذبحة رهيبة ذهب ضحيتها آلاف الشهداء، وكثير من النساء والأطفال، وتناثرت جثث القتلى بين الوديان والقيعان، بما لم يشهد له شرق تركيا مثيلاً، ولا في الحرب العالمية الأولى! وقُبِضَ على الشيخ سعيد بيران، فتم تنفيذ حكم الإعدام فيه مع أربعين قياديا من مساعديه الكبار! وذلك يوم التاسع والعشرين من شهر يونيو ١٩٢٥م. ثم شُكِّلَتْ بعد ذلك محاكم تفتيش رهيبة، زرعت الخوف والرعب في القلوب، على طول البلاد وعرضها، ونُصبت المشانق لمئات العلماء والوعاظ!

كان بديع الزمان النورسي يبصر بعين حدسه هذه المآلات الرهيبة كلها، ويتوقع مذابحها قبل حدوث الثورة البالوية، ولذلك فقد اعترض

على الشيخ سعيد بيران منهجه الثوري منذ البداية، وأرسل إليه رسالة ينصحه فيها، ويشرح له عدم جدوى المواجهة العسكرية، في زمن كان قد انهار فيه كل شيء! واتضح جليا أن المنهج هو العودة إلى إعادة التأسيس من جديد، وإلى البدء بمرحلة تربية الرجال وإنقاذ الإيمان!

واكتوى النورسي بنار ثورة الشيخ سعيد بيران، رغم عدم مشاركته فيها! ومع أنه ظل معتكفا بخلوته الجبلية في شرقي البلاد، فإن السلطات ساقته إلى منفى قرية "بارلا" النائية، وعزلته عن المجتمع، بعيداً عن الأنظار! وهناك شرع الأستاذ النورسي في كتابة أول رسائل النور سنة ١٩٢٨م، وجعل يُهَرِّبُهَا بواسطة بعض خُلَّصِ طلابه الأوائل، من أهالي القرية الصغيرة، فيسافرون بنسخها الخطية، إلى كل مكان.

لقد كانت رسائل النور دعوةً لإعادة إحلال قَطْرِ الوحي في العصر الحديث، وحركةً للتحقق بمنازل السيرة النبوية بين طلاب النور، والعيش على مواجع آلامها ولذة آمالها!.. إنها استئناف لحركة التاريخ في الأمة، وتجديدٌ لفتوة الدعوة الإسلامية، من دار الأرقم وشعاب مكة، إلى فتح مكة! إنها خضوع طويل المدى لابتلاءات القرآن، وتَلَقٍّ صابرٌ لأحكامه وحِكَمِه، وسَيْرٌ على موازين مراحله، ونتائج تحققاته في النفس والمجتمع، والتدرج معها رَهَباً ورَغَباً حتى يأذن الله بالهجرة!..

....

وكان لمواجع النورسي في دعوته قصةٌ أخرى..! فلم يزل يحمل أسرار مواجيده في سلته الصغرى، حتى ألقاها مناماً إلى فتح الله، ثم رحل!

وهنا تجلت دلالة الرسالة من "السيرة الذاتية" للنورسي، وانكشف رمزها كما وردت في رؤيا "حاتم" صاحب فتح الله! لقد كان بديع الزمان

ساعتها في سنوات عمره الأخيرة، فلم يعش بعد الثمانين إلا ثلاث سنوات، ثم رحل! فكانت رسالته المقتطفة من سيرته الذاتية إلى فتح الله، بعثاً إليه بتجربة حياته، وثمرة مكابداته، ونتاج عمره كله! ألقى بِكَلْكَلِهِ الثقيل على كاهل الفتى في سلة واحدة!

ونادى فتحُ الله غداةَ الرؤيا: لبيك يا سيف النور البتار..!

ومِنْ علَى مئذنة مسجد أرضروم، نشر الفتى شراعَ أجنحته في الريح، وطار..!

ولقد رأيته يا سادتي يحلق في الأفق، ضارباً بوميض الوجد اللاهب، نحو ظلمات الغرب البعيد..!

الفصل الرابع

فتوحاتُ "أَدِرْنَه"..

من الخلوات إلى الجلوات

سياحةً يا رسول الله..!

الخلوةُ فِكْرٌ، والجلوةُ ذِكْرٌ، وبينهما تنتصب معارج الروح. ولا وصول إلى مدارجها إلا بالضرب في الأرض حتى مجمع البحرين! وللطريق عقباتٌ ووِهَادٌ، فللجبال تَعَبٌ وللصحراء لَهَبٌ! والسائر بينهما يتَعَلّى ويتدلّى بين خفاء وجلاء، يتلذذ بالضَّنى ويتغذى بالنَّصَب! ومن ظن أن بلوغ "ماء مَدْيَنَ" يكون بغير سفر فهو واهم!.. فاحملْ مِزْوَدَكَ على عصاكَ يا قلبي وارحل!.. فعلى شاطئ الجوار الآمن توجد منازل المحبين!

....

بلاد الأناضول هي أرض السفر الأبدي..! فكل شيء فيها مجبول على الهجرة والترحال: الإنسان والحيوان والطيور والأسماك! مسالكها البرية والبحرية مسكونة برياح لم تزل تهب -منذ فجر التاريخ- على القلوب، فتهيجها على الرحيل، حتى إذا التهبت أشواقها سلّمت للريح أجنحتَها وانطلقت! كانت الطيور منذ القرون الأولى تتجمع فوق جبال المناطق الشرقية، ما بين "وَانْ" و"بِتْلِيسْ"، حتى جبل أَرَارَات. وتتجمع أخرى بالغرب ما بين قباب إسطنبول وشواطئ إزمير، واستقرت أخرى بالشمال على امتداد جبال البحر الأسود، وأخرى بالجنوب ما بين بحيرات "إسبارطة" ومدينة أنطاكيا. حتى إذا نادى المنادي: "يا خيل الله اركبي..!" أقلعت الأسراب من هنا وهناك، وانطلقت تضرب بأجنحتها في الفضاء على خفق واحد، مَشُوقَةً بنداء الروح!

....

"أوليا شلبي" رحالة تركي شهير، عاش في القرن الحادي عشر الهجري، حكى في مقدمة كتابه: "سياحة نامه" أنه رأى رسول الله ρ في المنام يدخل أحد مساجد إسطنبول. اقترب منه وقبّل يده الشريفة، ثم أراد أن يطلب منه الشفاعة يوم القيامة، لكنه -من شدة المهابة- ارتبك، فبدل أن يقول: "يا رسول الله شفاعة"، قال: "يا رسول الله سياحة!" قال: فتبسم الرسول ρ، ودعا له بالسلامة في جميع سياحاته!

ومن ثم لم تزل صيحة "أوليا شلبي" الحَرّى صدًى يلقح الأشجار بكل الأناضول، ويغذي الريح السائح بالهيجان، فيطرق مغاور الشطآن وكهوف الجبال.. ولم تزل فراخ الصقور تستنشق من روحه العابر كل صباح، ما ينمي الريش بأجنحتها، حتى إذا تأهلت لمغادرة الأعشاش، صاحت:

- "سياحةً يا رسول الله..!" ثم انطلقت تضرب في الفضاء العالي!

....

كان رامز أفندي يرى أن على ابنه فتح الله أن يغادر أرضروم برمتها، تلك كانت رغبته منذ زمان بعيد.. لكن أم الفتى كانت تضن به، وتشفق أن ترسله إلى متاهات بلاد الأناضول! كيف والزمن عصيب، والسيف مُصْلَتٌ على المؤمنين؟ لكن الأب كان يدرك أن أرضروم لن تسع عقل ابنه العبقري ولا روحه الوهاج؛ وإلا ضاعت بذرته الغالية في تربة قارسة! ومن ثم لم يزل يلح على أم الفتى بفكرته حتى لانت وقبلت!

فكانت تلك إشارة أخرى أومأت إلى فتح الله، بطبيعة مسلكه الشاق الطويل.. إشارة جاءت لتختم بشائر النور، التي أضاءت ليلته الخضراء بالمسجد الجامع. ولذلك ما أن تلقّى رضا والدته حتى أدرك أن موعد الرحيل قد آن، فصاح من أعماق وجدانه الصامت:

- "سياحةً يا رسول الله!.."

وانطلق القطار نحو مدينة أدِرْنَه، يبتلع أكثر من "أربع مائة وألف كيلومتر" راحلا من أقاصي شرق تركيا إلى أقاصي غربها! لم يكن شيء في بدء الأمر يبدي حكمة سفر الفتى إلى هذه المدينة بالذات، سوى أن خال أمه "حسين طوبْ هُوجا" كان يسكن هناك؛ فكانت والدته ترجو أن يكون تحت رعايته. لكن الأيام أبدت له أنما جاء أدِرْنَه على قَدَرٍ معلوم! فصخرة معراجه العالي لم تكن سوى هذه المدينة الملتهبة!

ولذلك فإنه خرج ولم يعد! رغم أنه كان يخيل إليه بادئَ الأمر أنما هي أيام يقضيها بأدِرْنَه ثم يعود إلى أرضروم. لكن نداء السياحة كان أقوى من إرادته، فقد طوّح به عاليا في معارج الروح. ولم يزل يهاجر إلى الله، ويسافر من حَزَنٍ إلى شَجَنٍ، ومن وَجَعٍ إلى أَلَمٍ، يداوي القروح بالجروح، ويضمد الأحزان بالأشجان، في رحلة لا تكاد تنتهي..!

كانت محطات القطار بالمدن الكبرى بالنسبة لفتح الله، منعطفات للاستراحة من وعثاء السفر، ومناسبة لطرق أبواب مدن أخرى بعصا سياحته الروحية. كانت أنقرة هي المحطة الأولى التي استهوت الفتى، فنزل بها بضعة أيام، قصد التعرف على موعد الامتحان، الذي تنظمه رئاسة الشؤون الدينية للأئمة والخطباء. وخلال تلك الفترة جعل يتردد على حي كان يسكن فيه بعض أصدقائه. وقد أعجب الفتى بالحي كثيرًا لما له من طابع روحي خاص؛ بسبب وجود المربي الزاهد الكبير الحاج بَيْرَام، الذي أحبه الفتى حبا كبيرًا. وهنالك زار أحد نواب البرلمان، اسمه "مصطفى زِرَنْ"، كان من أقرباء والده، فبات عنده ليلة واحدة، في أحد الأحياء الراقية من المدينة، فاطلع بذلك على وجوه مختلفة من معالم أنقرة. ثم استأنف مسيرة الأشجان.

إسطنبول هي المدينة الثانية الكبرى في الطريق إلى أدِرْنَه. كان لا بد للفتى من التعرف عليها، ولذلك نزل بها، ثم مكث فيها أيضا بضعة أيام. كان يأوي إلى فندق صغير بحي "سِيرْكَجِي"، بسبب أنه كان مشهورا جدا عند الأرضروميين، لا يكادون ينزلون بغيره. إلى درجة أن كل من قصد إسطنبول منهم كان يُوصَى به. كان فندقا عاديا، أو قُلْ أقلَّ من عادي، إلا أنه كان الأنسب لأهل أرضروم الفقراء. كانت فرشه ووسائده بالية، وكانت ثُقَبُها وثناياها أعشاشًا للصراصير والبراغيث، وضروب أخرى من الحشرات الصغيرة! وكان الضجيج لا ينقطع ببهوه ومسالكه الليلَ والنهار! غير أنهم كانوا يصنفونه -في ذلك العهد- في الدرجة الثالثة! أما الفتى فلم يذكر أنه استطاع أن ينام الليل به من شدة الحك والمَعْك!

متاعب الوصول

كان القطار ينطلق من إسطنبول بعد منتصف الليل، ولا يصل إلى أدِرْنَه إلا في ساعةٍ متأخرة؛ ولذلك نام أغلب المسافرين بمجرد استوائهم على مقاعدهم! وغفا فتح الله معهم، ولم يزالوا نائمين حتى تجاوز القطار المحطة الرئيسية بمدينة أدِرْنَه! حتى إذا انتهى إلى المحطة الأخيرة، جعل الموظفون يوقظون الناس لإفراغ القطار! فلما نزلوا وجدوا أنفسهم في خلاء بعيد، وعلموا أنهم مضطرون لقطع مسافة طويلة في اتجاه المدينة، فمشوا بأثقالهم على الأقدام زمنا!

ودخل الفتى المدينة على حين غفلة من أهلها.. فما أن وجد الفندق الذي يناسبه حتى أخلد إلى الراحة ونام. ولما كان الصباح وجد نفسه في

فندق مجاور لمسجد "الشرفات الثلاث" الأثري، وهو لا يدري آنئذ أنه المسجد الذي سيكون به إماما من بعدُ.

بدأ الفتى بالبحث عن خال أمه "حسين طُوبْ أفندي"، حتى إذا التقاه أكرمه ثم هيأ له مأوى مؤقتا بمسجد السلطان "بَايَزِيدَ يِلْدِرِم"، الذي كان حسين أفندي إمامه وواعظه. وعلم الفتى أنه للحصول على وظيفة دينية، لا بد من موافقة المفتي أو وكيل المفتي بالمدينة. وليس بأدِرْنَه يومئذ مفتٍ، ومن ثم اصطحب الخالُ ضيفَه إلى وكيل المفتي "إبراهيم أفندي". فلما رأى الوكيل الفتى استهان به لصغر سنه، ولم يثق بقدرته على شيء مما أتى من أجله، فقال: "يجب أن أمتحنه!" وقَبِلَ الفتى على الفور، فأعطاه الوكيل كتابا من كتب الفقه، فتحه على إحدى الصفحات بصورة اعتباطية، وأمره بالقراءة، فقرأ الفتى، وكلما قرأ فقرة ترجمها إلى التركية! كان الانبهار والإعجاب يدق بقلب الوكيل، لكنه تحكم في ملامح وجهه كي لا يبدو عليه شيء من ذلك! حتى إذا أتم الشاب مقروءه أمره الوكيل بالخروج من المكتب. وبعد قليل لحقه خاله حسين أفندي وهو يكاد يطير من الفرح! فقال له: أبشر! إن الوكيل قد أعجب بك جدًّا، وشهد في حقك بقول عظيم، قال: "إن هذا الفتى ما يزال شابا يافعا، لكن يبدو أنه كَوَّنَ نفسه بشكل جيد". هذه العبارة سَرَّتْ حسين أفندي، لكن الفتى لم يَخْفَ عليه ما فيها من استعلاء وكبرياء!

ثم وُظِّفَ فتحُ الله بعدُ إماما ثانيا بمسجد "الصومعة البيضاء". فكان يصلي بالناس فيه ويعظ زمنا. حتى إذا حل موعد "امتحان الوعاظ" الذي تنظمه رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة، سافر إليها لاجتياز الامتحان. وبعد أيام، طُلِبَ الإمام الشاب لإجابة الهاتف بمكتب الإفتاء في أدِرْنَه، فإذا

به يجد قريبهم النائب البرلماني "مصطفى زَرَنْ" يحدثه من أنقرة: "ابن أخي، أُقبِّلُ جبينكَ، لقد نجحتَ في الامتحان، فهنيئاً!" وما أن بلغ الخبر الخال حسين أفندي، حتى جعل يبحث عنه بين الأزقة والأسواق، حتى إذا صادفه عانقه بحرارة وسط الشارع، وهو يقول له مرة أخرى: "أبشر فتح الله لقد فزت في الامتحان!"

ولكن بِقَدْرِ ما أفرح هذا الخبر الخال حسين أفندي؛ فقد أخاف وكيل المفتي وأثقل عليه! ذلك أن فتح الله كتب عريضة لرئاسة الشؤون الدينية بأنقرة، يطلب فيها أن يعين مفتيا لأدرنه، إذ لم يكن بها سوى وكيل! بيد أن الجواب جاء سلبيا؛ معلَّلاً بعدم أداء الفتى للخدمة العسكرية، إذ لم تكن سنه تتجاوز السابعة عشرة حسب البطاقة الرسمية، وهي سن لا تمكنه من الانخراط العسكري، ولا تتيح له العمل الرسمي بوظائف الدولة. ولذلك فقد اضطر لمراجعة المحكمة قصد تصحيح تاريخ ميلاده، فصار عمره ثمانيةَ عشر عاماً.

ثم رَتَّبَتْ دارُ الإفتاء بأدِرْنه مباراة لإمامة المساجد الفارغة على مستوى المحافظة، ففاز فتح الله بالرتبة الأولى، وصار من حقه أن يُعَيَّنَ إماما بمسجد "الشرفات الثلاث" التاريخي، لكنَّ وكيل المفتي إبراهيم أفندي دافعه بشخص آخر، وقال له مستفيدا من الجواب السابق لرئاسة الشؤون الدينية: "صحيح أن درجتك هي الأولى في المباراة، لكنك ما أديت وظيفة التجنيد العسكري بعد، وهذا الرجل قد أداها، ولذلك فإننا نعتبركما بمستوى واحد، وسَنُعَيِّنُ أحدَكما بالقرعة!" لكن القرعة خيبت أمل الوكيل فعُيِّنَ الفتى بالمسجد المذكور.

كان راتب الإمامة يومئذ هو مائتي ليرة. لكن فتح الله لما دعي إلى دار

الإفتاء ليتقاضى أجرته، وجد الراتب قد انتُقصت منه ثلاثون ليرة! وماذا بوسع إمام شاب يعيش غربة في الزمان والمكان أن يفعل؟ خاصة وهو الفتى الحيي الخجول، الزاهد في المال والمتاع.. ثم هو ما هاجر من أرضروم أصلا طلبا لرزق أو وظيفة، بل كان يحلم بأن يرفع راية النور خفاقة فوق المآذن والقباب، ويوصل خدمات الإيمان إلى أقصى الثغور. وفي تلك السبيل صرف فتح الله كل ما وقع بيده من نقود.

ابتلاء الكلمات، واقتحامُ العَقَبات

أنْ يبلغ العبدُ مقامَ الإمامة بحق؛ لا بد أن تلتهب أضلاعه بكلمات الابتلاء، يكتوي بهن الواحدة تلو الأخرى. حتى إذا أتمهن جُعِلَ للناس إماما، وإلا كان في أحسن أحواله من التابعين. و"الكلمة" في هذا المسلك ليست قولا يقال فحسب؛ بل هي فعلٌ ملتهب، وعَقَبَةٌ بركانية متفجرة، وامتحان عسير، تسير الأقدام فيه على حد السيف، وتُحرَقُ فيه القلوب بنار التخلية والتحلية. ولذلك كثر في الدنيا التابعون المقلدون، وقل الأئمة المجددون.

وفي مدينة أدرنه وجد فتح الله نفسه مَعْنِيّاً بهذا المَقام، فإما أن يكون إماما وإلا فليس له بها مُقام! هذا قَدَرُهُ، والخطب عظيم، وليس له إلا أن يتقدم، فلم يعرف في حياته قط أن يخطو إلى وراء، ولو من أجل خطوتين إلى الأمام! ولِمَ لا؟ فهو لم يزل مُذْ عَقَلَ يرتل ميثاق العهد، ويبكي: "فلاَ اقْتحمَ العَقَبَةَ!" "فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ!"

وتوالت كلمات الابتلاء تتهاطل على رأسه تترى! فلا يكاد يخرج من

نار حتى تلفحه نارا! لكنَّ الغيث كان يبلل جوانحه برداً وسلاما! فيزداد إيمانه قوة في مواجهة النار، وتشتد عزيمته على اقتحام لهيب العقبة بعد كل عقبة!

العقبة الأولى: جروح أدِرْنَه..!

أدِرْنَه لها في تاريخ تركيا قصة أخرى!

أدِرْنَه دار الشياطين! أدِرْنَه مهد المجاهدين! أدِرْنَه مأوى الفاسقين! أدِرْنَه عاصمة الفاتحين! أدِرْنَه ملتقى الساقطين! أدِرْنَه معراج السالكين!

أدِرْنَه مدينة غير عادية، لم يزل عمرانها يتربع على موقع استراتيجي مهم، في أقصى غرب القطاع الأوروبي من تركيا، على حدود دول البلقان، وخاصة بلغاريا واليونان بحيث تترآى بها ليلاً أضواء المصابيح من مباني المدن والقرى المجاورة بالدول الأخرى!

أدِرْنَه بموقعها "الجيوسياسي" ذاك، تُذَكِّرُ المسلم البصير اليوم بالتاريخ الذي كان! فأي مؤمن –حق مؤمن– يدخلها اليوم ولا يشعر بسياط الأسى تنهال على ظهره وفوق كتفيه؟! مدينة محروسة بالله... وكأن قبابها ومآذنها خوازيق من حديد تمنع زلزال التاريخ، وانجراف الجغرافيا! فخلف حدودها هناك بأرض الآخرين، مدائن وقرى للمسلمين في بلغاريا وما جاورها، لم يزل الأذان بها يستمد نشيجه الحزين من استغاثة المرأة العباسية بأرض الروم: "وامعتصماه!" فيتردد الصدى بكل جبال الأناضول: "وامعتصماه! وامعتصماه!" أولم يكن ممكنا أن تكون أدِرْنَه هي أيضا داخل مأتم الأسر الأليم؟ فأي نعمة هذه التي تغرق قلب العبد وهو يدخل أدِرْنَه اليوم آمنا مطمئنا؟! وأي لطمة شديدة يتلقاها وهو يدرك أنه وارث ضعيف غير

مكين؟! وإلا فما بال مسجد السليمية يشكو بَثَّهُ وحزنه إلى الله، وينادي عبر مآذنه الأربع عند كل صلاة: "حيَّ على الجراح! حيَّ على الجراح!" وليس يسعفه أحد؟

أدِرْنَه عاصمة الجهاد، وعرين الأسود والأشبال! بها ولدت بشرى الرسول ﷺ: السلطان محمد الفاتح، فاتح إسطنبول! "فنعم الجيش جيشها ونعم الأمير أميرها!" وصَدَّقَ التاريخُ النبيَّ محمداً وهو المصدَّق في الأرض وفي السماء! فعليكَ الصلاة والسلام يا سيدي يا رسول الله! ولأدِرْنَه بعد ذلك أن تفخر بانتصاب ربوتها مهداً لبشارة الرسول!

لم تكن العواصم التي اتخذها خلفاء الدولة العثمانية الأوائل، سوى محطات عسكرية للجهاد في سبيل الله! ولم تكن زينتهم ونياشينهم سوى تروسهم وسيوفهم! ولم تكن عروشهم سوى ظهور خيولهم، ولم تكن معازفهم العسكرية سوى قوارع التكبير والصهيل! انطلقوا أولا من مدينة "مَنِيصَا" بالجنوب الغربي من بلاد الأناضول، كانت هي مَهْدَ قبيلتهم وحمى عشيرتهم. ثم تقدموا في غزو الروم مجاهدين؛ ففتحوا مدينة "بورْصَا" في الشمال الغربي من البلاد، فصارت هي عاصمتهم الأولى، وبها أسسوا دولتهم. ثم استمروا في الجهاد حتى فتح الله لهم مدينة "أدِرْنَه" في القارة الأوروبية! سنة ٧٦٣ هـ، فجعلوها عاصمة جديدة لهم، واستمرت المدينة أميرةً نحو قرن من الزمان! حتى جاء السلطان الشاب محمد الفاتح، ففتح الله به القسطنطينية، أي مدينة إسطنبول! فصارت هي عاصمة العواصم، ووارثة الأمجاد والمكارم. وارتفع رأس الخلافة الإسلامية عاليا في سماء التاريخ! ولم تزل راية الإسلام بعدها تغزو شرقا وغربا، ولم يزل بذلك نصر الله يبشر بالفتح المبين في كل مكان! إلى أن تقاعس السلاطين

المتأخرون عن اقتحام القمم الرواسي، وأخلدوا إلى نعيم القصور وزينة الكراسي؛ نزع الله مُلكَهُ ومنع نَصْرَه! ثم تداعت الأمم على قصعتها! وجرى دم الخلافة نزيفاً يمزق القلوب في كل مكان!

ومن ثَمَّ كان لأدِرْنَه في قلب الشيطان حقد دفين، وثأر قديم! فهي مولد محمد الفاتح، فيها نشأ، وفيها تربى، ومِنْ عَلَى رُبَاهَا كان ينطلق لحصار القسطنطينية، حتى انتزعها من بين أضراس الروم انتزاعا! كما انتزع أجدادُه أدِرْنَه منهم انتزاعاً! فما أن تمزقت بردة الخلافة حتى غرز فيها الشيطان مخالبه، فهتك حجابها، ودنس عرضها!

صارت أدِرْنَه بعد ذلك مزارع لعنب الخمر، وسوقا للرذيلة، زاحمت الخمارات المساجد وطوقتها من كل مكان! وتدفقت خراطيم مصانعها النجسة في بطون السكارى، بما لم يعرف له مثيل في تركيا كلها! وترامت النفوس الردية على كثير من أحيائها، فأفسدوا البلاد والعباد بعاداتهم السيئة؛ يشربون ويرقصون ويسرقون! كما صارت مهجرا لكثير من المسلمين الهاربين من دول البلقان، الذين جاؤوها بما حملوه معهم من عدوى الانحلال الخلقي! ولوقوع المدينة على حدود دول الغرب فقد صارت معبرا للسياح القادمين إلى تركيا عبر البر. فاجتمع على هذه المدينة من البلاء ما لم يجتمع على غيرها! وعاش أهلها بُعَيْدَ سقوط الخلافة الإسلامية مرحلة عصيبة من الانهيار الخلقي بكل أشكاله! إلى أن استيقظ شبابها -في ستينات القرن الميلادي العشرين- على صيحات الإصلاح الديني!

وهال فتح الله ما رأى بها من فظاعة الجهل بالدين لدى أئمة الدين! ومن خيانة لحقوق الله لدى المكلفين رسميا بحمايتها! إلى درجة أن

فناءات بعض المساجد قد صارت وكراً للفحشاء! أما الشوارع والأسواق فقد نافست أوروبا في خلاعتها. بنات المؤذن أو الإمام هن اللواتي كن يفُزْن بالدرجة الأولى في مسابقات الرقص! وصارت القوامة الدينية وظيفة لا علاقة لها بالعبادة! حتى إن بعض المؤذنين لم يكن يصلي أصلا؛ وإنما كان يقيم الصلاة للناس من داخل مقصورة المؤذنين، حتى إذا سمع تكبيرة الإمام بالإحرام غادر المسجد، مسرعاً نحو وفود السياح الأجانب، ليجول بهم في فناء المسجد وفي محيطه الخارجي؛ لقاء بضع ليرات! ثم يعود مسرعا إلى المسجد قبل السلام؛ ليقرأ الأذكار والتسبيحات على المصلين! كل ذلك وغيره، ولا من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر!

لقد كانت الحدود الغربية لتركيا تنهار! وكانت مآذن مسجد الشرفات الثلاث تدور حول نفسها بقوة غضبية! عساها تنفض العار الذي أحاط بالبلاد! وحول أركانه كان طيف سلطان الأولياء وولي السلاطين، الخليفة العثماني المجاهد مراد الثاني، يجول مغموما، وهو يبكي مآل المسجد الذي بناه بحجارة متوضئة! ولم يزل خَلَفُهُ ووارث سره ابنه "محمد الفاتح" ينظر إلى الأفق البعيد؛ ويصيح في وجدان الزمان لبدء فتح جديد!

أما مسجد السَّلِيمِيَّة فقد كانت قبته العظمى تهتز كأنها جان! ملوحة بأطراف صوامعها الأربع، وكأنها نسر يهم بالطيران! وللشيخ المعلّم "مِعْمار سِنَان" بكاء يمتد صداه الحزين مع كل مقطع من الأذان! رثاء لأعظم إبداع نحتته يداه على هيئة الشوق الضارع إلى الله! فآهٍ عليك يا عاصمة الفاتحين!.. ويا مدينة الأولياء! أي شيطان هذا الذي ألقى بك في مستنقع النجاسة حتى الغرق؟! فَوَامُعْتَصِماهُ وَامُعْتَصِمَاهُ!

ولم يزل الصدى يتردد بالنداء حتى جاء "فتح الله!"

كانت البداية صعبة جداً على الفتى.. فتخيلْ كيف ستكون معاناة شخص متدين، قَدِمَ من بلد شديد المحافظة، والرعاية للفضيلة والأخلاق مثل أرضروم، إلى درجة أن أهلها كانوا لا يُؤَجِّرُونَ بيتا لأعزب ليحل بمدينة فقدت كل معاني العفة والحياء إلى درجة أن أوانسها وعوانسها كن يعتدين على الرجال بالكلام الساقط في الأزقة والدروب، على عكس سُنة الفسق في التاريخ البشري!

العقبة الثانية: امتحان يوسفي!

ما أن استقر الوضع المادي للفتى نسبيا، حتى شرع في البحث عن بيت للإيجار. وسكن منزلا بخمسين ليرة شهريا. بيت صغير وجميل له حديقة. فَسُرَّ فتحُ الله بانكشاف الغمة، وعزم على استئناف الدرس وتجديد الهمة. ولكنه لم ينتبه إلى أن المنزل محاط بجحور الأفاعي! فقد كان موقعه في زقاق مسدود، وكان بابه آخر الأبواب. وكان الفصل صيفا، وللحرارة تأثير على كل شيء، فَتُخْرِجُ إلى الناس كل ما يُخشى خروجُه! فعلى طول الزقاق كان نسوة الحي يقضين أوقاتهن على أرصفة الدرب، من أول النهار حتى وقت متأخر من الليل! وكن يجلسن متبذلات! فأدرك الفتى أنه وقع في حرج عظيم! فليستطيع الوصول إلى بيته كان مضطرًا للعبور بينهن، فكان في كل خطوة يشعر كأنما يطأ على الجمر! وعيون صواحبات يوسف ترميه بسهام الإغراء من كل جوانبه! فيتدفق عليه العرق من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه! حتى إذا وصل بيته وجد نفسه وكأنما هو خارج من حمام!

وبقي على هذه الحال لمدة خمسة عشر يوما. حتى إذا يئسن من

استجابته وكَسْرِ صخرة ثباته؛ تجرأت عليه الأوانس بكلمات لاسعة، مستفزات إياه بما لا قِبَلَ له بسماعه! فيفزع الفتى مسرعا نحو بيته، وهو يتحرق ألماً ما بين لهيب الأسى وجمر الخجل! ثم لا يكاد يجد بعد ذلك للنوم سبيلا؛ حَزَناً على سقوط مدينة المتطهرين في درك العفن! فلما كان اليوم الموالي خرج قبل الفجر ولم يعد إلا بعد منتصف الليل! وبقيت تلك عادته حتى نهاية الشهر! فلقي في ذلك من العنت ما الله به عليم.. فليل الصيف ليلٌ قصير، سرعان ما يكشفه ضوء الفجر؛ فلا يبقى للفتى من لحظات النوم إلا مقدار ساعتين فقط! ثم يخرج للصلاة بالناس! فوجد نفسه يدفع نقود الكراء بلا فائدة، إضافة إلى المسافة الطويلة التي كان يقطعها نحو البيت مشيا على قدميه؛ ومن ثَمَّ جمع متاعه القليل، ثم التحق بمسجده "ذي الشرفات الثلاث".

نظر الفتى من داخل المسجد إلى أعمدته وزواياه، نظرات باكية تنطق بالاستغاثة وتطلب الجوار! فبدت له إحدى نوافذه الكبرى وكأنها ترحب به، فارتمى إليها بوجدان جريح، أتعبه لهيب الأزقة المتعفنة! فما أن دخلها وأغلق عليه أبوابها؛ حتى شعر بجوانحها تحتضنه، وتضمه إليها بعطف دافئ كأنها أم حنون! كانت نوافذ المسجد عالية فسيحة وكأنها أبواب، كما هي العادة في هندسة أغلب المساجد السلطانية بالعهد العثماني. يرتفع بابها نحو مترين ونصف، ويعلو سقفُها نحو ثلاثة أمتار، ويمتد عرضها إلى مترين، أما عمقها فيتسع إلى متر ونصف، حتى يستوعب عمقَ جدار المسجد، على هيئة الباب تماما، إلا أنها ترتفع عن أرض المسجد قليلا. وقد شُدَّتْ من الخارج بشباك حديدي متين وثابت، ومن الداخل بأبواب خشبية لصيقة بشباك الحديد، ذات مربعات فارغة يملؤها الزجاج الشفاف

لتغمر المسجد بأشعة الشمس. ثم جُعل لكل نافذة من داخل المسجد بابٌ خشبي متين، يُفتح ويُغلق. فصارت النوافذ بذلك أشبه ما تكون بغرف، أو بمقصورات صغيرة.

وضع فتح الله في النافذة ممتلكاته كلها: بطانيتين، وصَحْنَيْن للطعام، وملعقة، وكوبا لشرب الشاي! هذا كل متاعه الذي جاء به من أرضروم! وظن أنه بهذه الخلوة قد نجا من تسلل الأفاعي، ومن لدغها المفاجئ.. ولكن أليست الأفاعي أفاعي؟ فأي شيء يمنع تسللها ما دامت تحاصر المسجد من كل مكان؟ وما كان يظن قط أن النار التي فر منها ستقتفي أثره! حتى إذا فرغ من صلاته ذات يوم وانصرف الناس عن المسجد، تأخر نحو مقصورة المؤذنين خلف المسجد، فجلس يرتشف سبحاته في سكون. لكنه لم يلبث كذلك إلا قليلا حتى فاجأته امرأة فاتنةٌ، لا يدري كيف اشتعل لهيبها بين يديه، فجعلت تدعوه بألسنة من نار إلى فتنتها! فما أن أدرك حقيقة ورطته حتى انتفضت روحه، فصرخت صرخة صامتة من غور الأعماق... صرخة لم تسمعها الآذان ولكن اهتزت لصداها أركان المسجد والسماوات... وفي أقل من لمحة البصر قفز الشاب قفزة قوية، وارتمى بسرعة إلى النافذة من خلفه، فغَلَّقَ الأبواب، وقال لِلْحَيَّةِ الرَّقْطاءِ: "الموت لك!" فكان ذلك التصرف لطمةً مُهِينَةً لهواتها، وممرغة لوجهها في ترابها! فتراجعت الحية خائبة وهي تَشْتُمُ الفتى الصِّدِّيقَ: "إذن فابْقَ على هذه الحال البئيسة وحدك! حتى تهلك بتعاستك وحدك! ألاَ بُعْداً لك!"

أفعى رَقْطاءُ، قطعاً أرسلها الشيطان إلى فتح الله! فلعلها تلدغ طهر غلائله فتحرق سره! وفَتْحُ اللهِ لديه سِرٌّ ليس يبوح به، لو كسر الشيطانُ

صندوق لأتلفه لكان هَلَك! لكن الصِّدِّيق نَجا، وأغلق دون دخان النار نوافذ عصمته، ثم رمى الشيطانَ بماء وَضُوئِهِ فَخَبَا!

• • •

عندما عَلِمَ الخال حسين أن فتح الله اتخذ نافذة المسجد مسكنا، اتصل بالتقني الكهرباء فأمره أن يصلها بخيط النور، وأن يجعل فيها مصباحا للفتى. فاستجاب التقني على الفور ودخل المسجد في غير وقت صلاة وبدأ عمله. حتى إذا أشرف على وضع المصباح في النافذة وقف عليه الفتى، فسأله عما يفعل، فلما أُخْبِرَ بالأمر غضب، ومنع التقني من إتمام عمله، ثم جعل يفك بيده خيوط الكهرباء الموصولة بالنافذة، وهو يقول: هذا كهرباء المسجد، وهو مؤدّى من مال الوقف، ومال الوقف لا يحل لي! إنني يا سيدي مستغن عنه بشمعتي!

ومن ثم لم يزل الفتى كلما انصرف من صلاة العشاء بالناس، وأطفأ المؤذن المصابيح؛ آوى إلى نافذته فأوقد شمعته الصغيرة، ثم اتخذ من شعاعها الخافت مسلكا، يسافر من خلاله في طبقات الزمان! فيشارك في مجالس العلماء بعصور غابرة، أو ربما ألقى دروسه على أطياف تنعقد مجالسها بأزمنة قادمة!

وبقي فتح الله آمنا بعد ذلك في نافذته المحبوبة لمدة سنتين ونصف. هي خلوته، وهي معراجه، وهي مستراحه ومطعمه. فيها ينام، وفيها يستقبل ضيوفه! ولم يفكر قط في تغييرها حتى نودي للخدمة العسكرية!

العقبة الثالثة: ضيافة في النافذة!

لم يكن له من حرج في سكنى النافذة سوى استقبال الضيوف! فقد

زاره مرة أخوه "صبغة الله" فجعله يبيت في النافذة، وبات فتح الله على أرض المسجد! واضطر في اليوم الموالي أن يعيده إلى أرضروم! فاستدان سبعين ليرة من أجل إرساله في القطار!

ثم هو لايزال يذكر زيارة الداعية الكبير "صالح أُوزْجَانْ"، ومبيته ليلة بنافذته! كانت زيارة مشهودة تركت في نفس الفتى أثرا بليغا لا ينساه أبداً! فقد جاءه في ظرف حرج جدا، وهو أحوج ما يكون إلى من يواسيه ويضمد جراحه! "صالح أُوزْجَانْ" رجل من شرق الأناضول أيضا، من القبائل العربية بتركيا، وهو حسيني شريف النسب. تعرف على بديع الزمان النورسي فانخرط في خدمته، وكان له دور فعال في إصدار الطبعات الأولى من رسائل النور. دخل السجن في محنة طلاب النور مراراً! وكان له الفضل في تعريف النورسي ورسائله في العالم العربي في وقت مبكر جدا! كانت له قلوب الخاصة والعامة تنفتح له بسهولة عجيبة! صاحب بعض الملوك مثل الملك فيصل رحمه الله، وكثيرًا من الوزراء والشخصيات السياسية والعلمية المشهورة من المشرق والمغرب، مثل الشيخ محمد محمود الصواف، والشاعر عمر بهاء الدين الأميري، والأستاذ علال الفاسي، والشيخ عبد الله كنون، والعلامة محمد بن تاويت الطنجي! ما ترك بقعة من الأرض إلا زارها! ولطبيعته الاقتحامية والسياحية كان بديع الزمان يقول له مازحا: "أنت وزير خارجيتي!"

أكرمه فتح الله على قدر طاقته، ثم هيأ له النافذة لينام فيها وبات هو على الأرض، على عادته كلما نزل به ضيف! وفي الصباح -عند الوداع بمحطة الحافلات- احتضن السيد "صالح أوزجان" الشاب فتح الله بحرارة بالغة، فقال له وهو يودعه: "إنك بطلٌ تماماً!" كانت تلك الكلمات التي

صدرت من هذا الرجل العظيم، كافية لتجديد الحيوية والحياة في روح الفتى، وانتشاله بقوة من حال القبض الذي سيطر عليه أياما! فرجع إلى نافذته مسروراً، وهو يشعر بطاقة إيمانية جديدة تتفجر بين جوانحه!

كان فتح الله جريحا ووحيدا، يحتسي الأحزان في غربة البلد والروح! وكان أحوج ما يكون إلى ضماد معنوي، فجاءت كلمات السيد صالح بلسما لكل جراحه وأحزانه!

العقبة الرابعة: مغامرة روحية!

فتح الله شَبابٌ غَضٌّ، وقوةٌ وفُتُوَّة، وجمالُ خِلْقَة، وخُلُقٌ كريم، وأناقةُ لباس، وهيأةٌ قويمة، زادتها تجلياتُ الروح هيبةً وجلالاً! حِلْيَةٌ أجهَدتِ الفتى تَعَباً، وأرهقته من أمره عسراً في بيئة تمطر سماؤها بالفتن والمحن! فإلى متى يطول صبره؟ وحتى متى تثبت عزيمته؟ وها صويحبات يوسف كلما أغلق دونهن بابا فتحن عليه أبوابا! هو في سجن نافذته الضيق والمؤامرات تحاك ضده بين الأزقة والدروب! وأنى لغصن أخضر ينتصب وحيدا في غابة من الحطب المشتعل ألاَّ تلتهم النار عوده وتشرب نداه؟ فأين المفر؟

كان يدرك جيداً خطورة موقفه، ووعورة مسلكه؛ ومن ثم فكر تفكيراً غير مألوف! فقرر الفرار إلى رياضة الروح، ومجاهدة النفس إلى أن تنهزم غرائزها! ومن شدة فراره من نار الفتنة سار على حد السيف فعانى كثيراً! كان يرتقي بمعراجه الروحي بقوة، ويعتلي تلة بعد تلة، ويدخل مقاما بعد مقام، حتى إذا بلغ أفق الفتح حاول طرق الباب فلم يجد له أثراً! وقصف البرق جوانحه حتى تمزق لحمه وسال دمه! فأدرك أنه أخطأ الطريق فبكى؛

ثم تدلى مرة أخرى إلى مدارج البداية، يبحث عن باب المعراج!

كانت رياضته الروحية حصاراً لنفسه الأمارة؛ أن تضعف بين يدي فتن أدِرْنَه! وربما كان فيها شيء من الانتقام اللاشعوري من هذا الخراب الروحي الذي لطخ مدينة المجاهدين!

كان سلوكه غير مألوف؛ فلم يكن ينام إلا قليلاً، ولا يأكل إلا قليلاً، ولا يتكلم إلا قليلاً! لم يكن يملك سوى بطانيتين، في ليالي الشتاء القارس كان يفترش إحداهما ويتدثر بأخرى! كانت ليالي أدِرْنَه القارسة تجعل سكانها يشتاقون إلى برد نهارها الشديد! ضاجَعَ الجوعَ لياليَ طوالاً، ولم يكن ينام من الليل إلا ساعتين! وأنى لجسم يتألم بين مخالب البرد، وينكمش على الطوى أن يجد للنوم سبيلاً؟ قاطعَ اللحمَ ولذيذَ الطعام حتى هزل جسمه وشحب وجهه!

وازدادت رياضة فتح الله قسوة على نفسه حتى لقي منها عنتاً! لكنه -رغم ذلك- لم يزل يسير على أشواك مَكارِهِها، فهو رجل لا يعرف للتوقف سبيلاً!

"خَيْرِيَّةْ هَانِمْ" امرأة صالحة، توفي زوجها المتقاعد من الجيش برتبة عقيد. هي وحدها كانت تعرف أحوال فتح الله، وتدرك معاناته المريرة، فكانت تعطف عليه كما تعطف على أبنائها، وتشفق عليه أن تراه يتضور جوعا. كانت سيدة أصيلة الأعراق، رفيعة الآداب والأخلاق. لما أدركت الوضع الذي آل إليه حال الفتى استبدت بها الشفقة، وانشغلت بأمره ورعايته، فجعلت تخدمه كأم حنون! رأت البرد يجمد أضلاعه، فجاءته بفراش وَطَّأَتْ به أرضَ النافذة على الرغم منه! ومن حين لآخر كانت تأتيه بطعام، فلا يجد بدا من تناوله. فقد كان يحترمها ويقدر فضلها.

ومع ذلك استمر الفتى في رياضته الروحية الغريبة حتى صار إلى نوع من الشعور بالاستيحاش من الناس، وخاصة الذين يأكلون كل أصناف الطعام ويلتهمون أنواع اللحوم. كان إذا رآهم تجلت له صورهم بين عينيه وكأنهم وحوش مفترسة!

في يوم من الأيام، بينما كان يغفو بين النوم واليقظة، تجلت له نفسه في صورة قطة! فجعل يطاردها حتى فرت! ثم استمر في الرياضة فتجلت له نفسه مرة أخرى مثل دبّ! فجعل يصارعه حتى انتبه من غفوته، دون أن تنتهي المصارعة بهزيمة أحدهما! وفي مشاهدة ثالثة -بعد زمن آخر من الرياضة- تجلت له نفسه على صورة غُوريلاً عملاق! ففزع منه وفر محتميا بالأسوار العالية!

وضعف جسم السالك المجنون جداً؛ جَرَّاءَ الجوع والبرد والسهر، فتسللت إليه العلل الأدواء، ثم تهاوى بنافذته مريضا ليقضي بعد ذلك مدة نصف شهر بالمستشفى تحت الرعاية الطبية! وهنالك تلقى خبر مرض والده فازدادت حالتُه سُوءاً وتدهوراً! وكانت تلك مناسبة للدخول في منزلة المراجعات!

كانت الأحوال والأطوار الغريبة التي صارت تتقاذفه في رياضته الروحية، صواعقَ من النُّذُرِ الرحمانية، تتنزل عليه بالماء والثلج والبرد لإخماد لهيب روحه المتقد! عسى أن تعتدل خفقة جناحية؛ فتستوي على مسلك المعراج النبوي المفضي إلى باب السماء!

وأدرك فتح الله أن نفسه لَبَّسَتْ عليه! ودلست عليه الباطل في ثياب الحق! فأتته من حيث لا يحتسب، وجعلت تستدرجه إلى الهلاك المبين! حتى إذا دخل برزخا متداخل الأطوار، ما بين حضور وغياب، واستبدت

به الحيرة حتى أشرف على الفقدان لمع برق الشريعة في سمائه فجأة فوجد نفسه تضرب به بعيدا في مسالك التيه!

وأخيرا وجد باب الخروج! واتضحت له معالم مسلكه الجديد، وضوح الشمس في رابعة النهار. مسلك وجد فيه كل ما يريد وزيادة: العصمة من الفتنة، والأمان من الضلال، وسلامة السير، ثم ضمان الوصول إلى الله بإذن الله!

وأدرك فتح الله أن مجاهدة النفس، وتهذيب غرائزها؛ لا بد أن يكون من خلال الانخراط في المجتمع، وخوض غمار الحياة الاجتماعية، ومشاركة الناس همومهم وآلامهم... وأن العزلة الروحية المطلقة مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب! ثم شاهد عيانا أن مجاهدة النفس وترويضها، بالسير في مسلك الدعوة إلى الله، وخدمة الدين ونصره في البأساء والضراء، هو أكبر ضمان لتحقيق توازنها الروحي، وحفظها من الانزلاق إلى منعطفات الهاوية!

العقبة الخامسة: مسلك الدعوة إلى الله!

وبدأ الفتى يخرج من عزلته.. حاول أن يربط علاقات مع المجتمع العام، فوجد نفسه أنه لم يكن قد تعرف إلا على بضعة أفراد من الشباب. فانطلق ذهنه يفكر بقوة في فتح مسلك جديد، وإحداث ثغرة في الجدار الشيطاني الذي بات يحاصر المدينة!

ذات يوم بعد أن سلم من صلاته بالناس، انتصب واقفا، وبدل أن يذهب إلى زاوية نافذته، ذهب مباشرةً إلى المقهى! وهناك بمجالس الشاي، انخرط فتح الله مع الناس مشاركاً إياهم الحديث عن هموم الدين والوطن!

وما هي إلا لحظات حتى أخذ الفتى بزمام الكلام، فاستقطب الاهتمام، والتفّت حوله العيون والآذان! ثم أوقد من لهيب روحه مدافئ تجمع حولها كل الحاضرين! فما تفرق عنه المجلس إلا على شوق للمزيد!

كان يوما ممتعا ومختلفا؛ فقد وجد أن حماسه الديني قد توقد أكثر، وأن رصيده الإيماني قد ارتفع بقلبه عاليا! فتجلت له مدراج المسلك الجديد واضحة المعالم، وعَلِمَ أنه إنما خُلِقَ لهذا الطريق!

ثم بدأت علاقاته الدعوية تؤتي أكلها بإذن ربها، فكان -أول الأمر- إذا أذن المؤذن غادر المقهى إلى المسجد فرداً! وبعد أيام استطاع أن يصطحب معه مُصَلّياً جديداً واحداً! ثم بعد أيام أخرى اصطحب اثنين، فثلاثة وأربعة.. وتوالت كرامات الهدى تتدلى عناقيدها بالمقهى؛ حتى قويت بها جماعة المصلين، وأينعت شجرتها! ثم جعل يحارب العادات السيئة في جلسائه مثل التدخين، وما ولاه، فبادرت كثير من الأفواه المؤمنة إلى التطهر بماء التوبة! ولا ينسى فتح الله مشهد "العم خليل"، كيف انتفض بعد موعظة بليغة؛ فأخرج علبة سجائره ومزقها تمزيقاً، ثم طوّح بفُتاتها بعيداً! فكان ذلك اليوم آخر عهده بهذا السم اللعين!

حدثني راوي الأشجان قال:

كان الدين يوشك أن يمحى في جميع منطقة "تراقيا"! وهي الجهة الأروبية من تركيا. مرة جاء شخص من منطقة "ديار بكر" بأقصى شرق الأناضول، فقال للفتى: "لقد طفت كل مدن تراقيا، فلم أجد فيها من يعيش الدين الإسلامي سوى شخصين: أحدهما هو أنت، والآخر إمام مسجد في مدينة "كرْكلارْألي"! وبعد أيام جاء الإمام المذكور ليتعرف على الفتى، فصارت تلك سبب معرفة وتعاون على الخير. كان من النادر جدا أن تجد

شخصا له عاطفة دينية، فإذا وُجِدَ كان لا بد من قطع مسافة لا تقل عن ساعتين من أجل الوصول إليه! هكذا كانت معالم الدين بالغرب التركي! إلا أن الفتى بدأ يحفر في الصخر فاستطاع أن يستقطب شابا أو شابين من طلاب الثانوية، ثم آخرين -بعد ذلك- من طلاب الجامعة! وصار يعقد معهم حِلَقاً لدراسة اللغة العربية، في بيئة صار تعلم الحرف العربي فيها أو تعليمه أخطر من تجارة المخدرات!

وشيئا فشيئا بدأت علاقات الفتى الداعية تتطور، وتقتحم مختلف دوائر المجتمع.. ثم صار يكتشف سر وجوده في أدِرْنَه وحقيقة الوظيفة الربانية التي ساقه القدر من أجلها إلى هنا! وبدأ فتح الله يحب مدينة أدِرْنَه بل وجد أن روحه قد اتحدت بها، وأن مواجيده قد تعاطفت مع أشجانها، فصار يئن لأنينها ويبكي لبكائها! وإذا بقلبه الشاب يتسع ويَكْبُر؛ حتى أصبح يستوعب بحبه كل أهلها، يعانق صالحيها، ويعطف على ضُلّالِها وجهالها، ويشفق على فساقها وعُصاتها! وصارت أدِرْنَه جزءا من حياته، وركنا من أركان كيانه. حتى إن بعض عاداته وطباعه التي تَخَلَّقَ بها إلى أن صارت من سجاياه الثابتة، ثم صاحبته طيلةَ مسيرته الدعوية والاجتماعية، هي مما اكتسبه من سلوك وأخلاق في مرحلة أدِرْنَه.

فَلأدِرْنَه في قلبه حنينٌ أبدي وشوق سرمدي! حتى إنه كلما عَبَرَ مضيق البوسفور -الفاصل بين القارتين الأروبية والأسيوية في تركيا- وَدَّ لو ارتفع هذا المجرى البحري عن الأرض إلى الأبد، واتحدت تربة أدِرْنَه ببلاد الأناضول! فما أدِرْنَه وسائر المدن التركية بالمنطقة الأروبية سوى جذور لشجرة طيبة امتدت أغصانها عاليا عاليا في السماء، ثم انتشرت أفقيا حتى تدلت عناقيدها في كل مكان من بلاد الأناضول! فإذا بالعناقيد

تتدلى كاللآلئ من تحت قباب إسطنبول، وتتهادى حول مآذن قُونْيا، ثم تمتد الأغصان بفتوة الربيع؛ لتتشابك خمائلُها الخضراء -في شرق البلاد البعيد- ما بين أُورْفَة وبِتْلِيس ووَانْ وتُونْزِسْ! فعلامَ يغضب الفتى العاشق من البوسفور؟ فإنما هو بستان واحد تجري من تحته البحار! ولليمام فيه سياحة العاشقين، وهديل الحب والشجا..! فما زالت أسرابُه تطير بانسياب جميل، ما بين شرقه وغربه، تبيض في أُورْفَة ومَارْدِين، وتغرد كل على شرفات أدِرْنَه!

وصاحبَ فتحُ الله شيوخاً أدركوا العهد القديم، ممن شهد حرب البلقان والحرب العالمية الأولى، وأدرك أواخر الدولة العثمانية! فصار يتلقى عنهم أحزان الماضي وآلامه، ويرسم من دمائها للمستقبل آماله!

وفشا في المدينة خبر الإمام الشاب، واشتهر بخطبه ووعظه، وجمال حديثه، وحسن منطقه. وتطورت علاقاته شيئا فشيئا؛ فبدأت تمتد أغصانها نحو بعض أعيان المدينة، بل نحو بعض رجال الأمن وضباط الجيش! فقد نال إعجاب رئيس شعبة دائرة التجنيد، كان ضابطا طيبا أصله من منطقة البحر الأسود. كان برتبة عقيد، فكان هذا العقيد يحبه كثيراً، ويقول له كلما رآه: "أنت لا يمكن أن تكون من أرضروم، ملامحك تُشبهنا تمامًا، أنت ابن بلدي!"

أما مدير الأمن "رسول بك" فقد كانت صداقته له وثيقة جدًا. كما أنه عقد علاقات طيبة مع بعض القضاة والمدعين العامين! وكان هذا في تلك المرحلة التاريخية من العهد الجمهوري بتركيا من أغرب العجائب! فأن يعقد إمام مسجد علاقات مع "البيروقراطيين"، أو بالأحرى أن يقبل مسؤولون أمنيون، وضباط، وقضاة، التواصلَ مع إمام مسجد شاب،

ويفسحون له في مجالسهم، هو أمر استثنائي! إلى الكرامات هو أقرب منه إلى التأويلات المادية و عالم الأسباب!

قال الراوي:

في هذه الفترة بدأتْ تصدر بعض المنشورات الإسلامية من جرائد ومجلات، وبدأت الروح تنبعث في الحياة الإعلامية الإسلامية. وصار بعضها يصل إلى مدينة أدرنَه مثل جريدة "الشرق الكبير"، كانت تصل منها نسختان، وجريدة "الرجل الحر"، كانت تصل منها خمس وعشرون نسخة، ثم مجلة سبيل الرشاد.

جريدة "الرجل الحر" كانت آنذاك جريدة أسبوعية، وكانت هي الصوت الوحيد للمسلمين في تركيا، بالإضافة إلى المجلتين المذكورتين. فلذلك كان فتح الله يطلب منها أربعين نسخة زائدة فيشتريها جميعها بنقوده ثم يوزعها مجانا! وكان يشتري أحيانا بكل راتبه نسخا من "رسائل النور" وبعض الكتب التي يراها مفيدة، ثم يوزعها مجانا كذلك! حتى إنه ربما استدان من أجل ذلك، أو ربما ظل أياما يصارع الجوع!.. في صباح أحد الأعياد إذ كان يهم بالصعود إلى كرسي الوعظ، شعر بألم في بطنه -وكان يطوي على الجوع منذ أيام- فبحث عن شيء يسكن به ألم معدته أثناء الوعظ على الأقل، فتذكر قنينة عسل فارغة كانت عنده، فاستخرجها وجعل يلعق بإصبعه ما وجده ملتزقا بقعرها! حتى إذا صعد الكرسي وشرع في الدرس جعل العسلُ يُقَلِّبُ بطنَه تقليبا، وصار الفتى يشعر بغثيان شديد، وليس في البطن طعام ترده، فجعلت أمعاؤه تهتز اهتزازا، وتضاعف ألمه من حيث أراد تسكينه، ثم استمر على تلك الحال إلى نهاية الدرس!..

وخلال تلك الأيام، بينما كان يمشي في الشارع على ألم الجوع،

والمطر يتساقط برفق؛ إذا به يرى أمام رجليه خمس ليرات!.. فالتقطها على الفور ثم دخل المسجد، حتى إذا سلم من صلاته هرع إلى المطعم مباشرة فأشبع بطنه! وتصرف فيما بقي منها خلال عدة أيام.. حتى إذا استلم راتبه عزل منه خمس ليرات، وزاد عليها خمس ليرات أخرى، ثم تصدق بالمجموع على فقير! لكنه لا ينسى أن الخمس ليرات التي عثر عليها -وهو يطوي على جوع رهيب- كانت في الحقيقة لُطفًا كبيرًا! لكنه مع ذلك ما ترك عادته قط في توزيع الكتب والمجلات الإسلامية مجانا! فحرقة الدين في قلبه كانت تنسيه حرقة المعدة!

كانت رسائل النور تُبعَثُ إليه من أرضروم، من طرف صديقه الخياط "محمد شركيل"! فلم يكن ساعتَها يعرف في إسطنبول أو أنقرة من يثق به حتى يكلفه بشرائها وإرسالها إليه!

لم يكن مثل هذا العمل في تلك المرحلة العصيبة من تركيا سهلا، بل كان جريمة قد ترمي بصاحبها في غيابات السجون! ولذلك فقد كان إذا أراد إهداء نسخة من كتاب أو جريدة إلى أحد الأشخاص أكرمه بكأس شاي أولا، ثم آنسه بحديث لطيف، ثم بعد ذلك أتحفه بالهدية على حذر من عيون الشياطين! أما جريدة "الشرق الكبير" فلفرط الحصار الشديد المضروب عليها فقد كان يخفيها وسط جريدة "الجمهورية" الرسمية ولا يسلمها لأحد إلا في مكان خال تماما!

وانخرط الفتى بكل وجدانه في معركة الأمة الكبرى، وتقدم إلى الأمام يقاتل مع الطليعة في الخطوط الأمامية! وما كان لفتح الله -إذا جاء- إلا أن يكون طليعةَ النصر المبين! كان طبعه الفوار يأبى عليه أن يكون من المتأخرين! فلم يزل يذكر وهو طالب علم صغير بأرضروم، إذ كان يحفظ

المتون، متمايلا بقوة نحو اليمين ونحو الشمال، وكأنما هو يصارع أحداً! كان يتذكر حجم الانحراف الذي وقع للأمة، والتنكر الرهيب الذي وقع للدين! فتلتهب روحه، وتزداد وتيرة حركته! فيتمنى لو وُضعت الأرض كلها على سبابته، فأدار حوادثها كلها بقوة في الاتجاه الصحيح! ولولا رسائل النور التي عدّلت موازين هيجانه الفوار، وألجمتْ فرسَ عاطفتِهِ الْجَمُوح؛ لكانت روحه قد اقتحمتْ نَارَ هلاكِها منذ زمان!

العقبة السادسة: مضايقات بوليسية!

على الرصيف المقابل لباب المسجد كان رجل يبيع البطيخ الأحمر، ويراقب المصلين واحدا واحدا! وكان يرمي المؤمنين بنظرات يتطاير منها الشرر كأنه شيطان من الجن! ولم تكن تخفى على هذا الشرير حركة فتح الله الساعية ما بين المسجد والمقهى؛ فكان يحصي ذلك كله! وفي فترة ما كانت هناك انتخابات محلية، وكان هناك منع حكومي للدعاية الانتخابية! فرأى هذا الشيطان الإمام الشاب جالسا في المقهى مع شخصين، فدبر له مكيدة لإلقاء القبض عليه! وفعلاً، ما أن عاد الفتى إلى نافذته واستوى بها جالسا حتى سمع فرقعة شديدة وجلبة رهيبة! وفجأة أشعلت مصابيح المسجد، فشاهد الشرطة تقتحم المكان! فنظروا إلى النافذة مباشرة، ولحسن حظه لم يبصروا الكتب والمجلات التي كانت بجانبه لعدم وصول نور المصابيح بقوة إلى داخل النافذة، وإنما بدا لهم شخص الفتى وحده فانقضوا عليه واعتقلوه!

وفي الطريق إلى مركز الأمن جعل أحد الشرطة يشتمه، ويُسمعه ما يكره من الكلام السيء! ولم يكن الفتى ممن يتحمل مثل تلك الإهانات، فكان يرد شتيمة بشتيمة! فجعل الشرطي ينخسه ويزيد في إرهابه فلا يزداد

الفتى إلا صلابة! واشتد عليه حقد الزبانية الذين يقتادونه حتى إذا وصلوا مركز الشرطة صعدوا سُلَّماً تنتهي درجته العليا إلى فراغ، بحيث لو دُفع بها إنسان لهوى إلى الأرض فتحطمت جمجمته! فجاءه شرطي سري ممن ألقوا القبض عليه، كان أعرج، مخيف الوجه، دميم الخلقة، يتلوى في مشيته كأنه ثعبان! فجعل يستفز الفتى مرة أخرى وينخسه! فلم يطق الفتى صبرا فرد عليه بضاعته! فاشتد هيجان الشرطي وانقض عليه، ثم جعل يدفعه نحو هاوية الدرج... فإذا بمدير الأمن "رسول بك" يفاجئهم جميعا، ويصعق على الفور: "قفوا!"

كانت حادثة رهيبة في حياة الفتى لم ينسها أبداً! أشبه ما تكون بحوادث الأفلام! ولولا لطف الله لكان هوى في تلك الحافة الرهيبة! كان "رسول بك" يحب الفتى كثيراً، وما كان في علم هؤلاء الزبانية أنه كان من جلسائه المقربين. لكنه في هذا الموقف الحرج التفت نحوه صائحا بنفس الحدة: "ماذا تصنع أنت هنا؟!" فأجابه الفتى بأدب: "إن هؤلاء ألقوا علي القبض بتهمة الدعاية للانتخابات، وأنا منها بريء!" فرد المدير بحدة أقوى: "هيّا أخرجْ من هنا بسرعة!" وأنقذ مديرُ الأمن صاحبَه وهم لا يشعرون! فخرج الفتى وهو يشاهد الخزي يغشى وجوه الزبانية، وبائع البطيخ يقف خلفهم فاغرا فاه لا يكاد يصدق ما جرى!

أما فتح الله فقد كانت هذه الحادثة هي تجربة الاعتقال الأولى في حياته! ورغم أنها مرت بسلام إلا أنها جعلته يعود حزينا إلى نافذته، فيختلي بها مرة أخرى لعدة أيام! لكن ليس بقصد العزلة هذه المرة، وإنما بقصد التفكير في طريقة جديدة لمصارعة أشباح الظلام، دون أن تسقط من يده شمعة النور!

"يَشَارْ طُونَاكُورْ"، أو "يَشَار هُوجَا":
صَقْرُ الدعوة الإسلامية يحل بأَدِرْنَه!

كان دخول الشيخ "يَشَارْ طُونَاكُور" إلى مدينة أدِرْنَه -مفتيا عاما لمحافظتها- مَدَداً عظيماً للأستاذ محمد فتح الله. فالسيد "يَشَار" كان موظفا برئاسة الشؤون الدينية، لكنه كان رجلاً من طراز مختلف تماما!

كان "يَشَار هُوجَا" رجلا ذا تجربة كبيرة، وصاحب خبرة في مجال الدعوة والتواصل مع الجماهير، ومعرفة عميقة بأحوال الزمان.. كان يتمتع بذكاء رفيع في مجال التواصل مع الناس، بل حتى مع خاصة المسؤولين! كانت شجاعته النادرة مضرب مثل للدعاة والمجاهدين! وقد كانت له مغامرة عجيبة في فتح أبواب الحصار على المساجد، لم تزل مدار مجالس المؤمنين!

قال راوي الأشجان:

أما والد السيد "يَشار طوناكور" فهو الشيخ "أحمد هُوجَا"، كان من كبار العلماء، رحل بأسرته إلى إسطنبول -في العهد الأخير للدولة العثمانية- مهاجراً من مدينة "بِتْلِيس" في أقصى شرق الأناضول! فقرّبه السلطان عبد الحميد الثاني إليه، ووظفه كاتبا في ديوانه! واتخذ من صهريه حارسَين ضمن حراسه الشخصيين! وكلاهما استشهد في انقلاب فاشل على السلطان! وبذلك صارت أسرة يَشَار هُوجا من الطبقة الأرستقراطية في العهد السلطاني الأخير! وبعد إسقاط الخلافة الإسلامية، وسيطرة الجمهوريين على البلاد تغير وضع الأسرة كثيرا! إلا أن الفتى "يَشَار" جاهد هذه المرحلة العصيبة بإيمان مكين وصبر متين! فرغم حظر تدريس القرآن الكريم وعلوم الدين فإن الإمام يشار لم ينقطع عن ذلك البتة! بل بات يلتقي بطلابه سرا تحت جنح الظلام فيلقنهم أمانة الأمة التي خانها

الانقلابيون! وفي أواخر الخمسينات من القرن العشرين صار مفتيا بمدينة "بالي كَثِير" ما بين إسطنبول وبُورْصَا.

قال الراوي: هنالك وقع الانقلاب العسكري الرهيب على الحكومة الديموقراطية، الذي حدث بُعَيْدَ وفاة الإمام النورسي سنة ١٩٦٠م، فكان عاصفةً أخرى في تاريخ تركيا العصيب، حيث تم بموجبه إعدام رئيس الوزراء عَدْنَان مَنْدَرِيس، وبعض وزرائه المخلصين؛ بسبب ما قامت به حكومته من خدمات للدين والوطن، كرد الأذان إلى اللغة العربية، ورفع الحظر عن بعض التصرفات الدينية في المجتمع. هنالك ذُبِحَ أهل الخير في البلاد مرة أخرى وشُرِّدُوا تشريداً!.. ودخلت تركيا في ظلمات جديدة، بعضها فوق بعض! فَفُرِض قانون طوارئ رهيب، تحرسه مناجل الموت، ومُنع التجول، وغُلِّقَ ما بقي من المساجد، وشُرعت فوهات البنادق بين الأزقة والدروب، تقتنص رأس كل من يطل من شرفته أو نافذته! فلا أحد يجرؤ على الاقتراب من ثقب بابه أو شق نافذته إلا مجنون واحد هو "يَشَارْ طُونَاكُورْ"! فقد لبس أجمل ثيابه ثم فتح بابه على مصراعيه وخرج!

كان يومَ جمعة، ولكن لا جمعة ولا جماعة في دولة الخوف، فكل المساجد موصدة الأبواب! فقد كانت فرقةٌ من الجنود تترصد أي حركة على رأس درب الأستاذ "يَشار"، فلما رأوه فتح بابه بهذه الجرأة وجعل يمشي أمامهم بثبات غريب؛ تعجبوا من أمره وتملكتهم الحيرة! فصاروا يتجادلون فيما بينهم ما بين قائل إنه مجنون وقائل إنه رجل مهم من رجال الدولة! ورجحت كفة الظن بأنه من المسؤولين الكبار، والرجل ما يزال يمشي غير مبال بما خلفه من خطر، حتى إذا وصل بيت إمام المسجد طرق بابه فأمره بالخروج! ثم اصطحبه معه وسار به إلى المسجد ففتحاه بقوة

ثم دخلا، وبسرعة أخذ يَشَارُ ميكرفون الأذان فصدح بالتكبير في الفضاء! وما أن سمع الناس الأذان حتى خرجوا إلى المساجد أفواجا، ثم توالت أصداء المآذن هنا وهناك في كل مكان، وارتبك الجنود والعسس! فجعلوا يتساءلون: هل رُفِعَ حظر التجول؟ ومن ذا قدير على إطلاق الرصاص على رؤوس الصوامع الشامخة؟! أو خرق رهبة التكبير بصوت بندقية خرقاء؟! وفشل قانون حظر التجول فعاد الناس إلى الحياة! هنالك قُبِض على الإمام المجاهد "يَشار هُوجَا" فنفي إلى حدود البلقان مفتيا بأدِرْنَه، وخطيباً بمسجد السليمية القديم!

ونظرا لما يتمتع به الرجل من خبرة وحكمة في التواصل مع كل طبقات الناس استطاع في فترة وجيزة أن يعقد صلات متميزة مع البيروقراطيين، بل مع والي المدينة نفسه! وصار له جمهور عريض من المصلين على المستوى الشعبي، كل يوم جمعة يحجون للاستماع إلى خطبته بمسجد السليمية السلطاني، ذي أعظم قبة في مساجد تركيا كلها! وكانت له عادة عجيبة عند خروجه إلى صلاة الجمعة، فقد كان يلبس أحسن ثيابه ثم يتقلد سيفا على جانبه الأيسر مشيراً بذلك إلى أن أدِرْنَه لم تزل ثغراً من ثغور الجهاد على حدود الغرب! وبهذا وذاك أعاد الرجلُ لمؤسسة الشؤون الدينية -بمحافظة أدِرْنَه- حرمتَها واعتبارها، في نظر العامة والخاصة، وأصبح الموظفون بها أكثر حيوية ونشاطا.

كان يشار مجاهدا مخلصا حقا، فما أن تعرف على فتح الله وأحواله بنافذة المسجد حتى أحبه واحتضنه، وصار يدافع عنه لدى المسؤولين الكبار بالمحافظة! فأزال كثيرا من الاتهامات ضده. وكانت له في ذلك طريقة تدل على ذكاء خارق ومباغتة! سأله الوالي مرة -وهو بمجلسه في

مقر الولاية- عن رأيه في إمام مسجد الشرفات الثلاث، وكان هناك رجل يدعى "رَاقِم أفندي" وكان ممن ينقلون الأخبار السيئة والوشايات عن فتح الله، ويحذرون السلطة من خطره! فبادر "يشار" إلى الإجابة بتلقائية: الإمام فتح الله مثال رفيع للفضيلة والأخلاق العالية! ولكن عفوا سيدي الوالي! في الحقيقة لا تسألوني عن هذا الفتى والسيد "رَاقِم أفندي" موجود، هو أكثر مني معرفةً بإخلاص هذا الفتى ونبل خصاله! فَسُقِطَ في يدي الرجل! وهل يستطيع جاسوس وضيعٌ أن يُكَذِّبَ كلام مفتي المحافظة؟ خاصة إذا كان هذا المفتي أسداً مَهِيباً مثل يشار هُوجَا! فاضطُر "راقم أفندي" إلى تفصيل ما أجمله المفتي مدحا وتبجيلا، وقلبه يتمزق غيظا وحنقا! فكان ذلك اليوم نصراً مشهوداً لفتح الله لدى الوالي، ومن ثم انطلق من جديد يعظ ويخطب، ويربط الصلات مع الجماهير!

وتوثقت صلته بالأستاذ يشار، فلم يزل يستشيره في كل ما يهمه؛ فيستفيد من حكمته وخبرته. فمنذ أُعْلِنَ خبر إعدام رئيس الوزراء "عدنان مَنْدَرِيس" وروح فتح الله تلتهب في هيجان متواصل! واستمر هيجانه بضعة أشهر.. لم يتحمل الشاب خبر هذا الظلم الجبار الذي لحق بمندريس وأصحابه، فصار يتألم لهذا الحدث الرهيب صباح مساء حتى جعلت نفسه تحدثه برد فعل ما، ربما كان خروجا عن منهج مدرسة النور الذي اتخذه مسلكاً! لكنه لما أخبر الأستاذَ "يشار" بالأمر مستشيرا إياه، جعل الرجل يهدئ من هيجانه بِحِكْمَتِهِ البليغة حتى جعله يعود إلى هدوئه مقتنعا بكل ما قاله له، غير شاك في صدق طويته وإخلاص نصحه. فالأستاذ يشار لا تنقصه جرأة ولا شجاعة، بل هو إمامٌ في طريق التضحية والفداء؛ ومن ثم كان لنصحه البليغ على الفتى أثر الماء البارد على اللهب!

العقبة السابعة: التلقين الأخير..!

وإذا اشتد البلاء عليه بأدِرْنه، فقد كان من أشد ذلك عليه أن تم توظيفه "رئيسا روحانيا" على المحكوم عليهم بالإعدام! وظيفة جعلته يعيش من المشاهد ما لم يكن يخطر له على بال! فعاش تجربة الإعدام -على المحكومين به- معاينةً وهو لما يبلغ العشرين من عمره! وكان لها من الأثر على وجدانه ما كاد يجعله يقطع صلته بالتراب، ويعيش محلقا في معراجه الروحي إلى الأبد!

ففي السنة الأولى من توظيفه إماما بمسجد الشرفات الثلاث، جاءه رجل وقال له بعبارة جافة: إن القاضي "غني بكْ" يطلبك! وتذكر الفتى أنه التقى بهذا القاضي يوما في أحد المجالس فأهداه بعض الكتب، فتوجس من هذه الدعوة شرّاً، ثم سيطر القلق والاضطراب على خواطره وجعل يتساءل: ما لي وللقاضي؟ حتى إذا مثل بين يديه قال القاضي: "فتح الله! لدينا مجرم محكوم عليه بالإعدام، ونحن في حاجة لرئيس روحاني يلقّنه عند التنفيذ، وقد عيّنّاك لهذا الأمر!"

فتح الله رجل عاطفي وحساس جدا، تكاد كبده تتفجر رحمةً وإشفاقا! لكن مفاجأة القاضي إياه بهذه الصرامة جعلته يقبل الأمر بصورة تكاد تكون لاشعورية، خاصة وأن ما كان يجول بخواطره من توجسات لم يتحقق منه شيء.

في تلك المرحلة كان تنفيذ الإعدام يتم بصورة علنية، في الساحات العمومية ليكون المشهد عبرةً للآخرين!

وقفت سيارة المحكمة بعد العصر بباب المسجد، ونودي على الإمام فخرج وركب مع الموظفين، ثم انطلقت بهم جميعا نحو السجن.

أخبر فتح الله أن الشخص المحكوم عليه بالإعدام مجرم خطير، كان اسمه "راسِمْ ديكْ". فلما دخلوا عليه الزنزانة نظر إليه الفتى فشاهد يديه مغلولتين! كان شخصا قويا ومخيفا؛ ولذلك لم يكن يُؤْمَنُ أن يَهجم على من يقترب منه، كانت لائحة جرائمه كبيرة. وكان من بينها أنه هو وزوجته اقتحما بيت شخص ظنوا به غِنىً وثراءً، فقتلوا الرجل وزوجته، وعندما سمع المجرم نباح الكلب في الحديقة قصم رأسه بفأس! فلما فتشا عن مخازن المال لم يعثرا سوى على ثلاثمائة ليرة! والحقيقة المرة أن الرجل القتيل كان فقيراً! فلم يكن سوى نحاس، يشتغل بصقل الأواني النحاسية لقاء بضعة قروش!

عندما علم المجرم -من خلال الجرائد- أن قرار الحكم عليه بالإعدام، قد صادق عليه مجلس النواب؛ ازْلزل كيانُه واختلط عقلُه فصار يهذي! حاول الإمام الشاب أن يلقنه بعض الدعوات، ولكن دون جدوى، فقد كان يجيب دائما: "أتاتورك سوف يأتي، وسوف نذهب إلى البيت معاً!"

بعد قليل جاء بعض الحراس فألبسوه لباساً أبيض، ثم علقوا في عنقه ورقةً مكتوبة، عليها لائحة جميع الجرائم التي اقترفها، وكلها كانت مفزِعة للغاية!

كانت منصة المشنقة قد نُصبت في الساحة المقابلة لمسجد "الشرفات الثلاث"! جعل فتح الله ينظر إلى الناس الذين عمروا الساحة، فلم ير اهتماما على وجه أحدهم! وإنما كان المشهد عندهم أشبه بسوق أو مهرجان..! إلى درجة أن بعضهم كان يبيع الفستق أو البندق، وآخر يبيع العصير والمشروبات! ولا أثر لمشهد الإعدام على وجه أحد! فالقلوب تكلست منذ زمان قديم! اللهم إلا المؤذن إبراهيم أفندي الذي كان يعلم

القرآن في مسجد "قُوشْجُو دُوغَان"، كان قد بلغ من العمر نحو خمسين سنة، هو وحده رآه فتح الله محزوناً كئيبًا، وكأنه هو المعلق على حبل المشنقة! فقد أفزعه حقا مشاهدة إنسان يموت شنقا إلى درجة أنه بعد تنفيذ الإعدام لم يكن يستطيع المرور بتلك الساحة لعدة أيام!

قام فتح الله بآخر تلقين للرجل لكن دون جدوى!.. ثم صعد به الشرطة فوراً إلى منصة المشنقة! اقترب القاضي "غَنِي بَكْ" من المجرم وقال له: "ما آخِرُ طلبك؟" فأجاب: "سوف يأتي أتاتورك وسوف نذهب إلى البيت سويًا!" ثم تراجع القاضي، وحل محله الجلاد! كان سكرانا حتى الثمالة! وتلك كانت عادتهم في التنفيذ!.. أدار الجلادُ وجهَ المجرم نحو القِبلة، فوضَع الحبلَ في عنقه ثم نفذ فيه الإعدام شنقا؛ فتدلى لسانه قدر شبر!.. واسودت الجثة مباشرة بصورة مخيفة، فاستدارت بسرعة على عكس جهة القبلة! ثم تراجع عنها الجلاد والموظفون، وتركوها معلقة على المنصة حتى ظُهْر اليوم التالي للعبرة! وليس يدري الفتى بعد ذلك كيف ولا أين دفنوها؟ لكن الذي يدريه أن أحدا من السكان لم يكن يعتبر بمشهد رهيب مثل هذا!

أما فتح الله فقد تابع المشهد كله لحظة بلحظة! ومشاهدة عملية الإعدام عبرة وأي عبرة! فقد كان كلما نظر إلى المحكوم نظر إليه كشخص سيموت بعد ساعة! ثم بعد نصف ساعة! ثم بعد ربع ساعة! ثم بعد دقائق! ثم بعد ثوان! ثم يشهده وهو ينقطع نَفَسُهُ إلى الأبد! فمشاهدة هذا الشريط التراجيدي الرهيب معاينةً مختلفة تماما عن تلقيها سماعا أو قراءة في جريدة.. وليس الخبر كالعيان! وبقي الحدث في قلبه بكل أحواله مأتما ليس ينساه أبدا. ولم يغب عنه خلاله فزعُ الإنسان من الموت والموت ملاقيه لا محالة! لا، ولا غاب عنه عجز ابن آدم وضعفه في رد القدر!

كان ينظر إلى حبل المشنقة في عنق الرجل، وهو يشهد بعين وجدانه أن هؤلاء الحاضرين جميعا سوف يأتي يومهم الذي تنقطع فيه أنفاسهم واحداً واحدا!

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ... تعددت الأسباب والموت واحد!

وكم من قاض حَكَمَ بالموت شنقا على عشرات الناس، بالحق أو بالباطل؛ فجاء اليوم الذي عُلقت فيه رقبته هو أيضا على المشنقة! ومات بما حكم به من قبلُ على الخلق مراراً! ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(يوسف:٢١)!

ومما أساء فتحَ الله وآلَمَهُ -بعد هذا الحدث الكئيب- خوفُه أن يشتهر في المدينة بكونه "ملقنا روحيا" للمحكوم عليهم بالإعدام، فتتأثر مجهوداته الدعوية سلباً! ولم يزل قلقُه كذلك إلى أن طُلب مرة أخرى لتلقين محكوم آخر. فكان مما خفف من وطأة تورطه في هذه المهمة الثقيلة، صدور قرار يمنع نصب المشانق أمام الجمهور.

كان اسم الشخص الذي حُكم عليه بالإعدام هذه المرة "محمد".. وكانوا يُطلقون عليه لقب "مَمُو". كان الطبيب الرسمي من مدينة "صُوفيَا" عاصمة بُلغاريا.. كان فتح الله جالسًا في الحديقة الداخلية للمحكمة. وكان يجلس أمامه القاضي، والمدعي العام، ورئيس الشرطة العسكرية.. عندما جاء الطبيب الرسمي قال: "هل أتى القسيس؟".. رغم أنه كان يرى فتح الله بجبة الإمامة! فشعر الإمام بألم شديد كالطعنة في خاصرته، لكنه أسرّها في نفسه ولم يبدها لهم، ثم ذهبوا إلى السجن جميعا.

ونظر فتح الله ببصيرته الوهاجة إلى المتَّهَم.. كان يبدو فتى ذا ناصية طاهرة، وعينين بريئتين، فلم يقتنع الإمام أن هذا الفتى كان قاتلاً!..

عندما رأى المتّهَمُ القاضي ومن معه بدأتْ رِجلاه ترتجفان بشدة، ثم جعل يتهاوى إلى الأرض، وكأنما أُصيب بشلل!.. فأجلسه أحدهم على أريكة.. واقترب منه الإمام فبدأ يقول له: "يا محمد! هذا قَدَرُ الله!.. لقد وافق مجلس النواب على قتلك شنقا! ولا محيص من قَدَرِ الله!.. فأنت ميّت في سبيل الله إن شاء الله!.. يا محمد! اجعل يقينك في الله! ولا تلتفت إلى ما سواه، فجميع الطرق من غير طريقه مسدودة!"

ثم سأله بلطف: هل تريد أن تتوضأ؟"

فأجاب: "نعم!" وشرع المسكين في الوضوء، حتى إذا بلغ غسل رجليه خارت قواه، فما استطاع إتمام الوضوء!..

هذا المشهد الكئيب احترقت له كبد فتح الله! ونُقش في ذاكرته، ثم لم يزل يذكره طيلة حياته!

ومباشرة بدأ يلقنه: "آمنتُ بالله وملائكته وكتبه..." فكان يقرأ منها قليلاً فتغص الكلمات في حلقه، وكأنها تنمحي من ذاكرته بسرعة!.. في هذا الأثناء بدأ يكرر: "أرسلوني إلى المستشفى الرسمي مرة أخرى..!"

وجعل فتح الله يتفكر في هذه اللحظات الرهيبة وفيما يطلبه المحكوم المسكين! كان يسائل نفسه: "وما الفائدة من إرساله إلى المستشفى الرسمي؟ فعلى الأكثر سيُؤجِّل تَنفيذ إعدامه مدة قصيرة! وربما سيعيش أسبوعا أو أسبوعين؟".. هناك أدرك الفتى جيّدًا قيمةَ الحياة! وخسارة تبذير أيامها المعدودة في الضياع!.. كان يعيش تلك المواجيد الروحية بألم يمزق أحشاءه خفية، وكأنه هو المحكوم بالاعدام وليس الفتى الذي أمامه! إلى درجة أنه صار يتخيل وكأنه سيشنق بعد قليل!

وعلى الرغم من مضي سنوات على هذا الحدث الأليم، فقد كان فتح

الله يشعر بتجدد جرحه كلما ذكره!.. كان جناحه العطوف قد انخفض بحنان شديد على المتهم "محمد"! كانوا يقولون بأنه قَتل راعيا! وأثناء الشنق علقوا في عنقه لائحة تحتوي هذا الاتهام فقط! لكن فتح الله لم ير في وجهه سيماء مجرم قط!

الجلاد هذه المرة كان ثَمِلاً إلى درجة أنه ما استطاع الوقوف مستويا على قدميه! فلما اقترب من المحكوم انهار إلى الأرض..! وهنا وثب الطبيب الرسمي إلى المنصة وصار يؤدّي دور الجلاد! أما المحكوم عليه "محمد" فكان ينظر إلى ما حوله نظرات تتلظى بالحزن والأسى!.. فكانت تتمزق لها كبد فتح الله! وكأنما هي رماح تنغرس فيها تترى!..

عندما أدخل الطبيب حلقة الحبل في عنق الفتى، وقصد الكرسي بيده ليدفعه؛ هز الفتى رجليه قليلا وكأنما هو يساعد الطبيب على التنفيذ! فاهتز مرة أو مرتين ومات..! كان طبيبا غريب الأطوار! فقد أتقن فن القتل شنقا بدقة وكأنما هو درس تلقاه في كلية الطب! وضع حبل المشنقة في عنق الضحية بإتقان، وأحكمه عليه بسرعة، ثم دفع الكرسي بركلة واحدة موافقاً لقواعد القتل وأصول الإعدام! فما أغرب أمره! أي طبيب كان؟!

العقبة الثامنة: وسوسةٌ على نار التصفية!

الشخصيات العبقرية تُتعِبُها عقولُها! ورُبَّ عقلٍ أورد صاحبَه المهالك! فالسرعة التي يجري بها الفكر، والقوة التي يطوي بها المسافات الزمانية والمكانية تجعله يقف على حدود اللامعقول.. وهنالك تبدأ محنته ويشتعل عذابه! فالعبقرية تأبى على نفسها التوقف، لكن الخطى تنهار بمحاولة عبور بحر المستحيل! وكل من حاول غرق في غيابات الجنون، أو رده

الموج الغاضب فضربه بقوة على صخر الشاطئ حتى تتحطم أضلاعه! فيتذكر أنما هو قطرة ماء في جرة من طين! وما كان للقطرة أن تستوعب مملكة البحر ولا كنزه الدفين!

الوسواس نقمة وعذاب لعتاة المستكبرين، فلا تزال جماجمهم تتحطم تحت مطارقه حتى يكونوا من الهالكين! وهو للمؤمنين السالكين لطمة من لطمات الرحمة وصعقة علاج من برق النعمة، وهو لقاح لخفقان القلب المحب حتى يستوي سيره على بوصلة محبوبه!

بعد التمكن من علوم التعليم العتيق، تفتق عقل فتح الله على كتب الأدب والفكر والفلسفة، وانطلق في مغامرة جديدة من نوع آخر! ولم يزل يصحب الفلاسفة والأدباء في خلواته، يطوي مراحل التاريخ وطبقات الزمان طيا؛ فيتفرس وجه هذا أو ذاك في ضوء شمعته الصغيرة، منصتا إلى درس عالم أو مناقشا لنظرية فيلسوف حتى صار من مخزونه الفكري ما يضاهي مخزون مكتبة واسعة مزدحمة الرفوف والأركان! ولم تزل رحلته بين مسالك الكتب ترتقي به -عبر منازل المعرفة بالحياة والإنسان والكون- ما جعل أُفُقَهُ المعرفي يتسع إلى درجة بَزَّ فيها كثيراً من المتفلسفين، ورد أباطيل سفسطتهم!

لكن مسلكه الفلسفي لم يكن مُعَبَّداً، بل كان ممتلئا بالأشواك! ولِمَ لا؟! فالمحبوب يغار على حبيبه! وضرب البرق معراجه الروحي فتزلزلت مدارجه! ولم يزل السالك يُثبِّتُ أقدامه شهورا خشيةَ السقوط حتى رشح الغيم برذاذ السلام فسكنت مواجعه!

ما أن أكمل الشاب العابد رواية فلسفية لأحد الكتاب الأتراك -وهو مُختلٍ بنافذته- حتى شعر بقلبه يخفق خارج قفص صدره! كانت الرواية

تتبنى التصور الدارويني للوجود البشري، وكان المؤلف قد صاغها بأسلوب فني خاص بحيث يجعل القارئ يتلقاها جرعة جرعة إلى النهاية، حتى إذا كان في آخر الصفحات وجد خمرتها قد أسكرت قلبه، وأيقظت عليه فتنة وسواسه. ودخل فتح الله في صراع مرير مع الشطيان، لكن هذه المرة ليس عن طريق السلوك الروحي؛ وإنما عن طريق الجدل العقلي والحجاج المنطقي، والسؤال المتسلسل الذي لا يلد إلا سؤالاً!

كان ضغط الداروينية آنئذ في العالم كبيراً! وقد انزلق بتلبيساتها عدد كبير من الشباب والمفكرين، وضلت بهم التيارات الإلحادية فلا يهتدون سبيلا؛ إلى درجة أن بعض علماء الإسلام جعلوا يفكرون في تأصيل تصوراتها في القرآن والسنة! ومن ثمّ فقد عانى الفتى من ذلك الكثير..!

تلك كانت هي الهزة العقلية الأولى، وأما الثانية فقد زلزلته وهو يؤدي واجب الخدمة العسكرية في مدينة "إسْكَنْدَرُون" في الجنوب الشرقي من بلاد الأناضول، قريبا من حدود سوريا. هناك صاحب كتب الفلسفة أيضا زمنا، فورَّثته وسوسة قاتلة، وأسئلة محيرة حول بعض شؤون الربوبية! وفي جميع الأحوال، سواء ما أصابه بخلوته في "أدِرْنَه" أو في "إسْكَنْدَرُون"، فإن أصول إيمانه لم تتزلزل، ولم يزل ثابتا -رغم معاناته- على صلاته وأذكاره ودعواته!

وتفنن الشيطان في تعذيبه، فكان كلما كبر للصلاة أتاه اللعين من كل جهاته، ورماه بالوساوس المتسلسلة، حتى إنه ربما فكر في الخروج من الصلاة طلباً للنجاة من عذاب عقله وآلام روحه. ولقد اشتدت به الفتنة يوما إلى درجة أنه فكر لو صعق نفسه بتيار كهربائي، عساه يقطع صلته بالماضي كله.

لكن فتح الله -مع ذلك- ما يئس ولا فقدَ الأمل. فلم يزل مستغرقا في الدعاء والابتهال إلى الله حتى تجلت عليه الرحمة بنور السكينة، وجمال الطمأنينة فانكشفت الغمة! وخرج الفتى من المعركة منتصراً بإذن الله، ورأى الشيطانَ كيف سقط صريعا على الأرض، وكيف جعل يتمرغ في التراب نادبا هزيمته الشنيعة! وتلقى الشاب بذلك الامتحان لقاحا قويا أكسبه مناعة يقينية لم يزل يتغذى منها العمر كله! عندما حاول الشيطان أن يوقظ وسواسه مرة أخرى وجد جذوره قد احترقت! فضحك فتح الله منه ساخراً، وقال له: "لا تُتعِب نفسك يا ملعون! فتلك أبواب قد أقفلتها إلى الأبد!" وتولى اللعين خائبا مدحوراً!

وكان للنصر العظيم الذي أحرزه فتح الله في هذا الامتحان النفسي العسير، غنائم ثمينة ووفيرة! فبالإضافة إلى ما ربحه من الرسوخ الإيماني على المستوى العقلي، واليقين الشهودي على المستوى الروحي؛ جائزةً من الله ومنةً على ما جاهد وصبر؛ فإنه ربح أيضا معرفة دقيقة بمسالك الفلسفات الإلحادية وتناقضاتها، وخبرة بثغراتها وتلبيساتها؛ حتى إنه صار بعد ذلك من أعرف المفكرين بها، فكانت ثمرة تجاربه تلك عددا من الكتب والدراسات في نقض تُرَّهاتها وأوهامها تحذيراً للأجيال من الانسياق وراء تلبيساتها. وأرسى للشباب قاعدة ثمينة في علاج الوسوسة تشد إلى مثلها الرحال.. قاعدة هي نتاج معرفة علمية وخبرة تجريبية، وهي أن الوسوسة -كلما خطرت خواطرها- وجب أن تقبر في مهدها، ولا تترك لها الفرصة لتعيش وتتناسل، وإلا صارت مرضا ووسواسا قهريا! يجب أن يكتسب المؤمن لقاحا فطريا ضدها، يقوم بوأدها في أعماق نفسه وهي ما تزال مجرد خيال عابر!

وأدرك فتح الله بعد نجاته أن الإيمان -في حقيقته- هبة من الله ومنحة، وأن الإنسان عاجز عن اكتسابه بجهده العقلي والروحي، وأن المؤمن من الناس عاجز عن ضمانه والحفاظ عليه؛ وإنما جعل الله للبشرية أسباب الإيمان الفكرية والروحية مسالك ابتلائية؛ مَنْ طرق أبوابها بإعلان الفقر إلى الله انفتحت له وإلا كان من المحرومين... فتلك نعمة لا يهبها الله إلا لمن أحبه! وشاهد فتح الله عجزه وفقره معاينة، ووجد أن مجاهداته ورياضاته، وجميع ما اكتسب من معارف وعلوم، كل ذلك تبخر ولم يعد يجدي في دفع وسوسته شيئا، وأدرك المعنى العميق لحقيقة: "أنه لا ملجأ من الله إلا إليه"، و"أن القلب الذي لم يثبته الله فلا ثبات له من دونه" ووجد أن نجاته إنما كانت بالدعاء والبكاء تضرعا إلى الله!

العقبة التاسعة: على مسلك العلماء العُزَّابِ!

كما أن الزواج قَدَرٌ فإن العزوبة أيضا قَدَرٌ! ورغم أنه ليس من الواجبات العينية في الدين؛ إلا أنه سنة الله في الخلق أجمعين، وشرعة نبينا محمد سيد المرسلين، عليه أزكى الصلاة والتسليم. وللفقهاء فيه تفصيل وتأصيل. وتَرْكُ الزواج -بقصد الزهد والتعبد- خروجٌ عن فَلَكِ السير النبوي إلى الله، ورهبانية ما أنزل الله بها من سلطان. ورغم ذلك فكثير من علماء الأمة الكبار لم يتزوجوا، حتى اشتهروا بلقب "العلماء العزاب!" والمقاصد لها تأثير في الأحكام. والحقيقة أنما هم "علماء المحنة!" فأغلبهم كان تفضيله للعزوبة راجعا إلى طبيعة الزمان الذي عاشوا فيه، أو إلى طبيعة المهمة التي تحملوها، أو إليهما معا. فقد مضى على الأمة حينٌ من الدهر كانت في حاجة إلى بناء أركان العلوم، فتفرغ لها علماء مخلصون، أسهروا عيونهم في تسويد المجلدات بالليالي الطوال، وأرهقوا أقدامهم سيراً في رحلات

الطلب، وخاطروا بعبور أهوال المفاوز والقفار من أجل جمع تراث الأمة وحفظ ذاكرتها! فلم يزالوا يفنون أعمارهم ما بين جهاد وتصنيف حتى ما بقي للزواج في حياتهم وقت ولا نصيب! وعلى هذا الطريق ارتفعت أعلامُ أئمةٍ كبار من العلماء العزاب، كشيخ المفسرين أبي جعفر الطبري، والإمام الزمخشري، والإمام النووي.

ثم جاءت أزمنة المحن! فدشنها الإمام ابن تيمية -وهو الفقيه الحنبلي الصارم- بالتزام عزوبة قهرية! وأنى له أن يتزوج في ظلمات السجون، أو في متاهات المنافي؟ ولم يكن له في حياته قيد شبر من الوقت لاتخاذ سكنٍ مريح! وكيف يتزوج بديع الزمان النورسي في زمن المشانق والمحارق؟ كيف؟ وقد كان قَدَرُهُ أن يعيش طريدا شريدا بين شواهق الجبال مع الأوابد! وعلى معالم الطريق جاء الأستاذ الشهيد سيد قطب رحمه الله! فأبى أن يتيح للطغاة نقطة ضعف واحدة -وهو الشاعر الحساس!- يطوون فيها ذراعه! فما اتخذ زوجة يهتك عرضَها الزبانية، ولا بنات يخطف براءتَهن الوحوشُ الكواسر! وخرج إليهم وحده حاسر الرأس يقاتل بالكلمة الملتهبة حتى الشهادة!

لكن فتح الله لم يكن يلغي فكرة الزواج من ذهنه مطلقا، إلا أنه لم يشغل بها باله إشغالا! ولذلك لما فاتحه الخال "حسين طوب" في الأمر، تردد ثم قبل على خجل! لكن على أساس أن القضية -كما أخبره خاله- هي أن أسرة من الأسر العريقة بأدرنَه، جمع الله لها بين غنى وصلاح، قد صرح أبوها برغبته في تزويج ابنته منه.

عندما ذهب الرجلان للخطبة كان اليوم يوم عيد.. لكن فتح الله مذ دخل البيت واستوى على أريكة الصالون، وهو يغرق في عرق الخجل!

ولم يزل مطأطئ الرأس، لا يكاد يرفع بصره من الأرض إلى أن خرج! حتى إنه لا يذكر أنه رأى شيئا مما حوله البتة، لا من الناس ولا من الأشياء! لكن الصدمة كانت شديدة جدا عندما علم أن الجواب كان سلبيا! ووقع الاعتذار إليه بأن خبر التزويج كان مجرد خطأ في البلاغ، أو سوء فهم في التلقي من لدن الخال حسين!

وصَرَفَ الفتى عقلَه ووجدانَه عن التفكير في الزواج مطلقاً. لم يكن ذلك رد فعل على الخطبة الفاشلة، ولكنه في الحقيقة كان تفكيرًا جديدًا، لم يزل يتبلور في ذهنه شيئا فشيئا، متفكرًا في طبيعة مسلكه الصعب، وفي ظروف الزمان وأهله؛ حتى قرر الإضراب الكلي عن اتخاذ زوجة، والتفرغ الكامل لخدمة الدين والدعوة الإسلامية. فصار ذلك جوابه الثابت لكل من يعرض عليه فكرة الزواج.

عندما عاد إلى أرضروم بعد تسريحه من الخدمة العسكرية، تحامت عليه الأسرة: أبوه وأمه وعمه "أنور" وأخته الكبرى، كلهم يلحّون عليه بترك حياة العزوبة، والدخول في قفص الزواج! كل منهم جعل يستدلّ له بأدلته على ضرورة الزواج! لكن أحدا منهم لم يستطع إقناعه تغيير موقفه الحاسم! أما والدته فقد قالت له معبرة بالمثل التركي: "يا بني إننا نريد أن نربط رأسك، ونحن ما نزال على قيد الحياة" فأجابها: "يا أماه أنا مربوط القدمين بدعوة الإيمان وخدمة الإسلام، فإذا ربطتم رأسي أيضا فكيف أتحرك؟"

والحقيقة أن أسف الأسرة كان بليغا! فقد كانت محبة فتح الله شجرة خضراء تضرب بجذورها الرطبة في قلوبهم جميعا! وفي الأخير قال له عمه: "تدبر ما تقول يا فتح الله! إننا الآن نلح عليك بالزواج إلحاحا، وأنت في الثانية والعشرين من عمرك، ولعلك ستتلقى إلحاحا مثل هذا

عند بلوغك الثلاثين! لكن كن على يقين يا فتح الله! فإنك لن تتلقى -بعد ذلك- طلبا مثل هذا في حياتك!"

ولقد صدق عمه! فعند بلوغه الثلاثين بالضبط -وكان آنئذ في مدينة إزمير- جاءه الأستاذ "يَشار هُوجَا" يعرض عليه الزواج من فتاة اختارها له بنفسه، فلما اعتذر بأنه لا يفكر في الزواج أصلاً؛ ألح عليه الأستاذ إلحاحاً؛ فوجد نفسه مضطرا لرد طلب أستاذه المحبوب برفق لا يخلو من قوة وصرامة! فقال: "إنني لا أريد أن يرفرف أمام عيني عَلَمٌ سوى عَلَم خدمة الدين الإسلامي والدفاع عن قضاياه!" وأصر على موقفه إصرارا؛ حتى إن الأستاذ "يشار" قال بأسًى شديد: "إذا لم تكن أنت تسمع كلامي فمن سيسمعه إذن؟!" واغرورقت عيناه بالدموع، فبكى الرجلان معاً!

وتذكر الفتى آنئذ قول عمه أنْوَر، وعلم أنها ستكون آخر فرصة للزواج، ففكر في حاله وحال زمانه؛ ثم اختار مرة أخرى مسلك العزوبة! كانت المحن قد اشتدت مرة أخرى ببلاد الأناضول، وفُتِحَتْ فوهات السجون المظلمة؛ لابتلاع طلاب النور وسائر الدعاة إلى الله! فرجح فتح الله ألا يكدر حياة امرأة بزواج لا تكاد تسكن إليه حتى يُختطف منها، وألا يجرع أطفالاً أبرياء ألَمَ التجويع والترويع كلما قرعت الشرطة الأبواب في غسق الليل، أو كسر الجنود رتاجه بأعقاب السلاح! وفتح الله وإن كان أسداً في الوغى فإنه إزاء الأحبة شفوق ودود!

ودخل الرجل امتحان العزوبة فرداً! وإنه بالنسبة لِشابٍّ قوي مثله، كاملِ الرجولة والفحولة، لَامْتِحانٌ عسير! حتى إذا بلغ من عمره الأربعين عَبَرَ خاطرٌ خاطفٌ بخياله، وهو منهمك في تصبين ملابسه -وقد تكاثرت عليه وثقلت- فضاقت بها نفسه: "أوَ لم يكن خيراً لو كنتُ تزوجت؟" فلما

كان اليوم التالي طرق بابه أحد أحبابه في وقت مبكر، فقال له: "أبْشِرْ يا فتح الله! لقد رأيت الرسول ﷺ أمس في المنام في أمرٍ يخصك! لقد أقرأك السلام! وقال: أخبروا فتح الله أنه لو تزوج فسيموت! وإنني -لو يفعل- لن أحضر جنازته!" وما كان فتح الله ممن يعملون بالرؤى في الأمور الشرعية والقضايا المصيرية، لكن هذه الرؤيا وافقت قراره واختياره، وطردت وسواسه، وزادته تشجيعا على متابعة الطريق!

ولقد تبين -فيما بعد- أنه فعلا لو تزوج لَمات... فحياته ارتبطت بدعوة عظيمة، واندمجت في خدمة جليلة... فعلى كاهله بنى الشباب المؤمن بكل بلاد الأناضول مدارسهم ومساجدهم... وعلى تلال قلبه الزمردية أنشؤوا خلواتهم ومخيّماتهم... فصار أبا لكل أطفالهم ونسائهم... ولو كان تزوج فعلا لتحطم كل شيء... ولو تحطم من دعوته شُرْفَةٌ واحدةٌ لانهار ومَات!

• • •

تلك عقبات السير التسع، التي اجتازها فتح الله بمدينة أدِرْنَه، فخرج من نارها سالماً بإذن الله! ولذلك لم تكن هذه المدينة المبتلاة في حياة الفتى سوى مدرسة إعدادية، أهّلَته روحيا للدخول في عواصف النار والدخان، والصبر على ضناها وبلواها. لقد كان فتح الله -وهو في أول شبابه- في حاجة إلى هذه الزلازل الروحية والنفسية والبدنية قبل قيادته لمعركة التحرير!

....

عندما كان الفتى يكابد مدارجَ السنة الثالثة بمدينة أدِرْنَه، توصل بقرار التجنيد الإجباري من القيادة العليا للجيش بأنقرة. وهناك بنافذته الأثيرة،

جلس لحظات يتفكر في مسلك غربته المريرة وطريق هجرته الطويل. وما كان أشق عليه من توديع مسجده الأثير "ذي الشرفات الثلاث"، ومفارقة رفاقه بأدِزِنَه، وترك مجالس دعوته، ومعارج روحه!.. ولكن لكل شيء أجل!

لقد أدرك فتح الله أن قرار التجنيد العسكري الذي بين يديه الآن، إنما هو إذْنٌ رباني بدخول تجربة أخرى، واقتحام عقبة بعد عقبات، من أجل إتمام الكلمات، في طريق التأهيل لمقام الإذن الأكبر!

وخرج فتح الله من أدِزِنَه يحمل محفظته الصغيرة، دون أن يكتشف أحدٌ من أهلها سِرَّهُ... خرج منها صندوقاً مكنوناً كما دخلها أول مرة... فأوان البوح لما يئن بعدُ أوانُه..!

وَفَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي؛ لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!

الفصل الخامس

مُكابَداتُ التجنيد الإجباري!

وداع أطياف المحبة

الانخراط في الخدمة العسكرية في زمن التيه معناه الغطس في خابية الفخار إلى قاع نتونتها! لكن فتح الله ليس يخشى أحداً إلا الله.. وإن كان من شيء يقلقه الآن، فهو كيف يحفظ سره في ثكنات الجيش؟ لكن إيمانه العميق سرعان ما كان يهدئ قلبه، ويسكن بحر خواطره.. فما كان الله ليخذل عبداً يحمل سره!

....

وخرج الفتى من غار نافذته فرداً، ثم استأنف السير وحيداً في طريق هجرته الأبدية!..

كان يحمل متاعه القليل بيده، ويسير بخطى ثابتة، في اتجاه محطة القطار، قصد الرحيل إلى أنقرة لتسليم نفسه هناك للخدمة العسكرية الإجبارية. وبينما هو واقف بالمحطة، ينتظر وصول القطار إذا به يرى كوكبة من موظفي الشؤون الدينية بأدِرْنَه، وبعض الأئمة والعلماء، يتقدمهم المفتي العظيم "يَشَارْ طُونَاكُورْ" قد جاؤوا لوداعه! وكان من بينهم الخال "حسين طوب"، و"سليم أرِيجي" الإمام الأول -سابقا- لمسجد الشرفات الثلاث. كان "سليم أرِيجي" إمام الخطبة بالمسجد المذكور، وفتح الله إمام الصلوات الخمس به. وما كان الإمام سليم مرتاحا لوجود الفتى بمسجده، لما يعلمه من قوة علمية لديه وموهبة خطابية متميزة؛ فكان يخشى منافسته أو أن يحتل مكانه؛ ولذلك فإنه ما استجاب قط لطلب الإمام الشاب في إلقاء خطبة بالنيابة عنه، ولا مرة واحدة! لكن الرجل يبدو أنه ندم على

هذه التصرفات، لِمَا شاهد من محبة أهل أَدِزْنَه له، ولِمَا تيقن من إخلاص الفتى للدين، وزهده في الدنيا ومتاعها. فجاء مع الوفد المودع وهو يحمل منديلا كبيرا لف فيه كعكا وأنواعا من الحلويات، فلما عانق الفتى مودعا دسه بين يديه قائلا: "عندما تنتهي من الخدمة العسكرية عد إلى أدزنه لنعمل معاً"! وكان سرور فتح الله ساعتها عظيما بما وجده في صاحبه من ليونة ودودة، وتحبب غير معهود! فقبل هديته المفاجئة، ولم يزل -بعد ذلك- يحتفظ بالمنديل الذي لُفّتْ فيه الحلوى لعدة سنوات!

أما الداعية المفتي "يشار هُوجَا" فعندما عانق الفتى مودعا فإنه لم يتمالك نفسه -على جلالة قدره- حتى أجهش بالبكاء، لأنه كان يعلم أي فتى تفقده اليوم أدِزْنَه! والحقيقة أن الأستاذ "يشار" كان قلبه قد تعلق بحب هذا الفتى الواعد، وكان يرى فيه خليفة له!

وغادر فتح الله أَدِزْنَه بعين باكية وقلب حزين... وما أن تحركت به عربة القطار حتى شعر أنه يفقد أشياء مهمة في حياته... النافذة العزيزة، والمسجد الأثري الأثير، والمقهى الدعوي، ومجالس الطلاب الخفية، وأحبة من العامة والخاصة، كل ذلك يتحول الآن في قلبه إلى مجرد ذكرى، وقد كان قبل لحظات حياة مشهودة يعيشها! فما أقسى طبيعة هذه الحياة الدنيا! ما من متعة فيها إلا وينغصها الفراق!

وفي أنقرة قبل أن يسلم نفسه للعسكرية بحث الفتى عن صديقه الحميم صالح أوزجان. فلما وجده جعل يتردد عليه لمدة خمسة أيام. فكان له مصدر تسلية وإيناس، وهو يتهيأ للدخول إلى عالم غريب وتجربة أخرى من حياته، تختلف جذريا عما نشأ عليه وشب، خاصة في تلك الظروف التاريخية الصعبة!

الأَسِير!

أن تخرُج من جيش محمد الفاتح وتنخرط في مسلك آخر؛ فذلك يعني أن الأرض فقدت توازنها، وانقلبت دورة الزمان، فأشرقت الشمس من مغربها!

وما كان لفارس قادم من زمن النور إلى عصر الظلمات؛ إلا أن يكون فاتحاً أو شهيداً أو أسيراً أو كل ذلك جميعاً!

أما فتح الله فلم يزل بما تلقّى من أسرار النور يسافر في الزمان! ولم يزل مذ تلقّى رسالة بديع الزمان منخرطاً في جيش محمد الفاتح، يرحل كل مساء إلى خيام معسكره، فيدرب الفرسان على خوض البحر هنالك سِرّاً، ويعلمهم كيف يرسمون خرائط الفتح القادم، ثم يعود مع الفجر الصادق، ليصلي بالناس في محرابه! فتح الله يملك خريطة فتح رومية، وغزو بلاد الظلمات وإشبيلية، ولديه خطة لحصار يأجوج ومأجوج!.. هو وحده يعرف كيف تُسْتَلُّ سيوفُ البرق اللاهب من غمد الغيم الغاضب! وكيف تُصَفُّ الخيلُ على ميزان الصف الأول! وكيف تُنَظَّمُ دقاتُ القلب على وَقْعِ سَنَابِكِهَا! وهو وحده يحسن إعداد سرايا الشمس، وإرسال أشعتها إلى كل العالَم!

فتح الله ما يزال يصقل مرايا الروح بدمع الليل الساجي، وينصبها كل صباح في وجه أشبال فقدت ذاكرتَها، وتوهمت أنفسها نعاجاً فيريها صورتَها عياناً ويُذَكِّرُهَا بأن سلالتها من جنس أُسُودِ!

فتح الله طيفٌ من أبدال الدهر، ولكن من يعرف سر صناعته؟ من يشهد أمواج الروح وهي تتدفق على شواطئ صدره؟ من يعرف كيف تشرق الشمس بعينيه، فيرَى ما ليس يُرَى، ثم يرسم للعالم بعضَ مَشَاهِدِهِ؟

فتح الله اليوم فارسٌ منتظم في جيش النور برتبة قائده الأعلى! وكان لفرسان الروح أميراً خيرَ أمير..! لكنه سِيقَ إلى مسلك آخر في وضع أسير..! فبكت كل محاريب تركيا وجميعُ منابرها أسَفاً!

وبَقِيَ فتح الله في الأسر يحمل أشواق الفتح، وآمال النصر القادم، يحتضن أسراره في قلبه فرداً، ولا أحد يعرف ماذا يخفيه ليوم الشدة!

حَيُّ "مَمَاقْ" مصنع الانقلابات العسكرية!

حدثني راوي الأشجان قال:

في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٦١م، انخرط فتح الله في الخدمة العسكرية، وتم تعيينه في إحدى الثكنات الكبرى بحيّ "مَماق" العسكري، في مدينة أنقرة. "مَماقْ" اسم مخيف في التداول العسكري التركي! فهو حَيٌّ كبير يضم عدداً من الثكنات والمدارس العسكرية، وآلاف الضباط والجنود، ومخازن لا تحصى من المعدات الحربية وأنواع الذخائر..! وكان له دور تاريخي حاسم في أغلب الانقلابات العسكرية التي حدثت في تركيا!

"محمد مُوطْلُو" كان رجلا عسكريا برتبة ملازم، وكان من محبي الفتى الإمام. وكان في الوقت نفسه صديقا قديما لـ"يِلْماز بَكْ"، قائد الثكنة التي عين فيها الفتى. فجاء الملازم "محمد مُوطْلُو" وأوصى بالعسكري الشاب إلى القائد "يلماز". ومن ناحية أخرى كان الفتى قد بَلَّغ سَلاماً إلى أحد قواده الآخرين في نفس الكتيبة، حُمِّلَ به من لدن أحد أقربائه في أدِرْنَه، مع علبة من حلوى "عجين اللوز". فكانت تلك الأمور جميعها إشارات

سكينة وأمان، تلقاها فتح الله، وهو يقتحم تجربة التجنيد العسكري في جيش ليس كأي جيش!

ودخل الفتى برنامج التدريب العسكري مع رفاقه الجدد.. وصار يتلقى تقنيات القتال بشتى أنواعه!

ذات يوم ناداه القائد الأعلى للثكنة "يِلْماز بَكْ"، فسأله:

- أنت هو الإمام؟
- فأجاب: نعم!
- فقال: "إن زوجتي مريضة، فهل تستطيع أن تقرأ عليها شيئا ترقيها به؟"
- فقال الإمام على الفور: "عفوا سيدي! أنا لا أحسن هذه الأشياء! وإذا كنتم تعتقدون أن القراءة عليها تفيدها، فقراءتكم أنتم عليها تكون أفيد!"

وأُعجب القائد بجوابه الحكيم، وازداد بذلك تقديراً له. ثم اكتشف الفتى بعد ذلك أن "يِلْماز بَكْ" إنما كان يمتحنه! ومن ثَمَّ جعلوه مسؤولا على راديو اللاسلكي! فمكث في الثكنة أربعة أشهر إضافية لاستكمال التدريب على الآلات.

وعلى الرغم من كل هذه العنايات فقد قاسى فتح الله بثكنة أنقرة كثيراً! فعلى المستوى الروحي صار له شعور بأنه لا يؤدي خدمة عسكرية بالمعنى الحقيقي للكلمة! ومن هنا صار له اعتقاد بأن طعام الجيش لا يحل له، بل حتى الملابس العسكرية -التي تُعطَى للجنود مجّاناً- لم يلبسها، وإنما اشترى بدلا منها ملابس عسكرية أخرى، من أحد العسكريين المستغنين عنها!

كان ثلج أنقرة تلك السنة كثيراً جدًّا، وعلى بياضه كان الفتى يتلقى تدريبه. وكان يُكلَّفُ بالحراسة في ثغور الثكنة خلف الأسلاك الشائكة، وُقوفا في العراء فوق ركام الثلوج. وربما طال دوره في الحراسة بصورة

رهيبة، حتى إنه ربما استغرق ثماني ساعات على التوالي، وهو واقف تحت وابل الثلج وقصف الزمهرير. وكان ذلك كله خلال شهر رمضان. ورجل مثل فتح الله ما كان ليترك صومه ولا صلاته أبداً رغم أنه لم يكن يجد فرصة للإفطار أو السحور. وإنما كان يضع في جيبه قطعة بيسكويت، فتكون هي إفطاره أو سحوره. وربما صادف المغرب وقت اجتماع، فيراقب الفتى قائدَه لحظات؛حتى إذا صرف وجهه إلى غير جهته رمى قطعة صغيرة في فمه.

أما غرف النوم فلم تكن بها أسرة، وإنما كان يُعطى كل جندي بطانية واحدة، يفترشون طَرَفَها ويتدثرون بطرفها الثاني. وكان أغلبهم ينام بحذائه، لأنها الوسيلة الوحيدة لحماية قدميه من التجمد!

عندما كان الجنود يُساقون إلى الحمام لم يكن فتح الله يستحم معهم، وإنما كان يبلل شعره بالماء موهما المسؤولين أنه قد استحم. ذلك أن أغلب الجنود لم تكن لهم أخلاق التستّر ولا آداب الاستحمام. وعاد الفتى إلى عادته القديمة أيام طلب العلم بأرضروم، فكلما اضطُر للاغتسال دخل المرحاض، وصب الماء البارد على رأسه شيئا فشيئا، فلا يكاد ينتهي حتى يجد رجليه قد التزقتا بالجليد على الأرض!

كانت الحياة في البيئة العسكرية حياةً ملوثة بشتى ضروب الفتن والمحن، فلما استطاع أحد أن ينجو من فسادها وجبروتها.. لكن الله حفظ الفتى وأيده. فمرة كان هناك فحص طبي عام، وكان الجنود يؤمرون بالتعري من أجل الفحص؛ حتى إذا جاء دور فتح الله قال له الطبيب العسكري: "انزع سروالك!" فرد الفتى على الفور: "قائدي! منذ أن عقلت إلى هذه اللحظة ما اطلع أحد على ما فوق ركبتي، حتى أمي التي ولدتني!"

فنظر الطبيب إليه نظرة خاطفة وقال له بسرعة: "امْضِ!" فكانت كرامة عجيبة نجا بها فتح الله مما يكره، ونجا معها من مغبة العصيان العسكري، مع أن تصرفا مثل هذا يُعَدُّ -في العرف العسكري- مخالفة تستحق أقسى العقوبات، خاصة في تلك الظروف العصيبة من تاريخ تركيا!

انقلاب عسكري!

قال الراوي:

ما أن مر نحو شهر -أو يزيد قليلا- على انخراط الفتى في الخدمة العسكرية حتى وجد نفسه يدخل امتحاناً عسيراً وتجربة مهولة. ففي شهر ديسمبر ١٩٦١م حدث تمرد كبير في كل الثكنات والمدارس العسكرية بحي "مَمَاق" في العاصمة أنقرة أو بالأحرى قُلْ: حدث انقلاب عسكري، ومن حيث لا يدري وجد الشاب نفسه أحد الانقلابيين!

كان "طَلْعَت أَيْدِمِير" أحد المشاركين من قبل في انقلاب مايو ١٩٦٠م، ضد حكومة عَدْنَان مَنْدَرِيس، بل كان له دور حاسم في نجاح الانقلاب! فقد كان آنئذ قائد المدرسة الحربية العسكرية البرية. وطلابه هم الذين تدفقوا بأسلحتهم -مع طلاب عسكريين آخرين- إلى شوارع أنقرة، واحتلوا الإذاعة الرسمية، وحظروا التجول حتى أمَّنوا نجاح الانقلاب!

لكن قادة الانقلاب اختلفوا بينهم، فيما يتعلق بمصير الحكم وبيد من يكون؟ فالأغلبية كانت ترى ضرورة تسليم الحكم للزعيم "عصمت إينُونُو" رئيس "حزب الشعب الجمهوري" اليساري، وإعدام الرئيس الديموقراطي عدنان مندريس ورفاقه! بينما رأى الآخرون احتفاظ الجيش

بإدارة الدولة، وتأسيس حكومة عسكرية، ومن بين هؤلاء "طَلْعَت أَيْدَمِير" وآخرون. وكانت الغلبة لأصحاب الرأي الأول ليقضي الله أمراً كان مفعولا! فَسُلِّمَت الدولة لحزب الشعب اليساري، وتم تنفيذ الإعدام البشع في حكومة الديموقراطيين بإحدى الجزر الصغيرة وسط البحر! ثم نُفي الضباط المعارضون إلى الخارج كممثلين عسكريين بالسفارات التركية. لكن القائد "طَلْعَت أَيْدَمِير" عُفي عنه ولم يتم نفيه. ورغم ذلك ظل يكتم غيظه إلى حين. وبعد مرور حوالي سنة على انقلاب ١٩٦٠م قرر الرجل الانقلاب على رفاقه!

والحقيقة أن "طَلْعَت أَيْدَمِير" كان رجلا خطيراً، ذا عقلية مُوسِيلِّينِيَّة مخيفة! والحلقة المقربة منه كانوا مثله تماما ضباطا ديكتاتوريين طغاة! أما حربهم على الدين وأهله فكانت رهيبة شرسة! ولم يعرف بشيء من الليونة منهم غير الضابط "آلْبْ آرْسْلانْ تُرْكَشْ" ذي النزعة القومية، الذي عارض حكم الإعدام بحق رجال الحكومة السابقة؛ فنال جزاءه نفيا إلى سفارة تركيا بـ"نْيُو دَلْهِي"!

والمقارن بين هؤلاء الضباط وبين حكومة "عصمت إينونو" يخرج بنتيجة واحدة، وهي أنه "ليس في القنافذ أملس!"

في سنة ١٩٦١م صار "طَلْعَت أَيْدَمِير" هو المسؤول الأعلى على الحي العسكري كله بحي "مَمَاق". فكل ثكناته وكل مدارسه وكل ضباطه السامين له تابعون. فكان تحت تصرفه نحو خمسة عشر ألف جندي وضابط، فقاد انقلابَه بهؤلاء جميعاً... ووجد فتح الله نفسه -في هذه اللحظة الخطيرة- وسط هذا الحشد العسكري المتمرد!

قبل الانقلاب العسكري بشهر بدأت الفترة التحضيرية؛ فأُعطي الجنود

رصاصا حقيقيا وذخيرة حية، وصاروا يهيَّؤون بصورة غير مباشرة للقتال!..

في الليلة الأخيرة لتنفيذ الانقلاب باتت الثكنة في هيجان كبير، وحالة استنفار قصوى! وخرجت فرق عسكرية مسلحة، فاحتلت مبنى الإذاعة الرسمية ليلاً! وما أن وصل خبر التمرد إلى الضباط الموالين للحكومة حتى تدخلوا بسرعة؛ فحدث صراع شديد بين جيشين! وصار مبنى الإذاعة بينهما كالأرجوحة؛ فتارة يسيطر عليه الانقلابيون فيبثّون خبر الانقلاب وسقوط حكومة عصمت أونونو؛ وتارة أخرى ينتزعه جيش الحكومة، فيذيع خبر فشل المتمردين، وإعلان أن العصاة قد قُضي عليهم تماماً! كانت كتائب أخرى مع الحكومة، كما كانت قاعدة الطيران ضد الانقلاب أيضا! والجنود بثكنات حيّ مَمَاق العسكري لا علم لهم بحقيقة الأمر، وإنما هم ينفذون أوامر قادتهم؛ ظنا منهم أن هذا الانقلاب هو إجماع عسكري! فجعلت الطائرات الحربية تحلق فوق رؤوس الجنود، متنقلة من ثكنة إلى أخرى على هيأة قتالية! فَعَلِمَ القادةُ الميدانيون داخل الثكنات أن قيادة القاعدة الجوية تهدد بتدمير حيّ مَمَاقْ العسكري برمته، ومحو معالم ثكناته من على وجه الأرض! فما كان منهم إلا أن استسلموا بكل جنودهم وقواتهم للجيش الآخر!

وكانت ليلة رهيبة! ما رأى فتح الله مثلها قط في حياته!

وما أن ذَرَّ ضوءُ الصباح حتى دخل ثكنةَ الفتى ضباطٌ كبار، فأمروا بجمع عام، وطلبوا من كل الجنود نزع الجهازي الميكانيكي لأسلحتهم وتسليمه! فنفذوا الأمر على الفور، وما بقي لدى كل واحد منهم سوى أنبوبة حديدية فارغة! ثم أصدر القادة بعد ذلك قرارا بمنع الجنود من أي مهمة أو تدريب خارج الثكنات العسكرية لمدة شهرين! ثم أشغلوهم

بالتعليم العسكري الأساسي والتدريب على التخابر. فصار للجنود بسبب ذلك وقت فراغ طويل. فانتهز فتح الله هذه الفرصة الثمينة ودخل في دورة روحية جديدة. فجعل يختلي بمسجد الثكنة في ليالي الشتاء الطويلة، متفرغا للعبادة والمناجاة؛ حتى شعر بأن عمرانه الروحي قد تجدد تماما!

في أحد الأيام أمر الضباط باجتماع عام مرة أخرى، فلما حضر الجنود قالوا لهم: عندنا لكم اليومَ بشرى! فجعلت أعناق الجنود تشرئب لسماع الخبر السعيد. فلما أخبروا بأن أجهزة أسلحتهم الميكانيكية سترد إليهم صُدِمُوا! فما كان ذلك بالخبر السّارّ لهم! فعلاوة على ما كانوا يعانونه من تنظيفها كل صباح؛ فقد صار السلاح علامة شؤم بأيدي جنود يرون أن مصيرهم معلق بأوامر ضباط الانقلابات!

مهمة جديدة

تنفس الراوي الصعداء، ثم نظر إلى الأفق البعيد فقال:

التقاط الإشارات في العمل العسكري، ليس كل الناس يحسنه.. لكن لفتح الله معه قصة أخرى..! فقد كانت معرفته بقراءة إشارات الروح سبباً في إتقانه لقراءة شفرات الاتصال اللاسلكي في المجال العسكري بما بهر قادته في الميدان وحيرهم! وما أمْرُ شفرة الصوت إلى شفرة النور إلا كقطرة في بحر، أو خطرة في دهر..! وليس غريباً أن يسبق البرقُ رعدَه إلى كشف أسرار السماء! ولكن المبصرين وحدهم يقرؤون إشارات البروق في زمن العقوق!

قال راوي الأشجان:

بعد مضي أربعة أشهر من التدريب العام، عُين الجندي فتح الله في قسم "الاتصالات السريعة" بعد نجاحه في امتحان أُجري على الجنود! ومن ثَمّ دخل في تدريب آخر لمدة أربعة أشهر جديدة. فتعلم الضرب على الآلة الكاتبة بعشرة أصابع. كما تدرب على "لغة مُورْس" الإشارية، والنقر على آلتها الصوتية، فسجل فيها تقدما كبيراً إلى درجة المهارة! حتى إنه كان أسرع من الجنود الذين كانوا يمتهنون استعمالها -خلال وظائف التلغراف والبريد السريع- قبل انخراطهم العسكري! فرغم أنه لم يكن يحسن النقر بأصابعه على الآلة مثلهم؛ إلا أنه كان أسرعهم التقاطا للشفرات؛ فيسبقهم في ترجمة رموزها إلى اللغة الطبيعية. ذلك أنه وإن كان بطيء الإرسال نسبيا بسبب ثقل حركة رسغه وأصابعه؛ فإنه كان سريع التلقي للرموز الصوتية، فلا يضيع منه شيء البتة! وذلك بسبب حيويته الذهنية العالية، وقوة ذاكرته الصوتية؛ بما جعله يترجم معاني الشفرات بدقة متناهية، دون خلل أو كلل، إلى درجة أنه كان يكتب خمسمائة حرف خلال ثلاث دقائق! ولِمَ لا؟ فقد كان فتح الله قبل ذلك قوي الالتقاط لإشارات الغيب، سريع القراءة لشفرات الروح؛ فكيف يتأخر بعدها في قراءة نقرات صوتية، تُلقى إليه من العالم المحسوس؟

صحيح أن مهمة الإرسال الشفري أمر أساسي وخطير؛ لكن مهمة التلقي والترجمة السريعة للشفرات الصوتية أخطر! لأن ضياع صوت واحد معناه ضياع خبر بأكمله، أو تحريف حقيقته وعكس معناه! وهو أمر في المنطق العسكري قد يؤدي إلى كارثة! والجندي فتح الله قد حقق في الالتقاط والترجمة الفورية مهارة غير مسبوقة! ومن ثم قرر قادته الاحتفاظ به في قسم الاتصال السريع، حتى نهاية مدة تدريبه الثانية!

ذكرياتٌ أليمة..!

لاحظ الراوي تباشير السرور ترتسم على وجهي؛ فبادر إلى القول بنبرة حزينة:

ورغم هذا وذاك فقد حفَرَتْ أيامُ الجندية بأنقرة ذكرياتٍ بئيسةً في ذاكرة الفتى! فخلال ثمانية أشهر قضاها بثكنات حي مماق الرهيب ذاق فتح الله شتى أنواع الأذى والإهانات! فكم مرة تعرض للضرب المبرح بسبب انفلاته ليتوضأ في بضع دقائق، وحيث كانت أغلب الاجتماعات العسكرية متداخلة مع مواقيت الصلاة. وما كان يصلي الصلوات الخمس في الثكنة سوى شخصين اثنين فقط: فتح الله، وشاب آخر من شرق الأناضول! كان فتح الله يتسلل إلى قاعة الصلاة فيسابق الاجتماع بأداء صلاته، حتى إذا تأخر بدقيقة أو دقيقتين ضربوه على يديه حتى تكادان تنفجران دما وأسمعوه من الشتائم وسب دينه وسائر المقدسات الإسلامية ما تقشعر له الأبدان! ومع ذلك فلم يكن له من حيلة إلا الصبر والاحتساب!

وهنا اغرورقت مُقْلَتا صاحبي بالدموع فصمتَ.. فما تمالكتُ حتى قلت:

- أوَ قد ضربوا فتح الله؟

قال لي:

- إنما قَدَرُ الأبدال يا صاحبي أن يسيروا على مسلك الأنبياء، يحملون هذه الرسالة فيكابدون ويجاهدون.. وإنما هم بشر فينزل بهم من البلاء ما تقشعر له الأبدان!.. وكم من نبي ضُرِبَ! وكم من نبي قُتِلَ!.. ولو ضُرِبَ فتح الله ألف مرة لكان أهونَ عليه من سب دينه ونبيه!

- ولماذا لم يفر من التجنيد؟

- فتح الله لا يفر!.. ولو فَرَّ لقبضوا عليه؛ ولجددوا عليه مدة الخدمة من بدايتها! ولكن مثله لا يفر، بل هو يدرك جيدا أن هذه بيئة لا بد له من معرفتها معاينةً.. لا بد أن يعيش حياة المستضعفين، ويذوق مرارة الظلم والطغيان ليعرف كيف يرسم مسلك النور للطيور المهاجرة في عالم الظلام!

وكم مرة أصدر الضباط قراراً بمنع الجنود من التمتع بعطلة آخر الأسبوع، فيظلون مسجونين داخل ثكناتهم لعدة أسابيع! لكن الفتى كانت تضيق نفسه، فيشتاق إلى تنفس الحياة الإيمانية الحرة في المجتمع المدني؛ ومن ثَمَّ ربما تسلل مع المتسللين خارج الثكنة لزيارة أخ له في الله، مثل صديقه "صالح أوزجان" أو غيره، أو للصلاة بمسجد المدينة!

وأمسك الراوي نفساً عميقا جدا، ثم أرسله عبر زفير طويل، ثم قال:

في يوم من الأيام كان مع بضعة جنود متدينين يسيرون في الشارع مع إمام المسجد، ففاجأتهم الشرطة العسكرية! فانقض أحدهم على الإمام وضربه بلكمة قوية خر على إثرها على الأرض، وربطوا الجنودَ بالقيود الحديدية بعضهم إلى بعض، ثم ساقوهم إلى مركز الاعتقال! هناك بمركز الشرطة العسكرية وضعوا أمام الجنود المعتقلين قدوراً وأواني قديمة، قد علتها طبقات متراكمة من الأوساخ، فطُلب منهم غسلها! وشرع المساكين في تنفيذ الأمر العقابي! أما فتح الله فنظراً لطبيعته الجدّية في كل شيء، ورغم أن الأمر الموجه إليه كان ضربا من العقاب ليس إلا، غير أنه جعل يغسل الأواني المقدمة إليه بكل تفان وإخلاص، حتى نظفها تماما، مما لفت انتباه الشاويش المسؤول، فعمل على إطلاق سراحه. وشطبوا على اسمه

من لائحة المعتقلين، بينما أرسل اسم كل جندي إلى كتيبته الخاصة لتتم عقوبته هناك... ونجا فتح الله من إهانات أخرى ربما كانت أقسى وأشد!

تلك كانت هي حياة الجندية بأنقرة، ذكريات من المآسي والأحزان!

الرحيل إلى إسكندرون

الهجرة هي قَدَرُ فتح الله الأبدي.. ولذلك فما كان لهذا القدر أن يفارقه حتى في خدمته العسكرية. فالهجرة هي مسلكه، والهجرة هي خلوته وجلوته، وهي طريقه نحو المستقبل البعيد.. كان فتح الله يرى أسراب الطيور المهاجرة متجمهرة على أبراج المدائن وحصونها، تنتظر منه إشارة لتحديد الاتجاه كي تنشر أجنحتها في الريح، وتنطلق إلى أرض الظلمات، تحمل في مناقرها الصغيرة بذور النور..!

بعد نهاية ثمانية أشهر من التدريب الشاق رشح الجندي فتح الله للتعيين خارج أنقرة. وكانت التعيينات تتم عادة بالقرعة! فأخذ الفتى سهما فطلع اسم مدينة أرضروم! فبادره الضابط قائلا: "كلا يا إمام! أنت من أرضروم وما ينبغي أن تكون خدمتك العسكرية بها! فخذ سهما آخر!" وأخذ الفتى سهما جديدا فأعطاه للضابط فإذا هي أرضروم مرة أخرى! فأبطلوها من جديد! ثم أخذ سهما ثالثا فإذا هي "دِيارْ بَكْر"! فقال الضابط: "كلا! لا نظلمك، فخذ سهما رابعا!".. كانت "دِيارْ بَكْر" مدينة تقع في أقاصي شرق بلاد الأناضول، ذات طبيعة جبلية قاسية، إضافة إلى أنها موطن للاقتتال من حين لآخر بسبب التعدد العرقي لسكانها ما بين عرب وتركمان وأكراد! وكانت ظروفها المعيشية آنذاك صعبة جدا، ولذلك

كان الموظفون عموما يعتبرونها كمنفى! فلما سلَّم فتح الله السهم الرابع للضابط وقع على مدينة "إِسْكَنْدَرُون"، فصفق الضباط مهنئين! ثم قال له أحدهم: "ما أسعدك يا فتى!".. ذلك أن إِسْكَنْدَرُون مدينة على شاطئ البحر الأبيض، في الوسط الجنوبي من بلاد الأناضول، تمتد على حدود سوريا، تهب عليها رياح حارة تارة، ورياح رطبة عليلة تارة أخرى، ذات طبيعة جميلة، تمتاز ببساتينها ومياهها الغزيرة، وآثارها التاريخية الضاربة في القدم، بعضها من عهد الرومان وبعضها من العصر العباسي؛ ومن ثم كانت مقصدا للسياح من كل العالم. لكن تهنئة الضابط للفتى إنما كانت بسبب تفتح المدينة الهاتك لحجاب الحياء، ككثير من المدن السياحية في العالم! وذلك هو ما أحزن الإمام، فانصرف كاسف القلب جريح الروح!

ودخل فتح الله المدينة بعد رحلة طويلة جدا، فسلم نفسه لثكنتها العسكرية، وفي ذهنه مخاوف من مواجهة ابتلاءات يُوسُفِيَّة مرة أخرى، على غرار فتن مدينة أَدِرْنَه. لكنه ما أن خالط بعض الجنود بالثكنة حتى علم أن سكان الحي المجاور للثكنة هم أهل دين وصلاح في الغالب؛ فانقلب حزنه فرحا، وتحولت مخاوفه سكينة وطمأنينة أملاً في وجود صالحين يشاركونه مواجيده الروحية. ثم كانت السعادة أتم وأكمل عندما اكتشف أن الوضع العسكري بهذه المدينة يختلف كثيراً عنه في أنقرة، فهو ههنا إلى المعاملة الطيبة أقرب!

خلال الشهرين الأولين عومل من طرف الضباط كأي جندي عاد، يكلف بالحراسة وبسائر الأعمال العادية، رغم أنه عين بثكنة إسكندرون بدرجة "شاويش" يتحكم في عشرة جنود لكنه لما أسندت إليه تلك المهمة -فيما بعد- فشل فيها فشلا ذريعاً بسبب أن أسلوب التحكم العسكري

مبني على ثقافة السب والشتم؛ بينما هو لم يعرف إلى تلك اللغة سبيلاً.. وإنما كانت طريقته مبنية على توجيه الضمائر، وتربية القلوب، والعسكر لم يتربوا على هذا المنهاج إطلاقا! وإخضاعهم إلى سلطان الروح يتطلب صحبة طويلة، تستغرق أشهراً كثيرة أو ربما سنوات!.. ولذلك لم يستطع فتح الله أن يجعل الجنديَ التابع له منضبطا انضباطا عسكريا صارما؛ يقف بين يديه مُمْتثِلاً بالتحية العسكرية، إما متلقيا أمره اليومي للتنفيذ، وإما ملقيا تقارير ما توصل إليه من نتائج في عمله! وقد كان أدبه الجم يمنعه من انتهار المخالفين من الجنود بَلْهَ عقوبتهم! فما أن لاحظ قادته ذلك حتى تعجبوا من أمره واستغربوه بسبب ما اعتادوه في الجيش -وخارج الجيش- من حب الإنسان للسلطة والتسلط. فكان ذلك الوضع سببا في مراعاة طبعه من قِبَلِهِمْ، وإظهار الإشفاق عليه نسبيا، وعدم إحراجه كثيراً.

نافذة من نوع آخر

كان فتح الله مولعا بالخلوة، فكلما سنحت له الفرصة اختلى بنفسه، ودخل معراجه الروحي فرداً!.. لم تزل أيام النافذة بأدِرْنَه تغذي وجدانه بوقود الشوق إلى منازل الكشوفات والمشاهدات!.. وما كان يظن أنه سيجد في ثكنات الجيش صومعةً أخرى يتفرغ فيها لتأملاته ورياضته الروحية والفكرية؛ إلا أن المفاجأة العظيمة عنده هذه المرة كانت هي تكليفه بالعمل داخل سيارة عسكرية، وضعت داخل الثكنة كمحطة ثابتة؛ لالتقاط الاتصالات اللاسلكية. فكانت له معها قصة أخرى..

الضابط "عارف" كان هو الرئيس المباشر لفرقة فتح الله، كان برتبة "قائد

شاويش"، وكان يعطف على الفتى كثيراً، ولذلك أقاله من كثير من التكاليف الشاقة والمحرجة. ووظفه في قسم التخابر اللاسلكي، ثم خصص له سيارة عسكرية مجهزة بأحدث أدوات الاتصال. كانت السيارة من السعة بحيث تستوعب -إضافة إلى آلاتها- سريراً. ولذلك اتخذها فتح الله مسكنا خاصا؛ فيها يعمل، وفيها يأكل، وفيها ينام؛ بل استطاع أن يحصل على كانون غازي يسلق عليه البطاطيس ثم يخفيه في مكان آخر، ويشتري الخبز والزيتون من الخارج فيأكله داخل السيارة. لكن الأهم عنده من هذا وذاك جميعا هو أنه استطاع أن يتخذ السيارة صومعة خاصة لخلوته!

ذلك أنه بسبب تكليفه بمهمة الاتصال اللاسلكي أُعفي من الحراسة ومن حضور الاجتماعات. فكانت تلك فرصة أغلى عنده من الذهب، حيث استطاع أن يجدد صلته بخلوته الروحية، ويستأنف علاقته بالكتب والمطالعة؛ وهناك قرأ عدداً كبيراً من الكتب؛ في مختلف التخصصات، من الأدب إلى التاريخ إلى الفلسفة. فكانت تلك فرصته للاطلاع على الفلسفة الغربية بشكل عميق.

مرة عثر أحد الضباط المسؤولين على كتبه مخبأة داخل سيارة الاتصال، فجعل ينظر في عناوينها، فوجد أغلبها في الفلسفة والأدب، فقال له: "أحسنت! هكذا ينبغي للشباب أن ينفتحوا على الثقافة العالمية!" وإنما كان الضابط يخشى أن يكون الفتى الإمام معتكفا على قراءة الكتب الدينية. لكن فتح الله كان أذكى من أن يصحب معه إلى الثكنة كتابا دينيا! فقد كان خبيراً بأن لكل مقام مقالا ولكل خلوة معراجاً!

كانت أجهزة السيارة قوية الالتقاط؛ فكان يلتقط جميع إذاعات العالم، ويتمكن من الاستماع خُفْيَةً إلى أجود التلاوات القرآنية، المبثوثة عبر

إذاعات بعض الدول الإسلامية. وإلى جانب سيارته كانت تقف سيارة عسكرية أخرى لنفس الغرض، ومن حسن حظه أن زميله بها كان جنديا متدينا أيضا. فكان الرجلان يتعاونان على البر والكتمان!

كان فتح الله يعشق القراءة إلى حد الجنون! كان الكتاب هو جامعته العالمية التي تخرج منها.. ولأنه لم يخضع في حياته لتوجيه مدرسي محدود؛ فقد كانت مقروءاته من كل الآفاق.. كان الناس يطالعون الكتب، لكن فتح الله كان يقضمها قضما. ولقد تخرج من مدارج المكتبة إماماً عالماً، ومفكراً، وأديباً، وشاعراً كبيراً.. ولقد ساعدته الخلوات التي أتيحت له في حياته -اختياراً أو جبراً- على السفر البعيد عبر معارج الكتاب، والضرب إلى أزمنة شتى، وحضور مجالس العلماء والفقهاء، وكبار المجددين عبر التاريخ، والإنصات إلى دروس الحكماء، والمتصوفة، والفلاسفة، والمتأدبين، ليالي طويلة! فكان يَرِدُ من كل مشرب ما يناسب طبعه، ويلبي حاجته، ويستجيب لمطالب عصره وزمانه، حتى عاد من خلواته وقد خبر الحياةَ ومسالكها جميعاً، ودخل معتركَ التدافع الحضاري بأسلحة لا قِبَلَ لأطر الجامعات بها، ولا للقيادات الاجتماعية والفكرية، لا ولا لرجال السياسة والإعلام، وبزّ فتحُ الله أصحابَ الشهادات بما تحقق به من مشاهدات!

العسكري الواعظ!

بدأ فتح الله يتعرف -خلال العطل الأسبوعية- على أهالي مدينة إسكَنْدَرُون، ويقترب منهم شيئا فشيئا؛ حتى توثقت صلته ببعضهم، واكتشفوا موهبته الوعظية؛ فطلبوا منه القيام بالوعظ خلال أيام الجُمَع،

بالمسجد المركزي للمدينة على اعتبار أنما هو شخص مدني، لا عسكري. ورغم أنه يعلم أن هذا الأمر من المستحيلات السبع بالنسبة لجندي في الجيش، خاصة في تلك المرحلة التاريخية العصيبة، إلا أنه سرعان ما استجاب لهذا الطلب الذي يغذي مواجيد الروح فيه... فلطالما صار الشوق إلى المساجد وإلى مجالس الوعظ يلتهب بين جوانحه الحرّى، ويسوقه سوقا إلى رياضها العامرة!

وغامر الجنديُّ الإمامُ فوعظ بمسجد إسكندرون عدة مرات متخفيا في زيه المدني!.. ومن ذا قدير على كبح الفرس الجموح إذا تفلت من عقاله؟

ثم غامر فتح الله ثانية فبادر بجرأة عجيبة إلى اتخاذ مسجد للجنود داخل الثكنة العسكرية، إذ عمد إلى ساحة صغيرة هناك، ففرشها بالرمل، ثم زرع حولها بعض الأعشاب على هيئة الحدود أو الجدار، مستعينا ببعض الجنود الصالحين، وكانوا من الندرة بمكان.. ثم صلى فتح الله هناك إماما بستة أشخاص أو سبعة فقط. ثم بدأ العدد يتكاثر حتى بلغ عدد المصلين ثلاثين. بعض الذين لم يصلوا في حياتهم قط بدأوا الصلاة هناك. كانت الفرقة العسكرية تتكون من مائتي جندي، فكان عدد الثلاثين مصليا بالنسبة لتلك الظروف رقما كبيراً جدّاً. كانوا يصلون في الساحة أمام الأنظار، فكان مشهدهم ينبض بالجلال والجمال... ذات جمعة يتيمة صلى بهم فتح الله الفريضةَ في الثكنة، بالقاعة المخصصة للعرض السنمائي، لكن الضباط المعادين للدين وأهله لم يطيقوا ذلك كله؛ فعمدوا إلى الساحة التي اتخذت مسجداً، فغرسوها بالأزهار جميعاً، وحولوها إلى حديقة!

إجازة مفاجئة

لم يستطع الفتى أن يتحمل هزال الطعام الذي حمل نفسه عليه بالثكنة تورعا من طعام الجيش. فمرض للمرة الثانية بسبب سوء التغذية، وبدأ الإرهاق يلاحقه حتى إنه لم يعد قادرا على التماسك واقفا إلا قليلا. وصار كل من يراه يقول له: "إن عينيك قد أصابهما مرض الصفراء!" فلما زار الطبيب العسكري رده بلا علاج، وقال له: "ما بك من شيء!" لكن لم تكد تمضي بضعة أيام حتى اصفر جسمه كله، ومن ثم قصد الطبيب للمرة الثانية، فلما رآه اندهش وقال" "هذا مرض خطير!" فأرسله على التو إلى المستشفى. وهناك قضى عدة أيام تحت المراقبة والعلاج. وبعد مضي ثلاثة أشهر أعطاه الطبيب رخصة استراحة، يقضيها ببيته في أرضروم طلبا للاستراوح من وطأة المرض. فغمره من رَوْح السرور ما أنساه الآلام والأسقام، فقد مضى على تاريخ مغادرته أهله ومدينته نحو أربع سنوات، قضاها ما بين أدرنه والانخراط العسكري. وبشكل مفاجئ وجد فتح الله نفسه يعود إلى أرضروم.

المسيح الصامت!

ولقد حدثني راوي الأشجان حديثاً عجباً! قال لي:

عندما كان القطار يغادر محطة إسكندرون، كان الفتى يعيش في برزخ ما بين أشواق الوصول إلى الأحبة، وما بين أحزان الفراق الطويل، وما أحدثته من مواجع في قلبه، وفي قلوب والديه وإخوته جميعا. فالله وحده كان يعلم بأي ضماد من الآهات والزفرات، كانت والدته تداوي كبدها

المكلوم بفراق ابنها الحبيب، حتى إذا غلبها الحنين فبكت أنكأت جراح الإشفاق لدى جميع أفراد الأسرة الصغيرة!

كان فتح الله هو واسطة العقد في حلقة إخوته، وكان ارتباطهم به -أو قُلْ ارتباطه بهم- كارتباط الروح بالجسد تماماً! ذلك أن العلاقة التي كانت تربط الفتى بإخوته لم تكن مجرد علاقة رحم، يرعونها بالتوقير والتقدير، أو بحقوق وواجبات؛ بل كان بين كل أفراد الأسرة شيء أعمق بكثير.. فالشعور الوجداني كان بينهم جميعا مشتركا عبر منازل القبض والبسط، ومقامات الحزن والاغتراب! كان إخوة الفتى يشكلون برموز أسمائهم، وسيماء أحوالهم، نبضاً واحداً، ونَفَساً واحداً، فما يشعر به هذا يخفق به قلب ذاك! وكأن الشيخ رامز أفندي كان يجعل من أسماء أبنائه مدارج يسلك عبرها إلى الله! فرزقه الله ذرية لا تتغذى إلا من رحيق الروح، ولا تشرب إلا من كوثر المحبة... قُوتُهَا الزهدُ، ولباسُها التقوى... كانت "نور الحياة" هي الأخت الكبرى في الأسرة، ثم "فضيلة"، ثم "فتح الله"، ثم "صبغة الله"، ثم "المسيح"، ثم "فقير الله"، ثم "حسبي"، ثم "صالح"، ثم "فضيلة" -بعد وفاة فضيلة الأولى- ثم "نظام الدين"، ثم "قطب الدين" وهو آخر العنقود!

ولو يغوص المرء في سيمياء هذه الأسماء الروحانية الكريمة، متذوقا لحقائقها، كاشفا لآلامها وآمالها، في زمن كزمانها، لوجد نفسه -من حيث لا يدري- يتدرج بمقامات الأشجان!

توفيت "فضيلة" الأولى في سن مبكر، وتوفي "فقير الله" و"نظام الدين" في طفولتهما. وعاش الباقون ما شاء الله.

عندما كان يموت واحد من الإخوة الصغار، كان الباقون يشعرون وكأن قلوبهم قد غادرت صدورهم! فلا يكادون يشعرون بنبض الحياة من

جديد إلا بعد شهور! ويذكر فتح الله عندما مات أخوه الصغير، كيف كان يأتي قبره -وهو لما يزل في طفولته- ويرفع يديه إلى السماء داعيا: "رب أمتني حتى أرى أخي!"

ويكبر الإخوة من آل كولن فيكبر فيهم هذا الروح العجيب، حتى إذا غادر فتح الله أرضروم، ضاربا في الأرض بعيدا شعر الإخوة بأن الفراق هذه المرة له معنى آخر، فحتى لو جاء مرة أخرى أرضروم، فإن الحقيقة القاسية أن فتح الله خرج ولن يعود أبداً! أما "المسيح" فقد كانت له أحوال أخرى، فبمجرد ما غاب أخوه في معراج السياحة حتى انجذبت روحه بقوة إلى مقام الصمت، ووجد نفسه هو أيضا في سفر دائم، لكن في أحوال روحية تلتهب بألم الفراق، كانت فوق طاقته وقوة وجدانه، حاول أن يعبر عنها بالكلام أو البكاء، لكن ما أن تدفقت حممها على حلقه ولسانه حتى شعر بالاحتراق، فانعقد اللسان وفقد الطفل قدرته على الكلام! كان يسمع ويرى، لكنه لا ينبس ببنت شفة! حال غريبة لم ينفع فيها علاج ولا طبيب! ثم بقي منزويا في خلوة صمته طيلة أربع سنوات! كانت هي مدة غياب فتح الله عن أرضروم، في المرحلة الأولى من سفره الأبدي! ولذلك لم تزل الأسرة كلها تنتظر وصول قميص يوسف... وفعلا، ما أن طرق الفتى باب البيت حتى تكلم المسيح!

• • •

كان منزل الأسرة في أرضروم قد اتخذ بابه على ركن من زقاق مسدود. فبمجرد ما ولجه فتح الله بزيه العسكري حتى جعل الأطفال يهتفون: "جاء العسكر! جاء العسكر!" وطرق الفتى الباب.. فكان الذي يفتحه هو أعز الناس إليه: أمه!.. والدة أشواقه وأحلامه!

لكن رفيعة هانم توقفت مندهشة، وكأنها تهم بالتراجع أو كأنها تهم بإغلاق الباب! لكنها سرعان ما شمت رائحة ولدها الحبيب، واسترجعت صورته الطفولية قبل أربعة أعوام، فصرخت: "أحقًا أنت فتح الله؟ نعم إنك لأنت فتح الله!"

وهبّت عاصفةٌ مطيرةٌ على بساتين المدينة!.. كانت البروق تضرب أكباد الأشجار بوميض لاهب، وكانت الأمطار تسح على الأوراق بوابل شديد من نشيج الفراق! كل الأطيار الآن تبكي وَلَهاً في أعشاشها الصغيرة، وللرعود من حين لآخر قصف رهيب على حصون الصدور! فيا نوارس اخرسي، ويا خمائل اشهدي! فقد ارتمت الأم على ولدها معانقة وهي تجهش ببكاء عميق! وبكى فتح الله لبكاء والدته شفقاً.. ولم يزل يؤمهما ذاك بكاءٌ لا تكاد تجف مآقيه!

كانت فترة ما بين خروجه من البيت -قبل أربع سنوات- إلى لحظة عودته هذه؛ هي فترة فَوَرَانه الفزيولوجي؛ فتغيرت صورة هيأته وكثير من ملامحه، ولذلك لم تتعرف عليه أمه للوهلة الأولى، خاصة وأنه جاء في وقت غير متوقع، وبزيّ عسكري ما اعتادت أن تراه فيه. وكما أن أمه قد وجدت في هيأته تغيراً كبيراً؛ فإنه هو أيضا قد لاحظ نفس الأمر في إخوته جميعاً. وتبادل الفتيان نظرات يملؤها الرهب من عجلة الزمان!

الواعظ والسينما

واستأنف الراوي حكايته الشجية قال:

ثم انخرط فتح الله في الحياة الاجتماعية والدينية لأرضروم بسرعة،

فجعل يتنقل بين مدارسها العتيقة ومساجدها العامرة، يزور شيوخه وأصدقاءه، ويجدد الصلة بطلاب النور، ويسعى ليرتاع بمجالس الذكر هنا وهناك. حتى إذا انتهت الأشهر الثلاثة ذهب إلى الإدارة العسكرية بأرضروم، فلما علم المسؤولون سبب رخصته زادوه شهراً كاملاً. وحل شهر رمضان وسط إجازته، فاستفاد من روحه جمالا بهيجا ما كان ليجده في غربته بإسكندرون قطعاً.

كان شهر الصيام مناسبة ليستأنف فتح الله إلقاء دروس الوعظ بالمساجد. ولم تَخْلُ مواعظه -في تلك المرحلة- من مفاجآت ومغامرات! ففي تلك الأيام المباركة أُخبر الواعظ فتح الله أن فيلما سيعرض بدار السينما، تدور قصته حول حوادث بدء الإسلام، يظهر فيه الصحابة الكرام ممثَّلين، وكذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين. وكان إشهاره قد بدأ قبل العرض بأسبوع، فاشترى الناس تذاكرهم مبكرين! لكن فتح الله انتقد الفيلم بشدة في مواعظه! فقد كان يعلم أن السيناريو لن يهدف -في تلك المرحلة خاصة- إلى خدمة الدين، بل سيهزأ بالعقائد، ويعطي تفسيراً ماديا لحوادث السيرة، وينزع عنها روحانيتها وقدسيتها! ولو كان فيلما إيجابيا حقا لَمَا سُمِحَ له بالتداول داخل دور السينما بتركيا يومئذ! لكن فتح الله كان يقتصر على بيان بعض الحق، فيقول للناس: "الأشياء إنما يُمَثَّلُ لها بمثلها! فكيف لشخص لا يحترم الدين أن يمثل صحابيا جليلا؟! وكيف يمكن لممثِّلة ساقطة، لا دين لها ولا خُلق أن تمثل شخص السيدة عائشة التي هي أم المؤمنين؟".

كانت انتقاداته للفيلم محدودة وهادئة محاولا تثبيط الناس عن مشاهدته، إلا أنه ما أن حل اليوم الذي سيعرض فيه حتى هاجت مشاعره.

وكان موعد موعظته يومئذ بُعَيْدَ العصر. فتفجر قلب الواعظ بحمم من الأسى والأسف ناعيا على الناس تخاذلهم عن منع هذا المنكر البغيض! فصرخ في الناس وهو يجهش بالبكاء: "الويل لكم أيها الناس! ألا ترون أن هؤلاء سيسخرون الليلة بدينكم وبنبيِّكم؟ إنهم يؤذون أرواح سادتنا وأجدادنا الكرام! فكيف تجلسون بين يديّ هكذا مستسلمين؟ أين عزتكم؟ أين إسلامكم؟" وما كان قصده آنئذ تهييج الناس، وإنما كان يريد إيقاظ شعورهم النقدي كي يتدخلوا لدى السلطات المحلية لمنع عرض الفيلم. لكن كلماته كانت على غير وزان قصده، فهاج المصلّون وتدفقوا إلى الشارع يصرخون ويتوعدون! حاول جهده أن يثني الناس عن التصرف بهذه الطريقة، لكن كل محاولاته باءت بالفشل، فقد تدفق السيل بقوة، وأمدَّتْهُ روافد من هنا وهناك! وجعل بعض الناس يشرح لبعض حقيقة الفيلم، ومغزى السيناريو، وشاع الخبر في كل أرضروم! وما هي إلا لحظات حتى حاصر دارَ السينما جمهورٌ غفير..!

حتى "فُؤَادُ الدَّمَوِيّ" كان هناك، لقد كان شخصا دمويا حقا كما وصفوه، لا صلة له بالدين وأهله، وإنما هو شاب متمرد عربيد، ذو بنية رهيبة ومزاج عصبي، لا يفتأ يصارع هذا أو يقاتل ذاك، حتى اشتهر أنه ما ضرب أحدا قط إلا أدماه! ولذلك لقَّبوه بـ"الدَّمَوِيّ"! إلا أنه وإن كان عاجزا عن الالتزام بالدين وحدوده؛ فقد كان يحترم قيمه ويوقر المتدينين!

وهاجم الغاضبون دار السينما، فعطلوا آلة تشغيل الفيلم! كان صاحب السينما خائفا فزعا، فلما وقع بصره على فؤاد الدَّمَوِي يتحرك وسط الناس فرح واستبشر؛ ذلك أنه كان يشرب الخمر عنده هناك من حين لآخر.. اقترب منه الرجل على الفور، ثم جعل يحدثه بصيغة المتألم المشتكي،

فقال له: "يقولون إن هُوجَا فتح الله قد انتقد الفلم، لكن الفلم ما به من بأس، فقد أجازه مفتي المدينة الإمام "ثاقب أفندي". ولم يكد الرجل يتم كلامه حتى انتفض فؤاد الدموي صارخا: "وتقول إن هُوجا فتح الله قد انتقده؟ إذن فهو فيلم شرير قطعاً!" ثم انقضَّ عليه بكلتا يديه، وانهال عليه ضرباً حتى أدماه!

وشهد فتح الله أن سلطان كلمات الله أقوى من سلطان الصورة!

حكاية المسيح الدجال!

قال الراوي:

خلال هذه الفترة من شهر رمضان أعلن الفتى الإمام في المسجد أنه سيلقي درسا حول "الدجال"! كان اسم الدجال ساعتها مقلقا للسلطات. لكن الفتى الواعظ أخر الدرس إلى أواخر أيام رمضان؛ خشية أن يعتقل فيحرم من إلقاء الدروس. فإذا كان لا بد من الاعتقال فليكن آخر رمضان لا أوله.

وعند حلول موعد الدرس الموعود كان المسجد غاصا بالناس. الكل يريد أن يسمع درس الدجال. كان الانتباه شديدا، وكانت الرؤوس مشرئبّة إلى أعلى، تجاه كرسي الوعظ، والعيون كلها متفتحة بقظة، تحدق في وجه الواعظ الشاب!

"وحيدُ الدين بَكْ" كان كعادته في الصف الأمامي.. كان رجلا غريبا ذا أحوال ومواجيد ملتهبة! بمجرد ما يشرع الواعظ في إلقاء كلماته ينخرط هو في بكاء عميق! كان نشيجه يشتد أحيانا حتى يملأ صدى شهيقه فضاء

المسجد! وكان الفتى في درسه يتأثر به جدا، فيزيد حماسه.. فقد كان نشيجه الجارف بالنسبة إليه مدداً معنويا، ومصدر إلهام عظيم! وتكلم الفتى عن الدجال، وكانت المخابرات حاضرة هناك إلى جانب كرسي الوعظ تسجل كل شيء! ولكن لم يحدث ساعتها شيء..

ثم جاء فتح الله لإلقاء الدرس الأخير في خاتمة رمضان، واختار له موضوع الخطبة الأخيرة للنبي ﷺ من حجة الوداع.. ورفع صوته في آخره بكلمات الرسول ﷺ: "ألاَ هَلْ بلغتُ؟ اللهم فاشْهَدْ!" ووجهها إلى الجمهور مرة أخرى، لكن عن نفسه؛ فقام الرجل البَكَّاءُ: وحيد الدين بَكْ، ورفع صوته وسط الجمهور مجيبا: "نُشهد الله تعالى أن قد أدّيتَ ووفيت!" كانت كلماته أصدق وأعمق من أن يطيقها وجدان فتح الله، فأجهش بالبكاء!

وعلم الفتى أن قوات الأمن خارج المسجد تتربص به لاعتقاله.. ولكن تدفُّق الجمهور الغفير من المسجد أربكهم فولوا مدبرين ولو إلى حين!

نشاطٌ جمعوي

فتح الله إمام ليس كأي إمام.. فقد كان زمانه زمان مواجهة شاملة مع أشباح الظلام! وليس في صف النور من الشموع يومئذ إلا القليل، والعصف شديدٌ واحسرتاه! لكن لهيب الروح في وجدان الإمام كان كفيلاً بإشعال فتيل الشوق إلى الشروق في كل مكان! وإن له في يقينه الخارق بالنصر لَسِرًّا تنوء الضلوع به، لكن فتح الله لا يخبر به أحداً!

ومن ثم استغلَّ الفتى إجازته المرضية لغرض آخر، فصار يتردد على مقر جمعية "دار الشعب"، التي كانت تابعة لحزب الشعب الجمهوري

آنذاك، والتي كانت تخدم في الغالب أفكاره العلمانية. لكن عندما كان يتولى إدارة بعضِ فروعها رجالٌ صالحون كانت تقدم أنشطة مفيدة. القائمون على فرع أرضروم وقتها كان أغلبهم متدينين، رغم أن الإلحاد وقتها كان هو الموضة الثقافية للجيل!

مرة دُعي فتح الله إلى مقر جمعية "دار الشعب" لإلقاء كلمة حول الصوفي الكبير جلال الدين الرومي، كان قد تدخل قبله أساتذة جامعيون وشخصيات أخرى كبيرة، وكان هو آخر المتحدّثين.. ربما أخّروه لصغر سنه.. فألقى كلمته ارتجالا كعادته، قرأ خلالها أبياتا من الشعر الفارسي، ثم ترجمها إلى اللغة التركية.. فبهر السامعين! وخالف كل المتدخلين قبله، الذين استغلوا شخصية جلال الدين الرومي لتحريف عقيدة الإسلام! لكن الفتى الإمام رسّخ في أذهان السامعين العقيدة الصحيحة للدين.

وبقيت صورة العالم الشاب فتح الله مطبوعة في أذهان الحاضرين، وخاصة أعضاء جمعية "دار الشعب"؛ ولذلك لما كانت الدورة التالية لانتخاب مجلس إدارة الدار، استدعي الفتى فانتُخب عضوا رسميا بها، فانخرط مع أصحابه في تقديم أنشطة متميزة لإصلاح الشباب، ومحاصرة الفكر الشيوعي.

ومن ثم انتقل مع بعض رفاقه إلى مرحلة جديدة، وذلك بتأسيس ناد لمواجهة الشيوعية. وأعلن الواعظ فتح الله عن فكرة النادي على ملأ كبير من الناس بعد انتهائه من درس الوعظ بالمسجد. لكن بعض رفاقه من جماعة النور قلقوا من هذا التصرف الغريب، وأمروه بالاكتفاء في دعوته بقراءة رسائل النور للنورسي فقط... وكان أحد أقربائه خبيراً في تأسيس النوادي والجمعيات، فجاء يحذره من مخالفة بعض القوانين، وينبهه إلى

ضرورة احترام بعض الشروط القانونية عند التأسيس. ولم يكن الفتى يومها ولا رفاقه على علم بهذه الأمور. ولم يكن بربوع تركيا كلها سوى ناد واحد من هذا النوع. كان هناك في مدينة إزمير، وهي على بعد كبير جدا من مدينة أرضروم. ورغم طول المسافة ومشقة السفر؛ فقد أرسل فتح الله أحد الشباب من رفاقه إلى إزمير للاتصال بأعضاء نادي معارضة الشيوعية هناك، والإتيان بقانونه الأساسي للاستفادة منه في تأسيس ناد مشابه بأرضروم.

وتأسس النادي، ثم شرع في أنشطته، فبدأ يعطي ثماره، وكان من أقوى الوسائل في محاصرة الإلحاد ونشر رسائل النور وسط الشباب! وما هي إلا فترة أدرك بعض طلاب النور الذين عارضوا الفكرة في البداية أهمية هذا النوع من النشاط، فانخرطوا في نادي معارضة الشيوعية!

كانت تلك الأيام في حياة فتح الله -رغم قصرها- أياما مباركة، ومكتنزة جدا بالنشاط المكثف والفعالية العالية. فقد كان ينشر أفكار رسائل النور، ويوزعها في كل مكان.. كان الحماس الشديد يلهب مشاعره؛ فكان لا يترك ناديا إلا اقتحمه بخطابه، ولا مسجدا إلا شحن قبابه بدعوته ودعائه!

العودة إلى إسكندرون

وارتقت مواجيد فتح الله إلى شرفات أعلى.. وتواردت عليه المشاهدات أوضح وأجلى؛ حتى إنه ليكاد يبوح بسره! ولقد ضاق ببِذْلته العسكرية ذرعاً، ووجد من تمرد روحه على حصون الظلام ما لا طاقة له بكبح جماحه! فانطلق يعقر حوافر الشر في دروب المدينة! ولولا بقية سير

لا تزال تنتظره في الطريق لحطم الجحور على رؤوس الأفاعي في كل مكان! ولكن لكشف السر موعداً، ما ينبغي للحكيم مخالفته؛ ولذلك يبكي فتح الله!

قال الراوي:

عندما انتهت فترة الإجازة المرضية، اضطر العسكري الواعظ للعودة إلى ثكنته بمدينة إسكندرون.. وهناك مرة أخرى اشتغل الفتى بالوعظ بحماس بالغ، حتى لكأنه نسي تماما أنه جندي محكوم بقوانين وأعراف شديدة! فكان يعظ كل جمعة بالمسجد المركزي للمدينة. كان المسجد يغص بالجمهور العَطِشِ للدين، في بلد لا يمارس فيه الدين إلا خفية، ولا تنقل كتبه إلا تهريبا! وكان الازدحام يمتد حتى يغمر الشارع المحاذي للمسجد؛ فتتعطل فيه حركة المرور كل جمعة! وكان يلبس جبة الوعظ فوق لباسه العسكري محطِّما بذلك كل أعراف الجندية، والقوانين العسكرية، في بلد فيه للجيش ما فيه من الصولة والسلطان! وكان بعض الضباط المسؤولين في فرقته العسكرية يتعاطفون معه سِرّاً فيحمون ظهره من خلفه. لكن ازدحام الناس حول درسه كان يحرج الضباط المتعاطفين معه أحيانا، كما كانت بعض كلماته الحماسية تضعف قوة حمايتهم، وتربك صمودهم في وجه أعدائه من الضباط الآخرين!

التحقيق

كان أبوه "رامز أفندي" يزوره في إسكندرون من حين لآخر. وصادف في إحدى تلك الزيارات أن كان يوم عيد، فَقَدِمَ فتح الله من الثكنة إلى

المسجد لإلقاء درسه، فوجده قد غص بالجمهور، لكنه لم ير والده في المكان الذي يجلس فيه عادة، ولا وقع بصره على أحد من طلاب النور، فشعر بشيء من القلق.. وبعد أداء صلاة العيد، جاء من يخبره بأن والده قد اعتُقل الليلة الماضية مع مجموعة من طلاب النور!

فانطلق الفتى إلى إدارة المدعي العام على الفور. وهناك علم من بعض الإخوان أن طلاب النور قد اجتمعوا ليلة العيد، في مجلس للذكر ببيت السيد "وحيد الدين بك الإسكندروني" فاقتحمت الشرطة عليهم المكان! كانوا يظنون –حسب استخباراتهم- بأنهم سيجدون فتح الله بينهم فيعتقلونه متلبسا بجريمة تجمع غير مرخص، لكنه بسبب إعداده لوعظ العيد لم يذهب تلك الليلة إلى بيت وحيد الدين. أما والد الفتى فقد غادر بيتَ خالٍ له، كان ضيفا عنده تلك الليلة؛ فخرج غاضبا من تبرج بناته، واحتمى ببيت وحد الدين، حيث سكينة الإيمان تعمر المكان فوقع في الاعتقال!

وهناك من وراء مكتب التحقيق، سمع فتحُ الله المحققَ يستنطق والدَه:

- من أين أتى هذا النور؟

ويجيب الوالد بثبات وقوة:

- من القرآن!

- وأين يوجد في القرآن؟

- ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾!

وبعد لحظات أطلق سراح الوالد، وبينما هما في الطريق التفت إلى ابنه، فعلق على الحادث بنكتته الطريفة وبداهته السريعة، فقال ضاحكاً:

- فررنا من المطر فوقعنا تحت البَرَدِ!.. مشيراً إلى فراره من بيت خاله!

بعد الحادث مكث الوالد بضعة أيام في إسكندرون، ثم عاد إلى أرضروم.

رغم أن السيد فتح الله لم يَتأذَّ لا هو ولا والده في الحادث بشيء ذي بال؛ إلا أنه تألم كثيراً لِمَا حدث لِصَديقَيْه الكبيرين: السيد "وحيد الدين بك"، والسيد "نِهاد قَراقُوم"، حيث تم طردهما نهائيا من الوظيفة الرسمية بسبب علاقتهما بالداعية فتح الله، ومجالس النور عموماً..!

غَضَبٌ لله..!

الغضب لله فضيلة، والغضب لله رجولة.. والغاضب لله لا يندم على غضبه أبداً!

ولذلك لم يزل الفتى الواعظ يذكر إذ زاره والده مرة أخرى في أحد أيام الصيف.. فحاول البحث عن فندق شريف بالمدينة لضيافته فيه، لكن دون جدوى.. فقد كانت الفنادق كلها عبارة عن مجالس للخمر وأوكار للفحشاء والمنكر! ووجد الفتى حرجا شديدًا في استضافة والده بأحد هذه الفنادق النتنة! وفي درس الجمعة الموالية لم يستطع الواعظ إيقاف جموح عواطفه فهاجم الفنادق بقوة، وصرح بما يفيد أن على الناس تحطيم لافتاتها بقوة، وانتقد رجال الأمن متهما إياهم بالتراخي عن محاربة الفساد والتردي الخلقي! وكان بوضعه العسكري هذا مخالفا للقانون وما هو هنا بواعظ رسمي، فكانت مخالفاته مركبة بعضها فوق بعض! وكُتب التقرير

ضده بعد مهاجمة الفنادق وانتقاد الشرطة؛ فَسُقِطَ في أيدي أصدقائه الضباط! فاقترح عليه أحدهم أن يمدح القائد الأعلى للفرقة الثانية من الجيش الوطني "جمال تُرالْ" الذي كان رجلا قوميا. فقيل له: "ليتك قلت كلمات إيجابية في حقه، لعلهم يوظفونها في الدفاع عنك"، فترجوه في ذلك حتى وافق. ثم غالب نفسه في الدرس اللاحق فقال بشكل بارد: "يقولون بأن قائدنا "تُرالْ باشا" رجل قومي.. فماذا سيكون الجيش التركي إذا لم يكن قوميا؟!.. أطال الله عمر الذين يدافعون عن قومهم!".

وفي مساء ذلك اليوم أراد أن يركب السيارة العسكرية فزلَّت قدمه في الفراغ فاصطدم بالسيارة بشدة، وسقط على الأرض؛ فتكسرت أضلاعه، وأغمي عليه! عندما أفاق وجد رأسه متوسداً ركبة الـ"بَاشْ شَاوِيشْ عَارِف"، فقال له الفتى الإمام وهو يتمزق بالألم: "أنتم الذين فعلتم بي هذا، لقد جعلتموني أمدح هؤلاء القوم من على منبر رسول الله ﷺ؛ فلم يرض الله مني ذلك!"

ولبث يعاني شهرين كاملين من آلام الكسور في أضلاعه، ولم يستطع الأطباء في المستشفى فعل شيء، فجاءه معالج شعبي شد أضلاعه بقوة، حتى أغمى عليه!

عندما بدأ يشعر بالتحسن شيئا فشيئا، عقد العزم على استئناف دروس الوعظ من جديد.. لكن الوضع بعد ذلك كان أصعب؛ فالضباط الذين كانوا يحمونه تم تعيينهم إلى مناطق بعيدة، فأصبح ظهر الفتى عارياً! وتَفَلَّتَ الشيطان من عقاله، فانطلق يدوس بحوافره الخشنة حدائق المدينة، ويحطم بخرطومه الخبيث أعشاش العصافير!

الاعتقال العسكري!

من منازل الابتلاء الرباني تجريدُ خُلَّص الدعاة من كل سند سوى سند الله! ولا يبلغ العبد مقام الاختصاص حتى لا يقوم في شيء من أمره إلا بالله! ومَن خسِرَ في الاختبار ضُربت دونه الحُجُبُ والأسوار، وسُلبت منه البصائر والأسرار..!

ولقد حدثني راوي الأشجان ذات شعاع غارب، قال:

في أول جمعة اعتلى فيها فتح الله كرسي الوعظ بعد كسور جوانحه، ألقى درسه بشكل هادئ، وبلغة حكيمة، حرصا منه على أن لا يعطي لمن يريدون اعتقاله فرصة. لكنه كان يعلم أن مجرد إلقاء عسكري لدرس ديني بلا إذن رسمي، سببٌ كافٍ للاعتقال والمحاكمة!

لما خرج الناس من المسجد وجدوا الجنود يطوقون الأبواب، فسمعوا أحد الجنود يصرخ:

- ترقَّبوا الوغد! إذا حاول الفرار أطلقوا عليه النار مباشرة!

لم يتمالك الناس أنفسهم فثاروا، وبدؤوا يرددون الهتافات ضد الجند، وتوتر الوضع جدا! كان فتح الله مايزال داخل المسجد، فلما علم أنه هو المطلوب خرج إليهم، فرأى قائد الشرطة العسكرية واقفا غير بعيد، فأسرع نحوه وأدى له التحية العسكرية واستسلم له! كانت نية بعض الجند أن يُحدثوا فتنة كبرى تصبح وسيلة لاعتقال كثير من المتدينين، لكن استسلام فتح الله بصورة سريعة وذكية أفشل خطتهم وأنهى عملهم، فعادوا من حيث أتوا. وفي اليوم الموالي نشرت الصحف الخبر.

كان القائد رجلا حليما؛ فجعله مع المعتقلين بسبب جرائم عادية لا سياسية؛ فساقه معهم إلى مركز الضباط. هناك رأى قائدُ الشرطة العسكرية،

القائد الأعلى للمركز، فأدى له التحية العسكرية، وقال له: "سيدي! إن الجندي فتح الله لما رآني قدم نحوي فأدى التحية واستسلم!" محاولا بذلك الدفاع عن العسكري الواعظ. لكن القائد الأعلى امتلأ غيظا؛ فجعل يصرخ في وجوههما بضروب السباب والشتائم! وبقي الفتى ليلته تلك في المعتقل العسكري، وفي اليوم التالي أفرج عنه! فقد علم أصدقاؤه الضباط بالأمر فامتدت إليه أياديهم البيضاء من بعيد! ثم التحق العسكري الشاب بفرقته، فما أن رآه قائده المباشر -وكان يحبه جدا- حتى لطمه! وصرخ في وجهه قائلا: "لماذا قمتَ بإلقاء الوعظ وأنت تعلم أنهم يراقبونك؟!" وفي اجتماع للفرقة غاب عنه فتح الله في مهمة ما، قال القائد لمجموعته العسكرية: "لقد لطمت فتح الله كلطمة الوالد لولده! إنني أحبه كثيراً" ثم أجهش بالبكاء!

لكن جهات أخرى أصرّت على محاكمة الجندي الواعظ، فرفعت قضيته إلى المحكمة العسكرية! في ليلة المحاكمة بات قلقا، وفي جوف الليل قام فتوضأ وشرع في الصلاة.. ولم ينس قط -عندما كان مستغرقا في الدعاء- وهج النور الذي غمر المكان فجأة، وأضاء الفضاء بشكل خاطف مرتين، كأنما هو برق ضارب، وما هو ببرق!

محاكمة عسكرية!

ووقف الجندي الشاب بين يدي هيأة المحكمة العسكرية، كان القاضي برتبة رائد، وكان حقودا على الدين وأهله، فابتدأ المحاكمة بالشتائم! وكان فتح الله قد غسل ملابسه فنسي ربط علامة الرتبة على كتفه؛ فاتخذها

القاضي قضية أخرى، وصرخ في وجهه: "يا وغد! أين علامة الرتبة؟ أتظن أن أباك أعطاك إياها! أأنت جندي أم صعلوك؟ اذهب وابسط فراشك في المئذنة!" ثم أمر بسجنه!

كان من بين ضباط فرقته ضابط برتبة نقيب. وكان رجلا سكيراً لا يكاد يصحو، إلى حد أنه وضع يده على راتب الفتى أكثر من مرتين واشترى به الخمر!.. فاستدعته المحكمةُ شاهدا في قضيته! فلما سأله القاضي عنه أجاب قائلا: "تسألني عن فتح الله؟ ذاك هو الرجل الوحيد المستقيم على مستوى الفرقة العسكرية كلها! إنه رجل نادر، لا يمكنكم أن تأتوا بمثله أبداً..!" وسُقِطَ في يد القاضي الظلوم؛ ومع ذلك أمر بسجن المتَّهم، ورفعت الجلسة!

وعلم الناس الخبر، فبدأت التدخلات لصالح الفتى تنطلق من كل مكان.. بعض الأعيان من جمهور المسجد زاروا القائد الأعلى للكتيبة العسكرية هناك، وكان رجلا قوميا، فقالوا له: "سيدنا! إن فتح الله رجل وطني مخلص، وليس مثلما وصفه هؤلاء.. نحن جميعنا من خلاله أحببنا وطننا، وقومنا، وتاريخنا، وعَلَمَنا". وسافر بعضهم من أجله إلى العاصمة أنقرة، والتقى ببعض الضباط الكبار -من معارفه أو أقاربه- في مركز القوات المسلحة، فتدخل لديه من أجل فتح الله.

رائد في الجيش يُحَيّي فتح الله!

"نَجدَتْ بَكْ" طبيب عسكري برتبة رائد.. أبصر في شخص فتح الله ما لم يبصره كثير من الناس.. ولعله أبصر بعض شعاعات سره..! ومن يدري؟ فلعل الروح إذ تصفو مرآتها بمواجيد الإخلاص تنكشف لها

منارات المحبة في قلوب الآخرين..! والأرواح جنود مجندة لِتعارف الأشواق وتآلف الأذواق!

لقد كان الرائد "نَجدَتْ بَكْ" رجلا شجاعاً حقّ شجاع، فرغم قرار منع الزيارة للجندي السجين، تسلق هذا الرجل السور بلباسه العسكري الرسمي، وقفز من فوق الأسلاك الشائكة، فدخل إلى وسط الثكنة التي يوجد بها السجن! فلما رآه الجنود الحراس قدموا له التحية العسكرية، وفتحوا له الباب لزيارة فتح الله، فلما مثل بين يديه عانقه، وقبل أن ينصرف أعطاه عشرين ليرة! وبدأ الحراس يتعجبون، ويتساءلون: "ما بال هذا الجندي الصغير يزوره كبار الضباط؟!" فبدؤوا يخافون منه، ويحتاطون من إيذائه ولو بكلمة!

لكن الضباط الأعداء لم ينسوها للطبيب العسكري، فاستنطقوه بعد ذلك وسألوه: كيف تعانق جنديا عاديا، والعرف أن يقدم هو لك التحية العسكرية احتراما للرتبة؟ فأجابهم بقوة: فتح الله ليس شخصا عاديا، إني لو تمكنت لَقَبَّلْتُ رجله، بَلْهَ أن أعانقه!

وسلم الله الضابط الجسور فلم يصبه أذى..!

دعوةٌ في السجن!

ودخل معه السجنَ فتيان.. أما أحدهما فقد كان يعيش اضطرابا نفسيا شديداً؛ إلى درجة أنه كان يفكر في الانتحار..! وأما الآخر فقد فرَّ من الخدمة العسكرية أكثر من مرة؛ فكان يقبض عليه في كل مرة! وكانت له في ذلك قصة مريرة!

أما الأول فبمجرد ما تعرف عليه الفتى، وأدرك مشكلته النفسية؛ حتى شرع في محاورته وعلاجه، وتذكيره بالله، وتعريفه بجمالِ قضائه وقدره، وبدأت بشائر الأمل تنفتح في أفق الرجل؛ حتى إنه قام وحمل فراشه فجاء به إلى فتح الله فأصر على أن يوطنه له توطيناً! وجلس ينصت إلى وعظه الجميل، ويضمد جراح روحه العميقة، ويستنشق من رَوْح الله أمل الحياة من جديد. وكان من حين لآخر يقول للفتى الواعظ: "يا فتح الله! إنني أرجو أن إذا قدّر الله سراحنا أن تزورني في بلدتي؛ إذن لأكرمنك إكراما ما أكرمته أحداً قبلك!" وكان الفتى يُسَرُّ بهذا الكلام كثيراً؛ لأنه كان يبشره بنجاح مهمته، وأن الرجل قد شفي من اضطرابه النفسي تماما، وعدل عن فكرة الانتحار. وكان يجد راحة في سجنه مع هذا الرجل؛ وكأن الله ما ساقه إلى هناك إلا من أجله وليؤدي هذه الوظيفة النبيلة!

وأما الآخر فقد كانت مشكلته أنه استدعي للخدمة العسكرية العادية التي لا تتعدى مدة سنتين، فإذا به يقضي فيها تسعة عشر عاماً كاملةً! والسبب هو أنه كان قليل الصبر على التعرض للأذى، غير قادر على تحمل إهانة الضباط للجنود؛ فكان يبقى بالوظيفة العسكرية، حتى إذا لم يبق له إلا شهر أو شهران من المدة الإلزامية نفذ صبره وضاقت نفسه؛ ففرّ من الجيش! ثم يلقى عليه القبض؛ فيحكمون عليه بإعادة مدة الخدمة العسكرية من البداية! لكنه إذا سنحت له الفرصة بعد ذلك فر من جديد؛ فيلقى عليه القبض ثانيا فيلزم مرة أخرى بمدة كاملة من جديد! وربما قبضوا عليه قبل أن يصل أهله، فيعودون به إلى سجنه ولما يطفئ لهب الشوق والحنين في قلبه! وهكذا ظل على هذه المعاناة السيزيفية تسعة عشر عاما! في يوم من الأيام جاءته رسالة من ابنته، تقول فيها: "أبتاه! لقد

أصبحتُ عروساً، ولكنك لم تنتهِ من وظيفتك العسكرية بعْدُ..!" ودخل معه فتح الله في حوار، وعلّمه كيف يعيش الإنسان بجمال الأنس بالله ولو كان منفرداً في زنزانة!

السَّرَاحُ الْمُطْلَقُ!

لم تنقطع التدخلات والضغوط لصالح الفتى من الهيئات المدنية والعسكرية على السواء.. إلى أن وصلت برقية من القيادة العسكرية العليا بالعاصمة بإطلاق سراحه، وفيها: "ما دام هذا الشاب قوميا؛ فلماذا تؤذونه إلى هذا الحد؟" فكانت المفاجأة أن أسوأ الضباط في معاملته جاء إليه بنفسه، فأخرجه من السجن، وذهب به إلى مكتب الإدارة، وهناك أخذ الآلة الكاتبة، وجعل يغير بعض العبارات في التقرير المكتوب ضده، ويعوضها بما يبرئه؛ مستعينا بما يمليه بعض الضباط الآخرين! وكان من العبارات التي حذفوها: "محاولة تنفيذ انقلاب! وإثارةُ الشعب ضد الدولة!" وهناك أدرك الفتى درجة الخطر الذي كان محدقا به، حتى إذا استوى التقرير في صيغته الجديدة، قال أحد الضباط: "ليس هناك شيء يدينه الآن، أطلقوا سراحه!" فأحالوه على سجن التأديب لبضعة أيام، بتهمة الإخلال بالانضباط استعدادا لإطلاق سراحه نهائيا. وهناك عثر على ديوان "الصُّفَحات" للشاعر التركي محمد عاكف، واضع النشيد الوطني. فجعل الفتى يقرؤه ويعيده مرات عديدة حتى حان وقت سراحه.

جريدة "الاستقلال الجديد" نشرت الخبر بصيغة إيجابية، تحت عنوان: "حفيد محمد الفاتح: محمد فتح الله!" بينما نشرته الجرائد العلمانية بصورة تحريضية، تنتقد قرار السراح!

لكن المفاجأة الأعظم بالنسبة للفتى هي دخول النقيب "محمود مَازْدِين" عليه، كان هذا الرجل هو القائد الأعلى للكتيبة الثانية الكبرى على صعيد إسكندرون! وفاجأه بقوله: "فتح الله أنت رجل عظيم! لقد كنتُ أحضر دروسك بالمسجد خلسة! والآن سأسرّحك من الخدمة العسكرية مطلقا، رغم أنه بقي في ذمتك منها أكثر من شهر، وأوقّع لك وثيقة التسريح النهائي، ثم أرسلك إلى أهلك!"

شجون الذكريات..

قال الراوي:

عندما تنفس فتح الله صعداء السراح النهائي من الخدمة العسكرية، جعل يتذكر معاناته طوال السنتين الماضيتين، وما أصابه خلالها من أمراض بسبب تقشفه في الطعام، وامتناعه عن الأكل بالمطعم العسكري معتقداً أنه لا يجوز في حقه؛ لأنه لم يكن ملتزما بالخدمة العسكرية كما يتصوّرها، بل الزي العسكري نفسه كان يشتريه من ماله الخاص. ولم يذكر أنه استفاد شيئا من أدوات الثكنة وتجهيزاتها لمصلحته الشخصية، حتى الأوراق والأقلام، كان بين يديه منها الشيء الكثير.. فما امتدت يده إلى ورقة قط لكتابة أموره الشخصية أو حتى الوعظية والدعوية، ولا استعمل قلمًا منها لكتابة كلمة قط، ولا لوضع نقطة!

كانت سنتان أشبه ما تكونان بالكابوس! عاش خلالها رَهَبَ الانقلابات العسكرية! وتلقّى شتى ضروب الإهانات والمحن فثبته الله وصبر. كان سرُّ صبره -بعد الاستعانة بربه في صلواته، وفيما يقرؤه من أدعية وأذكار-

راجعاً إلى أنه كانت له قدرة عجيبة على اقتحام الزمن، وطي سنوات المستقبل بخياله حتى إنه كان يعيش الحدث الآتي قبل أن يأتي؛ كان يسلي نفسه بما يشاهد من نهاية الخدمة العسكرية قبل نهايتها.. وبما يرى من أنها مجرد محنة عابرة.. أو أنها أشبه ما تكون برؤيا مزعجة ستنتهي بمجرد يقظته، وهو لا شك سيستيقظ قريباً، ويعود إلى زمانه ومكانه، في خدمة جيش محمد الفاتح. ولم يزل كذلك يعلل نفسه ويسليها حتى مرّت سنتان وانتهى الكابوس الثقيل!

وتخرّج فتحُ الله من محنته بَطَلاً!

• • •

مكث الفتى بعد التسريح في إسكندرون بضعة أيام، يودع إخوانه ومحبيه. وكان من بين من قصده لوداعه أحد أصدقائه الخُلّص، كان غنيا، وكان يملك شركة نقل كبرى، فلما علم بتخلص الفتى من الجيش عرض عليه مباشرةَ العمل في شركته بصفته مديراً عامّاً! لكن الفتى رفض بدون تردد؛ فما كان يفكر في كسب مادي قط، وما كان يتصور يوما أن يغادر ساحات العمل الدعوي، والمواعظ والمساجد! فمنذ بداية شبابه الأولى كان قد نذر حياته لهذا الأمر، فحتى الخدمة العسكرية القاسية، لم تستطع أن تَحول بينه وبين ذلك الأمر فعانى من ذلك ما عانى!

حتى إذا أدى واجب الوداع لإخوانه قفل راجعا إلى مدينته أرضروم. فأرضروم هي مطاره المفضل للتحليق في سماء الهجرة، ومن هنالك فقط يستطيع تحديد اتجاه الرحيل الجديد..!

عندما حل بمدينته كان رمضان على الأبواب، فقصد مفتي المدينة لطلب الترخيص بممارسة الوعظ بالمساجد خلال الشهر الكريم. لكن

المفتي "ثاقب أفندي" لم ينس طبعا حادثة السينما السنة الماضية؛ فرفض طلبه على الفور! ورجع فتح الله إلى بيته كسير القلب حزينا. وسرعان ما سمع سكّانُ المدينة بالخبر فتجمّعوا أمام مبنى إدارة الشؤون الدينية متظاهرين! ورفعوا ضد المفتي شعارات قاسية، وصاح بعضهم: "الشخص الذي يمنع "فتح الله أفندي" من الوعظ لم تلده أمه بعدُ!" ولم يكن الواعظ الشاب على علم بشيء من ذلك؛ حتى أُخبر بأن المفتي قد غيّر رأيه تحت ضغط المتظاهرين، وسمح له بالوعظ! فوعظ طيلة الشهر الكريم، لكن دون حدوث أي مكروه، إلى أن انتهى شهر السلام بسلام.

أشواق الهجرة تهب من جديد!

قلبُ فتح الله غابة من الأسرار... إذا هبت عليها رياح الشوق، هاجت الأشجار وناحت الأطيار..!

وَفَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ لَيْسَ يَبُوحُ بِهِ!..

فَتْحُ اللهِ لَدَيْهِ سِرٌّ تنتظره الدنيا، لكن لا يخبر به أحداً!..

فَتْحُ اللهِ يحمل في قلبه ما لا طاقة له به؛ ولذلك لم يزل يبكي؛ حتى احتار الدمعُ لِمَأْتَمِهِ!

فَتْحُ اللهِ وارثُ سِرٍّ، لو وَرِثَهُ الجبل العالي لانهدَّ الصخر من أعلى قمته، ولَخَرَّتْ أركانُ قواعدِه رَهَباً!

....

ثم بدأ شوق الهجرة يلهب ضلوعه من جديد. فالهجرة في حياة فتح الله منهاجُ حياة، ومسلكُ روح، وطريقُ سَيْرٍ إلى الله، ورحلةٌ أبدية في طريق

تجديد الدين، وخدمة حقائق الإيمان. فالنور الذي سكن قلبه يأبى عليه الثواء بين الأهل والأحباب. ففتح الله منذ أن سمع نداء الروح، لم يزل سائرًا في طريق هجرته المقدسة حتى تفطرت قدماه!

واستيقظ الحنين في قلبه إلى مدينة أَدِرْنَه.. تلك المدينة الحزينة التي ضمدت جراحه وضمد جراحها، واتحدت أشواقها بأشواقه حتى صارا ذاتا واحدة، ومأساةً واحدة! بَيْدَ أن أم فتح الله كانت قد تأثرت بغيابه الطويل ما بين أَدِرْنَه والانخراط العسكري.. حتى غصت به أحزانها! فكانت ترغب في بقائه بأرضروم إلى جانبها.. ولقد حاولت بعواطفها الدافئة ثَنْيَهُ مرة أخرى عن الرحيل، لكنه تلطف بها حتى أرضاها. صحيح أن لها أبناء غيره، لكن فتح الله له في قلبها طعم آخر، ووجيب كريم. ولعلها من أجل ذلك كانت تصر على تزويجه من أرضروم. والزواج هو قفص الشباب الطائر، وقيد الحصان الجموح. وما كان فتح الله بهذا ولا ذاك، وإنما كان روحا عاشقا لرياح الهجرة في سبيل الله.. وما كان بالذي يضيق بمدينته وأهلها ذرعا، كلا كلا! فقد كان عاشقا لأرضروم ومحيطها.. ففي باديتها ولد، وفيها نشأ وترعرع، وفيها دفن أعز ذكرياته وأشجانه، جَدَّيْهِ وبعض إخوانه وشيوخه! ولكن شوق الهجرة إلى الله كان أقوى بقلبه! وقد كان وعيه بمهمته الدعوية قديماً، وإحساسه بوظيفته الكبرى عظيماً، وكانت بوارق الشوق إلى واجب الوقت تلمع في أفق شبابه الأول؛ فما كانت تترك عواطفه تركن إلى مألوفها، ودفء ديارها!

ومن كان يحمل مثل سر فتح الله تنوء به رحاب المدائن والأمصار..!

فسياحةً يا خيلَ الله سياحة!

الفصل السادس

العودة إلى ثغور تِرَاقْيا

مواجع أَدِزْنَه مرة أخرى..

أما أنا يا سادتي فلقد تعبت!.. وأنا رجل سقيم!

ولقد طال بي السير بمسالك فتح الله بحثا عن لحظة كشف، أو ومضة برق، يبوح فيها الفتى بوصفة إكسيره الخفية؛ عسى أن أفوز بتلقي سره المكنون، أو لعلي أعرف كيف تلقى مفاتحه القديمة.. ولقد حدثني شجني أن تحت جامع قرطبة صيدلية مدفونة في صندوق.. وأن وصفة دوائي منها مدونة في قرطاس قديم، لم يزل مكنوزاً تحت سارية من سواري المسجد الأقصى..

وحدثني من أثق به أن خارطة الكشف عن الكنزين، لم تزل محفوظة في مكان ما من خزانات الباب العالي في إسطنبول!

قلت: هذا إذن كنز ثالث... من أخطأه جهل الطريق إلى الأقصى، وأضاع معبر طارق بن زياد إلى الأندلس!

قال لي: وإن فتح الله ليعرف مكان الخارطة يقينا، ويحتفظ بمفاتيح الأبواب القديمة! لكن لا أحد يدري متى يمد يده إلى محفظته الصغيرة، فيكشف للعالم سر الوصول!

ولقد سعيت على أثره ركضاً، عسى أن أجد على بصمات أقدامه رسم إشارة، أو بعض أمارة.. ولقد قضيتُ زمناً ليس باليسير بين سِفَارٍ وسِفَارٍ، حتى تورمت أحزاني، وكَلّ حصاني... ولكن دون جدوى... لكنني لم أفقد الأمل..

ومن ذا قدير على الركض خلف براق النور الساري؟

فأن تدرك حصان فتح الله معناه أنك قد خرقت عادة الفلك الأرضي، ووضعت حافرك على مدار الروح! ودون ذلك يا صاح ما دونه من تحطيم خابية الطين بذاتك، وإهراق مائها سقياً لبذور النور!

شعرت بحاجة شديدة إلى الراحة.. كانت علتي قد اشتدت عليّ، وعجزتْ بصيرتي عن مشاهدة باب الخروج.. فقررتُ الرجوع إلى موطني، والتأمل في مسلكي إلى حين.

* * *

ما أن حطت بي الرحال بمدينة مكناس، وتخلصت من وعثاء السفر حتى جعلت أتردد على منازل "آخر الفرسان"، أعيد فتح معارجه.. ومن يدري؟ فلعلي أجد بين ثنايا مساربه مسلكاً إلى الزمان الجديد، أو لعلي أجد خارطة الطريق إلى فلك فتح الله، وأعرف أنّى أجد مُرْساه!

حتى وقفت على فصل من فصول "آخر الفرسان" ما قُدِّرَ لي أن أكتبه، ما عدا ومضة إشارة! فشاهدت محمدا الفاتح، يقف إلى جانب طارق بن زياد، وبديع الزمان النورسي، ومحمد فتح الله.. كلهم جميعا، وآخرين معهم، لم أتبين ساعتها ملامحهم، رأيتهم جميعا يطلّون على الأرض من فلك واحد، فعلمت أنهم جميعا شخص واحد!

وهنا انتفض بي الشوق إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، واستبشرت خيراً؛ فلعلي أتلقى من هناك تتمة روايتي.. ولم لا؟ فإنما هو بحر واحد، يمتد من تحت أقدام أبي أيوب الأنصاري بمضيق البوسفور إلى مضيق جبل طارق!

ولم أدر كيف وجدتني بعد ساعات أركض بحصاني ما بين طنجة وحدود سبتة السليبة! وجعلت أنظر في أفق البحر إلى أندلس الأحزان!.. آه..!

وامتد صدى الآه بكبدي إلى أن تكسر على صخور الضفة الأخرى..!

وصرت أنظر: ذاك جبل طارق.. وتلك هي غرناطة الأسيرة، ومن خلفهما ترقد مقابر المسلمين، وتنتصب للفاتحين أشجار لا يأتي عليها الفناء أبداً! غابة وَرْدٍ بَرّيّ، لم يزل أريجها يملأ رئة الزمان!

وهنا تذكرتُ مدينة أدِرْنَه، وجامع السليمية، ومسجد الشرفات الثلاث.. وتقارب الزمانُ ما بين قرطبة وأدِرْنَه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، وتجلت لي المواجع والفواجع.. وشاهدت تردد الريح بالنشيج ما بين البوغازين! ووقع بقلبي أنني سوف ألقاه هناك، فإن لم أجده وجدتُ له بها أثراً، أو علامة تدل على وجهة اللحاق بخيول الرفاق..!

ثم نادتني أشواق الرحيل فجمعت حقيبتي واتبعت سبباً!

* * *

ما بين إسطنبول وأدِرْنَه كما بين قرطبة وغرناطة من أحزان.. كانت السيارة تطوي بنا التاريخ الذي كان.. وكانت تكبيرات الفاتحين وحمحمة الخيل تملأ أذني على امتداد القطاع الأوروبي من تركيا.. كان السائق يشغّل شريطا من مواعظ فتح الله، وكانت عبارات الواعظ تختنق من حين لآخر بالبكاء! وعلى زجاج السيارة الأمامي كانت قطرات الأمطار تسيل بانسياب كئيب.. وكان السائق يصر على عدم تشغيل ماسح الزجاج إلا بعد تعذر الرؤية تماماً!

كان مرافقي يحدثني عن مسجد السُّليميّة ومسجد الشُّرفات الثلاث..

وعن مدينة أدِرْنَه مولد محمد الفاتح.. كان يروي قصة المجد الذي كان، وكأنما هو يعيشه الآن!.. فأزداد شوقا إلى رؤية قاعدة الفتح العظيم. بيد أن الشوق كان أشد لرؤية آثار فتح الله هناك.. كانت السيارة تجري، ومن غير شعور مني كنت أضغط بقدمي على بساطها رغبة في زيادة سرعتها، فلعلي أشاهد في نافذة فتح الله معالم الطريق..

وما هي إلا لحظات حتى رأيت المآذن الأربع لمسجد السَّليمِيَّة تنتصب في الفضاء.. كانت خواصرها الرشيقة تتبرعم بجمال خارق!.. وكانت أعناقها الجميلة تطول بشكل لا يتوقف!.. عجباً! كأنما هي أشجار تنمو بين الفينة والأخرى.. أما القبة العظمى فقد كانت تبدو من بعيد وكأنها صخرة معراج نحو السماء.. ولقد شاهدت أنسام الروح تتبخر ورودُها ما بين المآذن والقباب، طيبا نديا يرسم معالم الطريق إلى أبواب السماء!

ولقد دخلت مسجد السَّليمِيَّة يا سادتي، فانهارت الدهور على الصخور؛ فخررت على الأرض صَعِقاً! وسمعتُ فتحَ الله يبكي.. آه! فانجرفتُ معه في نشيج عميق! ومن ذا يطيق مشاهدة فضاء قبة السَّليمِيَّة، ونداءاتها الشجية ولا تنهدّ أركانُه رَهَباً؟ ولا أعظم من قبة السَّليمِيَّة في العالم كله! ولو رفع المعماريون ووسعوا ما شاؤوا من الصوامع والقباب! فهذه قبَّةُ عزٍّ وسلطان لم تزل تجلل رؤوس الفاتحين إلى يوم القيامة!

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ   إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ!

ولم تزل السليمية تنجد النور الهارب من زحف العواصف الهوج بأندلس الأحزان، وتحتضن بأضلاعها حنين المهاجرين، وأشواق الحالمين بالعودة.. ههنا قرطبة لم تزل تحتفظ برخامها العتيق! ودفنتْ غرناطة أسرارها تحت هذه الأركان! كل النقوش ههنا تتكلم! كل الزخارف،

كل الخطوط، كل الألوان، كل الانحناءات الصغيرة، والضفائر العذراء المتدلية من تحت حُجُبِ حروف الشجا، كلها منحنية بين يدي ربها راكعة أو ساجدة.. وإني لأسمع نشيجها الخفي يتدفق كبكاء العصافير الصغيرة: رب اغفر لي..! رب اغفر لي..! رب اغفر لي..! كل الزخارف ههنا وكل الأنوار تصلي.. كان موج الزمان المتدفق على صدري أقوى من طاقة أضلاعي الضعيفة، فبكيت!

ومن على هضبة أدِرْنَه الخضراء ناديتُ الشعاعَ الغارب في ضباب أوروبا: سلامٌ عليكِ يا أندلس الأشجان!

* * *

حدثني ترجمان الأحزان قال:

ولذلك عندما أنهى فتح الله واجب الخدمة العسكرية، تجلت له أشواق أدرنه من جديد.. كانت هضابها الرابضة على حدود دول البلقان تجذبه بقوة، وكانت مساجدها المشرئبة بمآذنها التاريخية إلى الأفق الأروبي العميق تهز وجدانه هزًّا!.. كان مسجد الشرفات الثلاث أعز المساجد إلى قلبه.. فقد كانت نافذته التي احتضنته لمدة نحو ثلاث سنوات، تَشُوقُهُ بقوة! ومن ثم استيقظ بوجدانه حنين شديد إليها، وإلى فضاء مسجدها التاريخي المجيد، حيث لبث إماما بمحرابه زمناً.. لقد كان هذا المسجد الذي بناه المعماري "خير الدين" أحب إليه من مسجد السليمانية القريب منه، الذي تُعَدُّ قُبَّتُهُ العظيمة، وصوامعه الأربع، وهندسته المعمارية الجميلة؛ مفخرة الأتراك، وأعظم آثار العهد العثماني الزاهر! وليس يدري لماذا كان يجد شبها بين هذا المسجد وبين عملاق المحن في هذا الزمان الأستاذ سعيد النورسي بديع الزمان! ثم كان يشاهد أن هذا المسجد يتوحد مع السلطان

الرباني العظيم "مراد الثاني"، والد السلطان المجاهد محمد الفاتح، وكأن ذلك المسجد وهذا السلطان، يكمل بعضهما بعضا.

كل هذا وذاك جعل فتح الله يقرر العودة إلى أدِرْنَه واختيارها هي بالذات لتكون أرض مهجره مرة أخرى، وليكون مسجد الشرفات الثلاث نقطة الجاذبية لاستئناف معراجه الروحي، وجهاده التعليمي والدعوي.

كان ذلك في اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١٩٦٤م.. عندما وصل الأستاذ محمد فتح الله أرض مهجره الأول من جديد، قصد مسجده الحبيب مباشرة آملا في أن يرجع إلى إمامته وخطابته.. لكنه صادف إماما جديداً قد استولى على منصبه فيه.. وبعد محاولات إشارية متلطفة معه، ومع الإدارة الدينية، فشل فتح الله في استرداد مسجده ووظيفته. فما كان منه إلا أن ضمد جرحه واستسلم لقدر الله.. ثم تذكر أنه ما يزال يحتفظ بشهادة نجاح في أهلية الوعظ والإرشاد، من إدارة الشؤون الدينية، فأبداها للمسؤولين بأدِرْنَه؛ فقرروا أن يوظفوه بمقتضاها معلماً للقرآن الكريم بأحد المدارس الدينية. فكانت تلك نافذته الوحيدة للولوج إلى ميدان الدعوة، وممارسة الوعظ والإرشاد.

لكن الفتى فاجأه أن الناس صاروا يعرفونه أكثر، بل إن شخصيته قد اتسعت شهرتها عن طريق الجرائد والصحف؛ بسبب أخبار الحوادث والمحاكمات التي تعرض لها أثناء خدمته العسكرية. زاد الطين بلة أن إحدى الجرائد العلمانية، بمجرد أن علمت بقدومه إلى أدِرْنَه واستلامه وظيفة التدريس للقرآن نشرت ضده خبراً استعدائيا، فيه خلاصة محاكماته العسكرية السابقة، ومتسائلة في الوقت نفسه بعنوان مثير: "رجل كهذا، كيف يمكن استمراره في وظيفة رسمية؟" ومن ثم صار دخوله إلى أدِرْنَه

حدثا إعلاميا في حد ذاته، ومشكلة من المشكلات السياسية. فما هو إلا يوم أو يومان حتى بدأ بعض الأشباح من رجال الأمن يلاحقونه في كل مكان. ما خطا خطوة نحو مسجد درس، أومنزل صديق، أو نادي أحبة، إلا كانوا وراءه كالظلال يترصدونه ويراقبونه!

ومن ناحية أخرى صار بعض مسؤولي إدارة "تعليم القرآن" التي كان تابعا لها في وظيفته يتضايقون به، ويسعون إلى تهميشه وجعله غير نافذ في المؤسسة، بل صار بعضهم يتآمر عليه لسلبه جميع صلاحياته. فالإدارة لم تكن تستسيغ أن يكون رَجُلٌ داعيةٌ فعّال مثل فتح الله تابعا لمؤسستها التعليمية، خاصة وأن أغلب رجالها ينتمون إلى طريقة دينية معينة، فكانوا يخشون منافسة هذا الداعية الشاب، وتأثيره غير المرغوب فيه على جموع الطلاب والأتباع. وقد صرّح له بعضهم بذلك تصريحا، ولَمّح له آخرون تلميحاً. هذا علاوة على أنه بالنسبة للسلطة الأمنية شخص مشبوه مُطارَدٌ أبداً؛ إلا أن ظلم ذوي القربى كان أشد على نفسه الحزينة وأنكى!

لكن الله كان أقوى من كيدهم جميعا وأكبر! فقد مرض إمامُ مسجد "دار الحديث" بأدِرْنَه، والأئمة في ذلك الزمان قليل، فاضطرت الإدارة إلى توظيف الفتى مكانَه إماما للمسجد لفترة مؤقتة.

ودخل الفتى مسجده الجديد مسروراً، فقد حصل بفضل الله على مقر جديد لدعوته، فاتخذ غرفة الإمام مسكنا له من ناحية، وجعلها مدرسة لتعليم الطلاب من ناحية أخرى. وما كان شيء أمتع له ولا أحب من التدريس، فانطلق في عمله بنشاط وقوة، مع حذر دائم من عيون المترصدين والمترقبين. وقضى في هذا المسلك أياما كانت من أمتع لحظاته في هجرته الثانية لأدِرْنَه، ومن أكثرها أسراراً وبركة.

في تلك الفترة تم تعيين الأستاذ "سُعَاد يِلْدِرِمْ" -وهو صديق للأستاذ فتح الله- مفتيا عاما على محافظة أدِرْنَه. والنظام الإداري يومئذ قائم على أن مفتي المحافظة هو المسؤول على جميع الموظفين في إدارة الشؤون الدينية والتابعين لها، كالأئمة، والخطباء، ومدرِّسي القرآن الكريم، وغيرهم. فاستأجر له الإداريون منزلا خاصا. وكان فتح الله ساعتها قد غادر غرفة الإمامة بمسجد دار الحديث، واستأجر لنفسه منزلا يسكن فيه. لكنه كان منزلا خَرِباً سيئاً للغاية!

في أحد الأيام زار الإمام فتح الله صديقه المفتي "سعاد يِلدرم" ببيته في وقت مبكّر بُعَيْدَ الفجر حتى لا يراه أحد. ففاجأه أن بيت المفتي لا يقل سوءاً عن بيته الخرب. ولذلك ما أن جلس إليه حتى شكا المفتي حاله قائلاً: "إن هذا البيت تسكنه البراغيث بكثرة.. إنني لا أستطيع النوم بسبب تواتر اللسع والحك!" فقال له صديقه الإمام: "وإن حالي لكذلك، فإذا رغبتم نستأجر معاً منزلاً واحداً، تكون فيه غرفتان، كل منا يسكن غرفة؟" فما كان من المفتي إلا أن وافق فوراً!

بعد بحث مُضْنٍ، وجد الرجلان منزلا للكراء.. كان عبارة عن مسكن سفلي يتكون من غرفتين، دون مرافق أخرى، وفوقه آخر علوي يسكنه رب البيت وأسرته، وكان بناته ونساؤه على حال فظيع من التبرج والتبذل، كعادة أهل أدِرْنَه في ذلك الزمان. وكان للبيت كله مرحاض واحد، مبني في إحدى زوايا الحديقة الصغيرة، يشترك في استعماله الجميع. وقد كان في ذلك من الضيق والحرج على الرجلين الصالحين ما فيه. أما المطبخ فلم يكن له مكان في مسكنهما؛ ولذلك اتخذا فراغاً صغيراً تحت الدرج مكانا لطبخ طعامهما. ولكن على الأقل تخلص الرجلان من لسع البرغيث

وهرشها. ثم كانت تلك فرصتهما الغالية لمدارسة رسائل النور. وهناك كان كل منهما يستنسخ ما يشاء منها لجعله مادة وعظه بالمسجد. كان فتح الله يجعل ورقةَ دَرْسِهِ وسط كتاب "التجريد الصريح في اختصار الصحيح"، وهو مختصر لصحيح البخاري ترجم إلى اللغة التركية، وطبعَتْه رئاسة الشؤون الدينية بتركيا. وكان أحيانا يكتب بعض الكلمات بأحرف مشفرة، لا يقرؤها سواه لما يعلم من الرقابة البوليسية الشديدة على دروسه. فما كان رجال الشرطة يغادرون باب مسجده إلا بعد نهاية الدرس وتفرق الناس. وما كانت السلطة العلمانية في تركيا تسمح للوعاظ في أن يعطوا للناس ولو ببصيص أمل ضئيل، في عودة النور إلى بلاد الخلافة. ومن ثم فقد كان مجلس الوعظ الصغير الذي ينظمه الفتى في المسجد واحة نور مباركة، في صحراء حالكة شديدة الظلام!

رؤيا جميلة!

الرؤى هي الخيط الأثيري الذي يربط الإنسان بعالم الغيب.. عندما تصفو مرآة المؤمن تشرق عليها الروح المشوقة بحب الله، فتنفتح له النوافذ على شرفات السماء فيرى..! وصاحب المشاهدات يعيش في أنس دائم مع الملائكة وأرواح الأنبياء..!

....

قال الراوي:

في يوم من الأيام جاء أحد الجلساء مُهَرولاً، كان يحمل بشارة من رؤيا رآها.. وكان رجلا صدوقا صالحا حقا! فلما أذن له فتح الله بالكلام

وأمُّ المؤمنين خديجة رضي
سول الله! إن هؤلاء الشباب
لس فتح الله وأصحابه! فقال
عن واحد منهم! وخاصة عن
ساء تختنق أنفاسهم بالبكاء،
الرؤيا- باسم ذلك الشخص
ن الأصدقاء يتفكر، ويرجو
لمجلسهم، وازدياد شوقهم

ر أحدهم تلك الرؤيا تخشع
ا أنشط في دعوة الشباب..
ء ثلاثين شابا! فضاقت بهم
ا حلقتهم وسطه، مما أثار
م سوف يهاجمون المسجد
م إذن إن فعلتم فسأفضحكم
لناس!".. فما كان منهم إلا

ح الله قد اخترع طريقة ذكية
ى قلوبهم اليائسة. فقد طبع
الوجه الأول كتب عليه كلمة
طة لحديث النبي ﷺ ونصحه

عدد الطلاب في المخيم الأول مائة طالب، ثم بلغ العدد في السنة الثانية مائتين، وفي الثالثة ثلاثمائة. في هذه السنة قل الماء في المخيم، فكان فتح الله يضطر لنقل الماء بالسيارة من مكان بعيد مع التزامه بمهمة التدريس والتأطير التربوي.

كانت البرامج تنبني على الإعداد الروحي والتزكية الإيمانية من جهة، وعلى التكوين العلمي والتدريب على القراءة، خاصة فيما يتعلق بمواجهة الفكر الشيوعي والإلحادي، الذي كان يغزو تركيا آنذاك بشراسة، وكل العالم الإسلامي. كما كان هناك برنامج يومي للتدريب الرياضي الجسماني. ذلك أن فتح الله أقام نسيج مخيماته على ثلاثة مناسج: أولها التكوين العلمي، وثانيها التزكية الروحية، والثالث الانضباط العسكري. وكان في ذلك من التوازن التربوي ما لم يُعرَفْ له مثيل بتركيا في تلك المرحلة. ومن ثم فقد كان لهذا التكوين الشمولي أثره البالغ في إضعاف موجة الماركسية في البلاد بما خرّج من الطاقات الإيمانية الفعالة، وما بث منها في كل منطقة وقطاع.

كرامات الحجة الأولى..!

كان ذلك سنة ١٩٦٨م. وكان فتح الله في نحو الثلاثين من عمره.. كان شوقه إلى الحج شديداً، لكنه كان يعلم ألا حيلة له إليه. فلا يملك من المال ما يبلغه ولو إلى نصف الطريق، بل لا يكاد يملك منه إلا قوت يومه. وربما صرف ذلك القوت القليل في أمور الدعوة، وطوى الليالي الطوال على بطن جائع. فأنى لمثله أن يطمع في الحج، وهو يستلزم ما يستلزم

من النفقات والمصاريف؟ كان ينظر إلى المنطلقين نحو الحج بعينين مغرورقتين بالدموع. وامتلأ قلبه بالشوق إلى زيارة مسجد رسول الله ﷺ والروضة الشريفة. ووصل شوقه درجة من الوله لا تطاق. حتى إنه ربما كتب رسالة إلى النبي ﷺ، وكلف بها بعض الحجاج من معارفه أن يلقي بها خلف شباك الروضة الشريفة. وإنما كان يحاول في رسالته أن يرسم حر شوقه ولهيب وجدانه؛ فلعل الله يستجيب دعاءه فيمكّنه من حج بيته الحرام، وزيارة روضة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام!

في موسم الحج لسنة ١٩٦٨م، كانت عملية الاكتتاب للحج جارية في ربوع تركيا على قدم وساق، وكان فتح الله ينظر إلى المكتتبين بغبطة، ويضمد جروح عجزه بالدموع والأحزان..! في تلك الأيام كان يلقي درسه على طلابه بمدرسة سوق الكَسْتَناء، ففاجأه أحد الطلبة بسؤال: "ألا ترغب في الذهاب إلى الحج يا أستاذ؟" وشعر فتح الله كأن أحداً وضع الملح على جرحه العميق... فقال له: "ومَنْ أنا حتى أحظى بشرف الحج؟" قالها واغرورقت عيناه بالدموع، ثم غادر القسم فوراً إلى مكتبه، وأغلق عليه الباب وحيداً، ثم جلس على كرسيه، ووضع رأسه بين يديه، ونصبهما فوق منضدة المكتب، ثم انجرف مع مواجيده في بكاء شديد. كان تحت زجاج منضدة المكتب صور للمسجد النبوي والروضة الشريفة، فكان ينظر إليها من خلال دموعه فيزداد نشيجا، وكأنما يبثها أحزانه وشكواه!..

ليس يدري كم مضى من الوقت على حاله تلك.. وإنما الذي يذكره أن أحد الإداريين دخل عليه وهو على تلك الحال، فقال له: "عفوا يا أستاذ! إنهم يطلبونك على الهاتف من أنقرة العاصمة!".. أسرع فتح الله إلى الهاتف فوجد السيد "لُطفي دُوغان" مساعد رئيس الشؤون الدينية.

فكانت المفاجأة الكبرى أن قال له بعد التحية والسلام: "سيد فتح الله! لقد قررنا في رئاسة الشؤون الدينية أن نبعث مع الحجاج ثلاثة مؤطرين، أولهم: السيد "إبراهيم دَغِيزْمَنْجِي" مفتي دنيزلي. والثاني: السيد "أحمد بالْطَاجِي" مفتي محافظة أَسْكِي شَهْرْ. والثالث: أنتم فتح الله كولن!"

لم يكد فتح الله يصدّق ما سمع... فكان لذلك يوقظ قلبه على صدى تلك الكلمات خشية أن يكون غارقا في حلم!.. كانت تلك هي أول سنة تُقرر فيها رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة إرسال مؤطِّرين للحجاج الأتراك. ثم علم الفتى أن الذي كان وراء فكرة اقتراح اسمه ضمن هيئة التأطير، هو صديقه القديم مفتى أدِرْنَه السابق، السيد "يَشَارْ طُونَاكُورْ"، نائب رئيس الشؤون الدينية حاليا. فدعا له فتح الله كثيراً. وكانت تلك أول رحلة إلى الحج في حياة الأستاذ فتح الله كولن، ولذلك فقد كان لها من الأثر البليغ على قلبه ما لا ينساه أبداً!

لما كان الأستاذ في مكة المكرمة، لم يكن يغادر المسجد الحرام إلا لضرورة. كان معتكفا هناك أمام الكعبة المشرفة ليل نهار.. فإذا غلبه الجوع أكل بضعة تمرات، أو قليلا من البيسكويت، ثم عاد إلى صلواته وأذكاره.

ثم بدا له أن يعتمر بالنيابة عمن لهم عليه حق من حقوق الإسلام. فاعتمر نيابة عن رسول الله ﷺ، ثم عن الخلفاء الراشدين. لم يفكر في صحة عمرة من هذا النوع، خاصة من شابٍ مثله عن رجال كهؤلاء، لكن فرط حبه للنبي ﷺ وصحبه جعله يقوم بذلك لما يشعر به من حق لهم عليه في الدين. ثم اعتمر بعد ذلك بالنيابة عن أقاربه، وبدأ بأستاذه ومؤسس دعوته بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، ثم أمه وأبيه وأجداده. ولم يزل يعتمر كل يوم عن هذا وذاك حتى إنه كان يعتمر بمعدل ثلاث مرات في اليوم،

نيابة عن أهله وشيوخه وذويه. فقد كان فتح الله ذا بنية قوية لا تعرف التعب ولا الوهن، خاصة عند الانخراط في خدمات الروح كالحج والعمرة!

أثناء عمرته بالنيابة عن جَدِّه الأثير جِداً "شَامِل آغَا" شعر أثناء سعيه بين الصفا والمروة بإحساس غريب، فقد وجد نفسه كأنما يطير..! وأحس بأن قدميه ترتفعان فوق الأرض وهو يسعى، فأخذته رجفة عميقة في جميع جسمه، واستجابت كل أطرافه لارتعاش شديد، ثم وجد نفسه يتصبب عرقاً... ثم دخل بذلك في حال من الوجد والشوق، لا يعلم مداه إلا الله!

الإشراق الروحي أو الشهود القلبي، الذي يَحْدُث للإنسان في مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يناله في كل الأوقات. يذكر فتح الله أنه قد عاش بعض الأحوال ذهب به الشوق فيها إلى درجة الانجذاب. ولكن الحال التي عاشها أثناء عمرته نيابةً عن جده "شامل آغا" لا يمكن وصفها أبداً، ولا التعبير عنها بالكلمات. لقد سجل تاريخ ذلك اليوم في مذكرته، وهو يوم ليس ينساه أبداً على كل حال!

عند قدومه من الحج، استقبله بمطار أنقرة مفتي إزمير، بمعية أحد أئمة المساجد، ثم سافروا جميعا إلى إزمير. وبعد فترة قرر فتح الله السفر إلى أرضروم لزيارة أسرته.. هناك قصت عليه والدته رؤيا رأتها وهو في الحج: فقد رأت كأن جده "شامل آغا" يسبح طائراً فوق السحاب مثل الملائكة. فلما حقق فتح الله معها تاريخ الرؤيا، وَجَدَهُ هو نفس اليوم الذي اعتمر فيه نيابةً عن جَدِّه، وتذكر أنه هو نفسه قد حلق بروحه في أفق تلك الحال، حيث كان يشعر بجسمه وكأنما هو يسبح بين الصفا والمروة. فقد كانت تلك الأحوال من لطائف الكرامات.. وكانت كأنها نوع من التوحد القلبي، أو التواصل الروحي، بينه وبين جده شامل رحمه الله، أو قُل كأنها نوع من

توافق الذبذبات، أو الموجات الأثيرية، بين الحفيد في عالم الدنيا وجده في برزخ الآخرة، لِمَا كان بينهما من عميق المحبة، والترابط الروحي. ولعل الله أشار إلى فتح الله بتلك الحال الخالصة بأن رسالته قد وصلت إلى جده شامل، وليس ذلك ببعيد عن مقام "وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"..!

ثم إن فتح الله لم ينس طلبته في مدرسة سوق الكستناء بإزمير.. فقد كانت نظرته إليهم نظرة خاصة وعميقة الغور. كان ينظر إليهم باعتبار أنهم يمثلون جزءاً من الخلاص لهذا العالم الإسلامي الكبير. ولذلك فقد أخذ معه إلى الحج لائحة بأسمائهم جميعا، فجعل يدعو لهم واحداً واحداً. وعلاوة على ذلك اقتنى لكل واحد منهم هدية صغيرة، تتكون من بضع تمرات، وقليل من ماء زمزم، وخاتم صغير من فضة.

وهناك في الحج بهره مشهد الأجناس البشرية المختلفة تقف بين يدي الله باكية تدعو وتبتهل بلغات مختلفة، لكن بمواجيد واحدة، وأشواق واحدة، ورغائب واحدة... يصطفون للصلاة في صفوف واحدة ويركعون ويسجدون في هيأة واحدة. وهناك ازداد يقينا بأن الأمة رغم جراحها العميقة ما تزال بخير. وكلما غص المسجد الحرام بالمصلين والطائفين كان أشبه ما يكون ببستان مبتهج بشتى الورود والأزهار، من كل الفصول وكل الألوان والأشكال!

وليس ينسى حقد الشيطان اللعين عليه... فقد كانت له معه في المسجد الحرام قصة. ذات يوم صعد إلى الطابق العلوي من المسجد لأداء صلاة الفجر هناك. وبينما هو جالس بُعَيْدَ الصلاة قريبا من الشرفات، يقرأ أوراده وأذكاره، إذ سمع صوتا يأمره بحزم قائلاً: "فتح الله! أَلْقِ بنفسك من على هذا الطابق، أَلْقِ بنفسك من هنا!".. وتكرر الصوت مراراً! فأجاب فتح

الله: "وما فائدة الإلقاء بنفسي من هنا؟" فقال له: "أَلْقِ فقط!" ثم جدد الفتى السؤال: "وما الفائدة؟" قال: "إنه لا يضر، ألق بنفسك!".. فأدرك فتح الله يقينا أنه صوت شيطان، فاستعاذ بالله، ورجع فوراً إلى خلف، بعيدا عن الشرفات. عندما كان الفتى يرجع القهقرى شاهد صديقه الحاج كمال، يرجع وراءه القهقرى هو أيضًا بنفس الطريقة وفي الوقت نفسه، وقد كان بينهما نحو خمسين متراً. وعندما التقاه بَعْدُ سأله فتح الله عن سبب رجوعه القهقرى، فأجاب بأنه سمع صوت شيطان يأمره بأن يلقي بنفسه من على السطح، فحكى له نفس ما سمعه فتح الله في نفس اللحظة من وسوسة الشيطان لعنه الله. فعلم الرجلان أنه قد طاف عليهما طائف من الشيطان في نفس المكان والزمان، يريد أن يستغل شدة شوقهما، وهيجان مواجيدهما لإهلاكهما والتخلص منهما، وهما مَنْ هما في قافلة الدعوة وتجديد الدين. فلولا علْمهما بالله لكانا من الهالكين، ومن ثَمَّ لم يفترق الرجلان طيلة أيام الحج، ولم ينفصلا في منسك أو شعيرة.

الفراق الأليم

في نهاية السنة الخامسة من عمل الأستاذ فتح الله في مدرسة سوق الكَسْتَناء، بدأ يشعر بمضايقات من مسؤولي الجمعية المشرفة على المدرسة؛ تبلورت في موقف صريح ضده. ذلك أنهم نَصَّبُوا عليه رئيسا أعلى، وجردوه من جميع صلاحياته الإدارية، وطلبوا منه إعطاء الدرس فقط! ثم أحضروا إلى جانبه أساتذة ممن يعادونه. أما الرئيس المنصَّب عليه فهو رجل صادق، ولم تكن له دراية بنوايا أعضاء الجمعية. كان اسمه

صِدْقي شنْ بَابَا، وكان فتح الله يحبه كثيراً. وكانت العلاقة بينهما على أحسن ما يرام.. وقد سبق للسيد صدقي أن استضاف والد فتح الله ببيته في إزمير. أما أعضاء الجمعية فقد تبين أن ما صنعوا كان بدافع استخباراتي، وأن بعضهم كان مواليا لجهاز المخابرات في إزمير. وكان يغيظهم أن ينجح الأستاذ فتح الله في كسب هذه الثقة العظيمة بين الجمهور الإزميري، وبين الطلاب خاصة، سواء طلاب المدرسة الدينية بسوق الكَسْتَناء، أو طلاب الجامعة بإزمير. ناهيك عن التجار ورجال الأعمال!

في تلك السنة ضرب زلزال إقليم "كَديز"، فشرع الناس يجمعون المساعدات من مدينة إزمير. وقد كان فتح الله من المنخرطين في ذلك العمل الإنساني النبيل.. ومن ثم غاب عن المدينة مدة لتوزيع تلك المساعدات على مستحقيها في المناطق المتضررة. وبينما الأستاذ منهمك في عمله الإنساني خارج إزمير؛ قام التلاميذ بمهاجمة المدير الجديد السيد صدقي، فأسمعوه من الكلام اللاذع ما لا يطيقه. ومن ثم ترك منصبه ولم يرجع إلى المدرسة قط. ففسّر مسؤولو الجمعية ذلك بأن الأستاذ فتح الله هو وراء الحادث، وهو منه بريء، بل لقد آلمه جدا أن يتصرف الطلبة بهذا السلوك السيء ضد مديرهم الجديد. ثم قرر المسؤولون بعد ذلك توظيف مدير آخر بدل السيد صدقي. ولكن العلاقة بينهم وبين الأستاذ فتح الله ساءت جدا بسبب ذلك الظن السيء!

ثم وجد فتح الله أنه لا مستقبل له في مدرسة سوق الكَسْتَناء، خاصة وأن الإداريين فصلوا بينه وبين الطلبة. وإنما الروح الذي يحيا به الرجل هو العيش مع الطلبة. كما أن جُلَّ الأساتذة كانوا يحسدونه بجهلهم، ولم يكونوا يسمعونه كلمة خير، بل كان يتلقى معاملتهم السيئة، ويصبر على

كلماتهم الجارحة، فيكتمها في نفسه وكأنما يمضغ أوراق الصبار. فقرر هو أيضا مغادرة وظيفته بالمدرسة، فلعل الله يجعل له من بعد عسره يسراً.

عندما كان ينقل أمتعته ليلاً من مدرسة سوق الكَسْتَناء، كان الطلبة يساعدونه، وقلوبهم منكسرة حزينة، كانت قسمات وجوههم جميعا تتساءل بصمت: إلى أين تذهب يا أستاذ؟ ولمن تتركنا؟ أما هو فقد كانت الدموع تنسكب على خديه. لقد كان أولئك الطلبة جزءا من كيانه، وكان كوخه الخشبي الصغير مثل بعض أطرافه.. وها هو الآن يغادرهم جميعا مكرها، يغادرهم وهو يشعر كأن بعض أعضائه تنفصل عن جسده. لقد شهد ذلك الكوخ تأسيس عمل إسلامي جديد، وتخريج أطر دعوية كان لها أثر كبير على العمل الإسلامي بربوع تركيا كلها. هنالك انعقدت مجالس عدة ليال للتخطيط لأمر الدعوة وترتيب أمر المخيمات، ومجالس أخرى أهم لتربية مجموعات عديدة من طلبة الجامعات وغيرهم، وإعدادهم لتحمل رسالة الإيمان بتركيا.

الحاج أحمد تَتَارِي كان أحد أعضاء الجمعية، وكان يحب فتح الله كثيراً، لكنه لم يكن يفهم لماذا أرادت الجمعية أن تفصل فتح الله عن طلبته، مما يبين أن ذلك كان مجرد مؤامرة مدبرة من بعضهم، أو ممن يوالون جهاز الاستخبارات. فكان أن اكترى فتح الله مع بعض محبيه منزلاً كبيراً كثير المرافق، بحي "كُوزَلْ يَالِي" يسع أربعين طالباً.. فجعلوا فيه أقساما للدراسة وداخلية للطلاب. هنالك أدرك رئيس الجمعية السيد "عَلِي رِضَا كُونْ" الخطأ الفادح الذي وقع فيه أعضاء جمعيته! وأن الجمعية إنما جُرَّتْ إلى ذلك بطريقة خبيثة، فجاء إلى الأستاذ فتح الله مسرعاً، وطلب منه

الرجوع إلى مدرسة سوق الكَشْتَناء؛ على أساس استعادة جميع صلاحياته الإدارية والتربوية، راجيا منه تناسي الماضي. لكن السهم كان قد انطلق من القوس، فأصاب ما أصاب من كبد ضحيته، ومن ثم لم يستطع فتح الله العودة إلى المدرسة بعد ذلك أبداً! وما هي إلا أيام حتى كانت مدرسة فتح الله الجديدة قد امتلأت بالطلبة، وأصبحت مدرسة سوق الكَشْتَناء خاوية على عروشها. وندم أعضاء جمعية الكَشْتَناء على ذلك ندما شديداً؛ فلقد كانوا يعلمون جميعا أن فتح الله عاش بينهم على أعلى درجات الإخلاص لعمله، وعلى أعلى درجات الورع في إدارته. فلم يأكل قط ولا كسرة خبز واحدة من طعام المدرسة، ولا استعمل ورقة واحدة من أوراقها، حتى صابون الميضأة الموضوع رهن إشارة الجميع كان يشتريه من ماله الخاص، وينفق على نفسه في جميع حاجاته من خالص رزقه، مهما كان قليلاً. فيا لتعس قوم فرطوا في فتح الله... أي بركة أضاعوا على أنفسهم... وأي خسارة خسروا..!

كانت شهرة الأستاذ فتح الله قد طارت إلى كل مكان، وصار أهل الفضل والصلاح في إزمير وضواحيها كلهم يوالونه؛ حتى إن بعض الأحزاب السياسية آنذاك حاولت استقطابه، فعرضت عليه مناصب رفيعة، لكن فتح الله يعلم أنه لم يخلق لذلك، وإنما متعته الوحيدة هي أن يجلس إلى طلابه يبثهم ذوب روحه ووجدانه. وقد كان رجاؤه أن يدفن في عرصات سوق الكَشْتَناء، قريباً من المدرسة حتى يسمع من قبره أصوات الطلبة وهم يدرسون!

دخان الفتن

قسم فتح الله أعماله الدعوية إلى ثلاثة أقسام رئيسية، الأول: تدريس طلبة العلوم الدينية، والثاني: الوعظ في المساجد. والثالث: عقد مجالس الصحبة الإيمانية التربوية كل ليلة في البيوت الخاصة. وكان طلبة الجامعة هم أغلب من يحضر مجالسه سواء في المساجد أو في البيوت. كما كان بين هذا وذاك جميعا ينهمك كعادته في قراءة الكتب.

ولقد ابتليت الجماعات الإسلامية بتركيا آنذاك بفتن الفرقة والاختلاف، إلى درجة لا تطاق، فكان هَمُّ فتح الله وقتها هو العمل على درء الفتن، والحد من نار الاختلاف. وكانت ثمة جماعات ذات خيارات سياسية عنيفة، تستجيب بسرعة للاستفزاز، وتتصرف بمنطق ردود الأفعال! أما طلاّب النور فبعد وفاة مؤسسها الأول الأستاذ بديع الزمان النورسي سنة ١٩٦٠م، فإنها وإن حافظت على هدوئها الدعوي إجمالا، ومنهجها المفارق للسياسة وأهلها؛ إلا أنها هي أيضا أصيبت بداء الاختلاف في ذاتها. وكان لذلك أثر سلبي على الوضع الإسلامي بالبلاد. فما أن مضى على موت النورسي رحمه الله نحو عشر سنوات حتى كانت الفتنة قد بلغت درجة من الشحناء قابلة للاشتعال في أي حين!

كما كان الصراع على العموم قد اشتد بين أغلب الأحزاب والتنظيمات السياسية باختلاف أنواعها ومشاربها. وكانت بعض الأيدي الخفية تشعل نار الفتنة بين الإسلاميين واليمينيين المتطرفين، وكذا بينهم وبين الشيوعيين. وكانت جدران الشوارع والأزقة سبورات دائمة لتدوين شتى أنواع الشتائم والسباب ضد هذا الاتجاه أو ذاك، أو لكتابة شعارات النصر والتأييد لهذه الجماعة أو تلك، بل تطور الأمر إلى حد الاغتيالات

والاغتيالات المضادة، وتلطخت الأجواء بالدماء والثارات، وصار الوضع ينذر بالخطر. وكان فتح الله واحدا من قلة من الدعاة الذين كانوا ضد هذه الأساليب، والذين يوقنون بأن رفع الشعارات التهييجية لا فائدة منها على الإطلاق. ولم يزل في مجالسه الخاصة والعامة يوصي بالحكمة والتعقل، والاعتدال وحسن التدبير. ولقد سجل التاريخ أن طلاّب النور -رغم ما أصابهم من اضطراب- كانوا أبعد الناس عن التورط في مثل تلك الزلات.

إن الذين كانوا يحسنون قراءة الأحداث كانوا يدركون بأنها كانت تتهيأ لانقلاب عسكري وشيك. إن اللغة التي صارت سائدة في الأوساط السياسية والأحزاب بمختلف توجهاتها، وطريقة الحوار السياسي الخشن من التهديدات إلى الاغتيالات، كان عبارة عن نار يؤججها أصحابها لتسويغ حدوث انقلاب في البلاد. والذين عاشوا انقلاب الستينات في تركيا يعلمون أن الغيوم التي ساقته هي عينها التي تلبدت في سماء البلاد في بداية السبعينات.

انقلاب عسكري ثان، يفتح أبواب السجون..!

كان الانقلاب العسكري الثاني الذي حدث بعد عشر سنوات كوامل من الانقلاب الأول، الواقع سنة ١٩٦٠ -بغض النظر عن أسبابه- ضربة قوية للصف الإسلامي بتركيا، لكنها ضربة وإن أدخلته في إغماءة شديدة، إلا أنها أيقظته بعد ذلك على رؤية أصفى وأقوى.

قال الراوي:

في يوم الجمعة ثاني عشر مارس لسنة ١٩٧١م، على الساعة الواحدة زوالا، أذيع خبر الانقلاب في المذياع، وسيطرة الجيش مباشرة على إدارة الحكم، وإعلان حالة الطوارئ بالبلاد.

ثم بدأت حملة الاعتقالات بعد مدة قصيرة من إعلان الانقلاب. فتم اعتقال كثير من زعماء اليسار، وقادة الجماعات الإسلامية، وكثيراً من النشطاء البارزين في كلا الاتجاهين. وبقي الاعتقال مستمرًا على قدم وساق حتى امتلأت السجون بالرجال والنساء!

إن الدويلات الإسلامية تعاني معاناة شديدة بسبب استعلاء الغرب عليها. وإنها إذا كان الله قد سلط عليها في الماضي "جنكيز خان"، و"تيمور لنك"، و"هولاكو"؛ فإنه اليوم يسلط عليهم الغرب؛ عسى أن تستفيق من غفلتها وسكرتها بأهوائها وشهواتها، وترجع إلى أصلها. وإن هذه السُّنّة الإلهية لتجري على الجماعات الإسلامية في كل مكان، وفي تركيا في ذلك الزمان.

لقد استشرت الغيبة بين أعضاء الجماعات المختلفة بشكل رهيب، بل حتى بين أعضاء الجماعة الواحدة، وصار سوء الظن هو الأصل في معاملة المخالفين في الرأي، ولو كانوا من أهل الفضل والخير. وكانت الفرقة لا تزداد إلا اتساعا، والهوة لا تزداد إلا عمقا.

إن موضوع الغيبة كان من أهم الآفات التي حاربها الإسلام كثيراً، وركز عليها في تربية الجماعة الإسلامية. فالقرآن يشبّه الاغتياب بأكل لحم الإنسان المسلم. وكانت تركيا في تلك المرحلة تعاني من وفرة الكلام، وتضخم عبارات النقد والنقد المضاد في الأوساط السياسية والإسلامية إلى حد الفوضى. فكان أن تدخّل الجيش في الحياة السياسية

عبر انقلاب عسكري بذريعة السيطرة على الوضع الأمني، ووضع حد للفوضى، فخنق البلاد كلها بكف من حديد شديد، وأخذ كل مواطن نصيبه من ضرر الانقلاب العسكري.

في تلك الظروف كان السيد رامز أفندي قد جاء لزيارة ابنه فتح الله في إزمير.. وفي يوم فاتح مايو ١٩٧١، جاء موعد عودته إلى أرضروم.. كان الوقت ليلاً، فجهز فتح الله حقيبة والده بيده. ثم بعد قليل حضر صديقه الأستاذ مصطفى أسوطاي، فأوصلهما بسيارته إلى محطة الحافلات. بعد وداع الوالد، عاد فتح الله مع صديقه نحو المنزل، فعرجوا في الطريق على بعض بيوت الطلبة، فحذّرهم فتح الله من احتمال مباغتة جهاز الأمن لهم في أي وقت، ونبههم إلى أنه يمكن أن يأخذوهم وكتبهم في أي لحظة. ثم انصرف الرجلان، وبينما هما يطويان الطريق بسيارتهما صدما كلبا أسود بقوة، فمات الكلب، فأوّلَ فتح الله تلك الإشارة بأنهما ربما سيصطدمان بشيء آخر أخطر!.. فاتجها نحو منزل الأخ مصطفى بيزليك. ولما بقيت نحو مائتي متر من المنزل، طلب فتح الله من سائق السيارة مصطفى أَسُوطَايْ أن يتوقف، وكان ابن أَسُوطَاي "رِضوان" معهما.. كان طفلا يدرس في الابتدائية آنذاك، فطلب منه فتح الله أن يذهب إلى ذاك المنزل، ويتحسّس هل هناك من أحد؟ فلما عاد قال: "إن فيه رجالاً يفتشون عن شيء!" فعلم الرجلان أن الشرطة جاءت للقبض على السيد "مصطفى بيرليك"! عندها طلب فتح الله من مصطفى أَسُوطَايْ أن يوصله إلى منزله. وفي الطريق صدمت السيارة كلبًا أسود آخر، فتوقع الأستاذ أن الشرطة تنتظره في بيته. وكذلك كان، فما أن دخل الرجل البيت حتى لاحظ أن جهاز الأمن قد فتشه شبرًا شبرًا، وقد جمعوا كثيراً من الأشياء وسط

المنزل. ووجد الطالب "صلاح أطلاي" ينتظره، كان هذا الشاب يزوره عادة عند آخر كل أسبوع، ثم يبيت عنده. وفي ذلك اليوم كان الطالب قد أعد لأستاذه طبقا من الأرز. ثم سمع فتح الله رجالَ الشرطة من داخل إحدى الغرف، يقولون له: "أهلا..!" ثم استمروا في التفتيش!

لقد مر على تركيا حينٌ من الدهر، كان مجرد قراءة القرآن يُعدُّ جنحةً يعاقب عليها القانون، وظلت كليات رسائل النور للنورسي ممنوعة التداول لسنوات عديدة؛ ولذلك فقد كان فتح الله ذا وعي أمني دقيق، فلم يكن يترك في مجالسه ولا في بيته أثراً واحداً، أو بصمة صغيرة يمكن أن تدينه، ولا أي شيء يصلح ليكون تهمة ضده. ولم يكن ساعتها قد ترك في مكتبته ولا ورقة واحدة من رسائل النور، اللهم إلا كتابا للمودودي، رآه فوق مكتبه، فألقى عليه جبته بهدوء وأخذه، وبحجة الذهاب إلى المرحاض انزوى في مكان ما من البيت وأخفاه.

وبعد تمام تفتيش المنزل صادر رجالُ الشرطة أربعين كتابا، لكنهم لم يجدوا من بينها شيئا يصلح لإدانة الرجل. سألهم فتح الله أثناء التفتيش: هل يزعجهم إن هو أكل قليلاً؟ فقالوا له بنوع من السخرية: "بل كُلْ كثيراً، لأن موعد عودتك إلى بيتك غير معروف!.."

وهناك في المعتقَل العسكري، أدخلوه غرفة، فحلقوا شاربه وشعر رأسه، ثم صوروه من جهة وجهه، وقفاه، وصفحة جانبه. طلب فتح الله من المأمور العسكري وَضُوءاً، فأحضر له ماءً قليلاً في إناء معدني وَسِخٍ، وقدمه إليه بطريقة خشنة. ثم توضأ الإمام المعتقل وصلى العشاء هناك. بعدها أدخلوه زنزانة واسعة، ففوجئ بوجود السيد "مُصطفى بيرْليكْ"، والإمام "شَعبانْ دُوزْ"، و"هَارون الرَّشيد تُيْلُو"، وبعض الشبان من القوميين..

كانوا كلهم مهمومين مغمومين... لم يكن هناك فرق في وضعيتهم جميعاً، فكلهم كانوا مثله بغير شوارب ولا شعر رأس.. حتى الإمام شعبان حلقوه، وجَزُّوا لحيته الطويلة. لما لاحظ فتح الله ما بإخوانه مِن غمّ حاول أن يدخل عليهم السرور، ويقلب جو السجن إلى أنس ومسامرة. وقد نجح فعلاً بما لديه من ذكاء لطيف وسرعة بديهة.. فكانت تلك الليلة من أجمل الليالي في حياتهم، لا ينسونها أبداً!

لما أدخلوهم الزنزانة نزعوا منهم كل شيء، المصاحف، وجوشن الأدعية وغيرهما. كان فتح الله بالطبع يحفظ كتاب الله، فكان يترنم به بالليل والنهار، لكنه لم يكن يحفظ "جَوْشَنَ الأدعية"، فندم على ذلك كثيراً!

في اليوم الموالي أحضروا شخصين آخرين إلى السجن، لكن كانا ينتميان إلى تيارات عنصرية. ثم أحضروا عدداً من الأساتذة المتدينين، وعددًا من موظفي ثانوية الأئمة والخطباء. كان من بينهم السيد نظام الدين، والسيد رجَب أستاذ الرياضيات. فأما السيد رجب فقد كان منخرطا مع فتح الله في جمعية مُكافحة الشيوعية، وأما الأخ نظام الدين فقد انهار نفسيا بسبب الاعتقال، وزُلزل زلزالاً شديدًا، إضافة إلى أنه كان يعاني أصلا من مرض القلب؛ وقد تأثرت ابنته بسبب اعتقاله تأثراً بليغاً إلى درجة أنها حاولت الانتحار، فزاد ذلك من مرضه وحزنه. فكان فتح الله وإخوانه يواسونه ويؤازرونه بعاطفة عميقة.

في يوم آخر اعتقلوا الطبيب الدكتور "كايْد بَكْ"، فضاقت الزنزانة بأهلها، فحولوهم إلى مكان يشبه مطبخاً فجعلوه سجنا لهم! هنالك أرسل فتح الله إلى صديقه "إسماعيل شَلَبي" رسالة سرية يطلب منه جَوْشَنَ الأدعية. وكان أن وصله "الْجَوْشَنُ" فعلاً خفية في مساء ذلك اليوم، ففتحه فتح

الله فجعل يقرأ وهو يبكي... وبقيت الجماعة في المعتقل زمنا من دون محاكمة. وكان هناك ضابط قصير بليد، سيء الطبع، كثير الشتم واللعن، وكان ينظر إلى السيد مصطفى بيزليك -وهو رجل في سن والده- ويقول له: "يا وغد! كيف تتحدث مع قائد مثلي وأنت جالس؟ أما أدّيت خدمة التجنيد الإجباري؟ أما علموك هناك على أي هيئة ينبغي لشخص وضيع مثلك أن يتحدث مع قائد مثلي؟"

ورغم الظروف السيئة للاعتقال فقد أصبح ذلك المعتقل الكبير معسكراً ربانيا للذكر والعبادة والصلاة، وكان مشهد المؤمنين وهم يؤدون الصلاة به رائعاً مَهيباً، يوقظ الفطرة الإيمانية ويغذّي الروح، حتى إن شخصين من التيار العنصري جعلا يقتربان من الإخوة شيئاً فشيئاً، ثم شَرَعا في أداء الصلاة مع الجماعة، فاغتاظ لذلك باقي العنصريين!

في أول محاكمة تم إطلاق سراح جميع أفراد التيار العنصري. كما أُطْلِقَ سراحُ الأخ رجب أستاذ الرياضيات، والأخ نظام الدين المريض بالقلب. ثم أُعيدَ السيد فتح الله إلى السجن مع الدكتور "كايْد بَكْ"، و"مُصطفى بيزْليكْ"، و"هَارون الرَّشيد تُيْلُو". في المحاكمة الأولى شاهد الإخوان أخاهم السيد "عثمان كَارَا" يتجول في قاعة المحكمة، فعلموا أنه استدعي كشاهد في تلك الجلسة، وفي نهايتها تم اعتقاله هو أيضا!

في جلسة أخرى حكموا بالسجن -بِمُدَدٍ مختلفة- على كلٍّ من هارون الرّشيد، ومُصطفى بيزليكْ، والدكتور كايْد بَكْ، والإمام شَعبان دُوزْ. وبعد ذلك تم استدعاء الأستاذ فتح الله، وكان يتنبأ لنفسه بنفس المصير..! ولذلك لم يتكلم أمام المدعي العام إلا قليلاً. كان بين يدي المدعي العام ملف مليء برسائل التهاني التي كان يتوصل بها فتح الله من أقاربه

وإخوانه في شتى المناسبات. فكانت كثرتها موضوع تحقيق من المدعي العام، كما كانت هناك مجموعة من التقارير عن مضمون دروسه العامة بالمساجد، وعن كل مجلس شارك فيه فتح الله؛ كما أن كثيراً من الإخوة المعتقلين علقوا كل تهمهم على مشجب فتح الله! فأثقلوا عنقه بجميع قضاياهم، وبذلك وضعوه على فوهة المدفع. نظر إليه المدعي العام ثم قال: ماذا تقول في كل هذا؟ فأجابه فتح الله بكل برودة ساخراً: إن رجال الاستخبارات كانوا في حاجة إلى شيء من العمل؛ فجعلوا يكتبون هذه الأشياء جميعها من محض خيالهم الواسع!

فغضب المدعي العام، وجعل يقرأ جميع وثائق التحقيقات، الواحدة تلو الأخرى.. كان المدعي العام يقرأ وفتح الله يسبح بفكره في العالم الأخروي، يتفكر في يوم الحساب الأكبر!.. حتى إذا أنهى المدعي كلامه انتبه فتح الله على الخلاصة الأخيرة، فإذا هي خاوية من أي دليل حقيقي رغم كثرة التهم والإدانات، اللهم إلا اعترافات إخوانه ضده، فقد كانت أثقل شيء يمكن أن يدينه. ولعلهم اضطروا للتوقيع على أشياء أمليت عليهم تحت عصا الوعيد والتهديد!

وهناك تذكر فتح الله رؤيا غريبة، كان قد رآها قبل ذلك بأشهر، فلم يعلم لها ساعتها تأويلاً.. كان ذلك بعد مغادرته لسوق الكستناء، حيث بدأ يلقي درسا بعد صلاة العصر في الحديث لطلبة معهد العلوم الإسلامية، وكان يحضره طلاب ثانوية الأئمة الخطباء، في مسجد بحَيّ "كُوزَلْ يَالِي".. وكان الحضور كثيفا جدًا.. وفي ليلة آخر يوم من حلقات تلك الدروس، رأى في منامه أنه يصلي بالناس صلاة العصر بذلك المسجد، فلما سلّم عن يمينه رأى النبي ﷺ ينظر إليه بعينين مغرورقتين بالدموع. فكان فتح

الله يتساءل مستغربا: لماذا وجه النبي ﷺ يبدو هكذا..؟ ثم اتضح له فيما بعد بأن درس ذلك اليوم كان هو الحلقة الأخيرة من دروس الحديث، إذ لم يتمكن من استئنافه مرة أخرى؛ فقد وقع الانقلاب العسكري، وبدأت الاعتقالات في صفوف الإخوة! وهناك فهم معنى حزن النبي ρ في الرؤيا.

بعد إدانة الأستاذ فتح الله بالسجن أعادوه إلى معتقله الذي كان فيه في البداية، ثم جعلوا بعد ذلك يحوّلونه من سجن لآخر.

في بداية الأمر كان السجناء المتدينون مع اليساريين في زنزانة واحدة، فلما كثر عدد المتدينين عزلوا كل صنف في زنزانة خاصة. ولم يزل عدد المتدينين في ازدياد حتى بلغوا أكثر من خمسين شخصا!

بعد ذلك أطلقوا سراح الدكتور الطبيب "كائِد بَكْ" الذي كان أردني الأصل، وكان يساعد سفراء بلده في بعض من الأمور. ويشهد له فتح الله أنه كان رجلاً صبوراً محتسباً. فعلى الرغم من كونه معتقلا في بلد غريب، وليس في وطنه، ورغم أن زوجته أسقطت جنينها بسبب كثرة المداهمات، فإن ذلك كله لم يحرك منه ولا شعرة ولم يزده إلا ثباتًا وتصميمًا!

أما السيد "هارون الرشيد تِيلُو" فقد كان رجلا حكيماً دائم الابتسامة، لطيف النكتة. قال مرة لفتح الله: "إننا يا أستاذ لم نستطع أن نتفق خارج السجن، ولو على قليل من الكثير المشترك، فسلط الله علينا الجيش، وجعلنا نتفق داخل السجن على كل شيء!"

الإمام شعبان مرِض في السجن حتى سقط من على فراشه، فرعاه الدكتور "كائد بَكْ" حق الرعاية. وإنما كان سبب اعتقاله أنهم عثروا في بيته على ورقات من كليات رسائل النور.

أما الأستاذ "بَكْر بَرَق" فقد كان محاميا قديراً، كان يجهز مرافعته في السجن ليلاً.. ولم يكن ينام حتى يتم إعداد مرافعته. وأثناء المحاكمات ربما كان ينام ساعة واحدة أو أقل. كان شغله الشاغل هو البحث عن الأدلة وترتيب الحجاج. عندما يكتشف دليلاً ما يوقظ الأستاذ فتح الله من نومه، ثم يقول له: "أستاذ فتح الله! اسمع هذا الدليل!.. سوف أفحمهم به!" عند قراءته لكتاب كان أحيانا يسطر عشر مرات على نفس الجملة. كان الأستاذ "بَكْر" رجلا فعالا، وثاب الفكر، حيوي الوجدان.. كان يحب الصحابة –رضوان الله عليهم– جداً، ولذلك كان يسأل فتح الله أحيانا هذا السؤال العجيب: "أيها الأستاذ! أنت أدرى بأحوال الصحابة؛ فبالله عليك! بأي صحابيٍّ جليل يمكنك أن تشبهني؟ أو بأيٍّ منهم يمكن أن أُذَكِّرك؟"

ففي تلك التجربة المريرة أدرك فتح الله أن الإنسان إنما تعرف حقيقته إبان الامتحان. ولم يزل يقول: "إن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضع مقاييس لمعرفة الإنسان، منها السفر معه، ومعاملته بالدرهم والدينار، إلا أنني أضيف إليها مقياسا آخر، ألا وهو أن تعاشره في السجن!"

فتح الله رجل ملهم، صافي السريرة، يحسن قراءة الإشارات.. في أحد أيام السجن، استُدعي السيد شعبان إلى المحكمة، وكان فتح الله مستلقيا على ظهره في الزنزانة، فلاحظ فراشة بيضاء تحط على رأس السيد شعبان، فخرجت معه هكذا ثم طارت في الفضاء.. فتفاءل فتح الله بإطلاق سراح صديقه، وكذلك كان. فبعد المحكمة مباشرة رجع، وجمع ملابسه وخرج!

وفي يوم آخر، استدعي فتح الله إلى المحكمة، وكان قبل ذلك مستلقيا على ظهره في الزنزانة، فجعل يفكر هل سيطلقون سراحه أم لا؟ فرأى على

السقف فراشة بُنيّة اللون.. انتظرها طويلا لعلها تطير فتخرج من الشباك، لكنها لم تفعل! وكذلك كان! فقد أطلقوا عدداً كبيراً من المتديّنين، إلا هو وزمرة قليلة من أحبّته! فجعلوهم في سجن واحد مع سجناء اليسار!

كان عدد الشيوعيين في الزنزانة أكثر من المتدينين، ولذلك مهما تلطفوا في معاملتهم، كانوا يردون عليهم بغلظة وخشونة!

بدأ فتح الله يُهَرِّبُ الكتب إلى داخل السجن، وكان يقرؤها خفية، ثم يجعلها تحت خشبة منزوعة من أرض الزنزانة. كانت المراحيض في ساحة صغيرة خارج الزنزانة، وكان الحراس يقفلون باب الزنزانة ابتداء من الساعة التاسعة ليلاً إلى السابعة صباحا. وكان ذلك يسبب حرجا شديداً للسجناء، لكن الضرورة تجعل الإنسان خلاقا ومبتكراً. فقد كان بعضُ مَن لا يصبرون على ذلك الوضع يتبوّلون في قنّينات خصصوها لذلك فيضعونها في شباك الزنزانة العالي، فتصطف تلك القارورات مثل رفوف الصيدلية في مشهد مخجل ومضحك في الوقت نفسه. كان فتح الله يمتنع عن تناول الشاي وجميع السوائل ابتداء من وقت العصر حتى لا يضطر إلى هذا الصنيع المخجل، فعصمه الله من ذلك طيلة مدة السجن. كان مدير السجن برتبة عقيد، وكان ينهى السجناء عن ذلك، ولكن أحداً لم يستجب له. فللضرورة أحكام... أما الحمام فلم يكن يتاح لهم إلا مرة في الأسبوع!

في أحد الأيام قُدِّمَ لفتح الله في طعامه بيضة، فتسببت له في حساسية شديدة كاد يكون فيها هلاكه! حيث أصيب بتقرحات مؤلمة في حجره، وضيق شديد في التنفس. وتركوه يكابد مصيره ولا أحضروا له طبيباً، مع العلم أنهم كانوا قد نزعوا منه أدويته يوم اعتقاله. في المقابل كان هناك سجين يساري قد مرض بسبب البيض أيضا، فكانوا يأذنون له بالخروج

ليتنفس خارج الزنزانة على الأقل. عندما تدهورت حالة فتح الله أُخذ إلى طبيب عسكري، فصادف أنه ممن كان يعرفه من قبل، فسُرَّ بذلك جداً، فلما فحصه كتب اسمه ضمن من ينبغي أن يراه الطبيب مرة كل أسبوع.

كان رمي النفايات على مسؤولية السجناء، وكان ذلك موزعا عليهم بالدور حسب أيام الأسبوع، فكان كل واحد منهم ينتظر يومه بفارغ الصبر، لأنها الفرصة الوحيدة لرؤية الفضاء، واستنشاق الهواء الطلق، ولو لبضع دقائق!

في أحد الأيام كان الدور على السيد "بَكْر" المحامي، ولكن عندما نادوا على الزبالين كان هو نائما ولم ينتبهوا له، فتأثر لذلك كثيراً، إذ فاتته فرصة الاستنشاق ذلك اليوم!

كان السجناء يعانون من هجوم جحافل البعوض، خاصة في أشهر الصيف، فكانوا إذا أغلقوا نوافذ الزنزانة اختنقوا بشدة الحرارة، وصاروا كمن في فرن ملتهب! وإذا فتحوها امتلأت فضاء الزنزانة بسحب الناموس والبعوض! كان السيد "جول تكين" إذا ذهب لقضاء حاجته في المرحاض يرش في فضائه مبيداً للحشرات.. لكنه إذا تأخر قليلاً هاجمته جحافل جديدة من البعوض فانتقمت منه شر انتقام، فلا يقوم من مكانه حتى يكون البعوض قد مزق جلده تمزيقا! كان السجناء يستيقظون كل صباح، وقد انتفخت وجوههم وأطرافهم بسبب مئات اللسعات الشديدة!

حوار مع المجاذيب!

بعد ثلاثة أشهر من السجن أحضروا مجموعة من "المجاذيب" إلى

زنزانتهم. جماعة "المجاذيب" في تركيا تكرر تاريخ القرامطة والشيعة الروافض. فكلهم كانوا يدعون محبة سيدنا علي رضي الله عنه، ويجعلون أهواءهم ورغباتهم هي أساس الدين. وهؤلاء المجاذيب يشبهونهم تماماً. كانوا يجتمعون على شخص هو إمامهم، وشيخ طريقتهم. وبسبب بعدهم عن منهاج النبوة كانوا يكرهون الآخرين ظانين أنهم هم فقط على الصراط المستقيم. ولذلك صار التعايش معهم في السجن مشكلة كبرى. فمهما حاول فتح الله وأحبّته التقرب منهم كانوا يزدادون نفوراً. ولعلهم لم يكونوا يعتبرونهم حتى مجرد مسلمين لهم حق الإسلام. فلم يكونوا يقبلون بإمامة أحدهم في الصلاة سواهم، ولا بأكل طعام يأتي به غيرهم. وطلبا للتقليل من الاختلاف أمر فتح الله أحبّته بالصلاة خلفهم. لكن إمامهم كان جاهلاً، فحتى سورة الكوثر لم يكن يقرؤها بصورة سليمة. فأما أركان الركوع والسجود فلم يكونوا يقيمون منها شيئا. فكان الإخوة يصلون معهم ثم يعيدون تلك الصلاة فرادى، درءاً للفتنة داخل السجن. لكن بعض الإخوة الآخرين رفضوا الصلاة خلف المجاذيب، فكانوا ينعزلون بصلاتهم في جماعة مستقلة، مما كان يشحن السجن بالتوتر الشديد أحيانا. كان فتح الله يحاول فتح حوارات مع المجاذيب تقريبا لهم وتأليفا لقلوبهم، لكنه رغم كل مواهبه العلمية والإدارية لم يفلح في شيء من ذلك. فكلما تحدث بحقيقة إيمانية من القرآن أو من السنة قلبوا الحجاج إلى سياق مختلف تماماً. وأما أكثر استدلالهم فهو بأقوال الجن وأفعالهم. وكذلك كان مدار حديثهم صباح مساء، فالجهل الأعمى كان هو أساس تفكيرهم! ولذلك لم يصل فتح الله معهم إلى نتيجة البتة!

معركة مع المجاذيب!

في يوم من الأيام اشتد الجدال بين الأستاذ بَكْر وأحد المجاذيب، فتطور النقاش إلى حد الشجار! كان المجاذيب يراقبون الوضع، حتى إذا رأوا الشجار قد بدأ هاجموا السيد بَكْر، وانقضوا عليه جماعة! كان عددهم ستة! فضربه أحدهم بكرسي على أم رأسه! وتدخل بعض الإخوة في المعركة فاختلط الحابل بالنابل. كان فتح الله وآخرون يحاولون فك الخصام، فنالهم حظهم من اللكم والضرب، وانقلب الوضع في الزنزانة إلى حرب حقيقية! فأسرع فتح الله تجاه النافذة وجعل ينادي الحرس العسكري، ففتح الحراس الباب بقوة فانكمش المجاذيب إلى زاويتهم. حارس السجن نظر في الجميع نظرة غاضبة، ثم قال مستنكراً: "أهكذا يكون المسلمون؟" أما المجاذيب فما كان لكلامه ذاك على نفوسهم من أثر، لكن فتح الله شعر وكأن أحداً طعنه في صميم قلبه. وظل يتألم من تلك الجملة زمنا طويلاً، ولكن عزاءه أنه منع جريمة قتل كانت على وشك الوقوع!

بعد الحادثة عزلوا أفراداً في سجن انفرادي مع أنهم لم يكونوا هم السبب الأول في حصول الشجار، وظل الذين سببوه حقيقة مع الجماعة في الزنزانة. كان فتح الله يشعر أنه يعيش عينة من الظروف نفسها التي ما يزال العالم الإسلامي يعيشها منذ أربعة قرون. وكان يقول في نفسه: حقا إن التاريخ يعيد نفسه!

كان من ضمن المجاذيب شخص اسمه "عارف"، كان لين الطبع إلى حد ما. التقى فتحَ الله مرة في الطريق بعد خروجهما من السجن، فجاء نحوه مسرعاً ثم قال له: "سامحنا يا أستاذ، لقد آذيناك!" قالها ثم انطلق إلى سبيله. ولكن إخوانه كانوا متصلبين، بل إلى الشراسة هم أقرب!

مع الشيوعيين في السجن!

قلة منهم كانوا عقلاء، وأما أغلبهم فقد كان حقوداً، يهددون الإخوة بين الفينة والأخرى، ويستفزونهم صباح مساء. كانوا يجعلون حركة المؤمنين في الوضوء والصلاة قضايا يحتجون عليها. فهذا يشتكي مما يحدث بالأرض من "زلزال" بسبب السجود، وآخر يشتكي من صلاة الفجر، أو من تهجد هذا أو ذاك. ورغم ذلك كان فتح الله يحاول تكوين جو من التعايش معهم. لكنه كان يضطر أحيانا للوقوف ضد بعضهم علنا، مثلاً سمع مرة أحدهم يسب الله جل جلاله، ويسب النبي ﷺ..! وسمعه أيضا "بَكْر بَرْق" المحامي، فذهب يشكوه عند الإدارة، لكن الشيوعي أنكر ما نسبه المحامي إليه! فاستشهد المحامي عليه فتحَ الله، فشهد عليه بذلك أمام المسؤولين!

حتى عندما كانوا منعزلين في زنزانتهم فإنهم كانوا إذا أقاموا الصلاة وشرع الإمام في التلاوة بدأ الشيوعيون يدقون الجدار بقوة من زنزانتهم المجاورة، مع أنهم لا يكفون عن الغناء وعزف الموسيقى بأعلى أصواتهم، ولا يستنكفون عن لعن الدين والوطن وجميع المقدسات...

أُذِنَ للسجناء يوما في الخروج إلى ساحة السجن لتنفس الهواء، فسمع الإخوة خبراً في الراديو مقتضاه أن اليمينيين في أندونيسيا غلبوا اليساريين. فعلق السيد "بَكْر" المحامي قائلا: "إننا سنغلبهم هنا أيضا إن شاء الله!" فسمعه بعضهم وتوتر الجو توتراً رهيباً، وجعلوا يخططون للهجوم على المتدينين جميعا، لكن الله سلم فلم يتم لهم ما أرادوا. ولو فعلوا لما تدخلت الإدارة إلا عند ختام المعركة، ولما حاسبتهم على شيء من ذلك. كان الجو قابلا للاشتعال في كل وقت وحين! وربما أدى إلى قتلى في

كلا الطرفين! ولتفادي ذلك كان فتح الله يبذل مساعي كبيرة. فالرابحون من الفتنة دائما هم الشيوعيون!

السجين الخطير

في الأيام الأخيرة للسجن أضيف على زنزانة المتدينين رجل اسمه "قادِر قَيْماز". كان رجلاً خطيراً، فقد كان عضوا في عصابة تسرق البنوك! وكان قد سرق أكثر من أربعة ملايين ليرة! واتقاء لشره من جهة، ثم تأليفاً لقلبه من جهة ثانية قربه فتح الله، فجعل فراشه بجانبه، خاصة وأن هذا الرجل كان بيدقا بيد غيره، ويمكن تحريكه بالسوء في أي وقت. فقطع فتح الله الطريق بذلك على الشيوعيين حتى لا يستقطبوه إليهم. واكتشف فتح الله أن لديه قابلية كبيرة للتدين، فجعل يتدرج به في مفاهيمه شيئا فشيئا حتى توضأ وقام للصلاة، مع أنه ما صلى في حياته قط ولا صام. ثم صار نادما على ما فعل، وربما صرح لفتح الله ببعض مخططات اليساريين!

في سجن "البيت الأبيض!"

قضى السجناء أغلب الأيام الأخيرة في سجن "بادملي"، وبعد عدة أيام حولوهم إلى سجن عسكري آخر موجود في "شِيرِين يَرْ"، كانت بناية هذا السجن مصبوغة باللون الأبيض، فكان المتديّنون يتندرون بذلك ويسمونه "البيت الأبيض!".. كان منظره من الخارج عصري المعمار جميلاً، لكنه من الداخل كان عبارة عن دهليز ضيق وعميق لا تدخله الشمس إلا في منتصف الظهيرة، فتبقى لحظات ثم تغيب. كان قد بني لغاية الحبس

الانفرادي. ولذلك فقد كان الحراس يعطونهم الطعام من تحت الباب، وكان المرحاض في الداخل، والماء به قليل؛ ولذلك كان كريه الرائحة منتنا، ولا أمل في الخروج لتنفس الهواء الطلق!

لم يبق من الإخوة في السجن سوى شخصين اثنين فقط: محمد فتح الله، ومصطفى بيرليك. ولذلك جعلوهما في زنزانة واحدة مع "قادِر قايْماز"، وأحد اليساريين. وكان شهر رمضان قد حلّ. فكانا يصومان، فجعل "قادر" يصوم معهما. فلما علم رفاقه الشيوعيون بذلك قاطعوه شر مقاطعة!

كان لـ"قادر" صديقة يهودية، فجاءت تزوره يوما، فاكتشفت أنه صائم، فقطعت علاقتها به. وقد أثر ذلك في نفسية قادر كثيراً، وازّلزلت معنوياته! وكان فتح الله أكبر مواس له، فحتى بعد خرج الأستاذ من السجن لم ينس صديقه "قادِر"، فقد زاره مرتين محملا بالهدايا.

حزن شيوعي!

في أحد الأيام كان اليساريون حزينين جداً، ومن حين لآخر ترتفع أصواتهم بالبكاء، حتى إن حارس السجن لما دخل عليهم طردوه، وأقفلوا الباب خلفه، ثم أسندوه بسرير. وازداد توترهم تجاه الأخوين فتح الله ومصطفى بيرليك. حتى قال مصطفى لصاحبه: "أخشى أن يتخذونا رهائن!" فقال فتح الله: لا فائدة من اتخاذنا رهائن، لأننا لا نساوي عند الإدارة شيئاً! وبعد أيام فهم الأخوان لماذا بكى الرفاق!

فقد كان هناك شقيقان قياديان من العيار الثقيل هما "نديم" و"إبراهيم"، كانا من أركان اليسار المتطرف في تركيا، وكانت الشرطة تبحث عنهما.

أما إبراهيم فقد قتل في اشتباك مع الشرطة في إسطنبول، وكان يظن أن نديم أيضا قتل في ذلك الاشتباك! ولذلك بكى الشيوعيون كثيراً في السجون. لكن بعد ذلك بأيام تم القبض على الرفيق "نديم" في إزمير، فأحضروه إلى سجن "بادملي". كان "نديم" رجلا فوضويا، لا يأبه للقانون، ولا يعرف معنى الانضباط، ولذلك كان التحقيق معه بالتعذيب. بيد أنه كان قويا جلداً، فلم يستطيعوا أن يأخذوا منه ولا كلمة، حتى إنهم كانوا يجعلون الملح على جروحه لزيادة آلامه، ولكن دون جدوى. وخلال شهرين أو ثلاثة كان لا يستطيع المشي بسبب الجروح والقروح، وإنما كان يقفز مثل الضفدعة قفزاً. وكان فتح الله -رغم الخلاف العقدي العميق بينهما- يتأسف لوضعه ويشفق عليه!

مهزلة المحاكم

كانت المحاكم وقتها تثير الأعصاب؛ ففي تلك الأثناء ظهر نوع من الأبطال رخيصي الثمن. هؤلاء كان وراءهم شيئان، الأول: إخوان يشكون إخوانهم المؤمنين، وينتقمون منهم؛ بسبب حزازات قديمة. والثاني: إخوانٌ يقبلون كل ما يسند إليهم مثل اليساريين، ولو أن يصبحوا عملاء للاستخبارات قصد الإفراج عنهم. ولذلك لما بدأت محاكمة فتح الله، ظهر العديد من المخبرين، ومن الشهود المتطوعين، ليشهدوا ضده، وكان ذلك أشد ما يجرح مشاعر فتح الله!

تطوع بعض المحامين الأوفياء للدفاع عن فتح الله مجانا.. كما تطوع بعض الخبثاء للشهادة ضده بالزور. كان "المجاذيب" من أكثر الناس ضررا

على المتدينين فقد شهدوا زوراً ضدهم في المحاكم، بل اتهموا رجالا أبرياء حتى من تهمة الدعوة الإسلامية نفسها، وإنما بعضهم كان يحضر دروس الوعظ والإرشاد ليس إلا!

لكن العلقم المر الذي لا ينسى فتح الله غصته، هو أن بعض أصدقائه في جمعية سوق الكَسْتَناء شهدوا ضده في المحكمة!

كان هناك مجذوبان اثنان يترصدان حركة المتدينين في السجن، ويوصلانها إلى إدارة السجن. كان البليدان يظنان أن ذلك في مصلحتهم، لكنهما كانا ضمن الذين حصلوا على حكم ثقيل من هيئة المحكمة، فظلوا في السجن سنين عدداً. كان الإخوة كلما ذهبوا إلى المحاكمة سبب لهم المجاذيب بشهاداتهم المنكرة مشاكل لا حصر لها، حتى أصبحوا ككابوس يزعجهم في كل مكان! وعجز الإخوة عن إيجاد طريقة للتغلب على مكر المجذوبين البليد!

دعاء شجاع!

كان في المحكمة قائد عسكري متقاعد اسمه "محمد شَطْلْ قَيَا" كان ضمن الهيئة الإدارية لمدرسة سوق الكستناء، فلما سألته هيئة المحكمة عن شهادته عن المخيَّمات، تبنّاها وقدّم خطابا أبكى به فتح الله وأحبّته! فكان مما قال بصدق وإخلاص: "إن هذه المخيمات كانت تابعة لنا، والأستاذ إنما كان موظفا عندنا! لقد ذهبت إلى المخيم، ولم أرَ العمامة إلا على الإمام والمؤذن فقط."

كان المحقوقون قد أروا من قبل للأستاذ فتح الله صوراً من هذا المخيم،

تظهر فيها عمائم؛ فطلبوا منه تفسيراً، فقال لهم إن الإمام والمؤذن هما فقط من لبس العمامة بالمخيم، فتطابق كلامه مع كلام ذلك القائد دون سابق تنسيق. ثم استأنف القائد العسكري المتقاعد شهادته قائلاً: "ومنذ أن جاء الأستاذ فتح الله إلى إزمير لإلقاء الدروس، جلست بين يديه، فانتفعت به كثيراً؛ بل إنني أسأل الله أن يخرج من السجن في أقرب وقت ممكن، كي أستمع إلى موعظته من جديد!" وليس ينسى فتح الله شهادة هذا الرجل! فقد كان عسكريا متقاعداً، وكان الوضع الأمني في غاية الخطورة! لكنه قال كلمته بشجاعة نادرة عز وجودها بين كثير من الإسلاميين!

وفاةُ عَمٍّ غَالٍ

لما كان فتح الله في سجن "بادملي"، زاره أبوه "رامز أفندي"، وبقي شهراً في إزمير رجاء أن يطلق سراح ابنه قبل أن يعود إلى أرضروم. فشهد أربع محاكمات، ولما لم يطلقوا سراح ابنه بعدها اضطر للعودة إلى أرضروم، فعاد إلى أهله كئيباً محزوناً!

أما زيارته الأولى فقد كانت بالنسبة لفتح الله مليئة بالأسى والحزن العميق، وبكى بعدها كثيراً..! إذ لم يستطع ملامسة أبيه، ولا تقبيل يده، فقد كان بينهما جدار عال من الأسلاك. وإنما جعل يسأله فيجيب وسط ضجيج السجناء وأهاليهم:

- كيف أنت يا أبي؟ وكيف هي أمي؟
- أمك سافرت إلى البادية..
- ماذا حدث..؟

- عمك أنور مريض جداً!

قالها ثم اغرورقت عيناه بالدموع، ففهم فتح الله أن عمه المحبوب قد توفي، فبكى مع أبيه كثيراً. كان فتح الله يكن لعمه أنور حبًا كبيرًا، فقد كان أصغر من والده بنحو ثمان سنوات، وتوفي رحمه الله في حدود الستين سنة. وقد علم فتح الله بعد ذلك أن عمه مرض بسبب حزنه على اعتقاله. فقد كان فتح الله كواحد من أعز أبنائه. ولذلك فقد عاد إلى زنزانته وصورة أبيه الباكية لا تفارق خياله. فلم يستطع هو أيضا التوقف عن النشيج، فجعل إخوانه يواسونه بحرارة!

أما المسيح أخو الأستاذ فتح الله فقد كان يأتي لزيارته مراراً. وكذلك كثير من أصدقائه وأقاربه.

السراح الأخير

في يوم من أيام شهر يوليو، مُوَافِقٍ لليوم السادس والعشرين من رمضان المبارك أُخرِجَ الأَخوان إلى المحاكمة مرة أخرى. في هذه الأثناء حصل شيء لم يكن في الحسبان، وهو أن قاضي التحقيق قام فقال: "إنه مادام قد أخلي سبيل الأشخاص الآخرين؛ فلا مانع من إطلاق سراح الأستاذ فتح الله ومصطفى بيزليك أيضاً!" ففوجئ الرجلان بذلك كثيراً، وعلما أن المحكمة قد قررت إطلاق سراحهما.

في تلك الأيام كان فتح الله قد رأى النورسي في المنام، كان يلبس سلهاماً أسود، ويقف أمام السجن، فجعل النُّورْسِيّ يُدْخِلُ محبِّيه الواحد تلو الآخر إلى مكان يشبه القلعة. وفي رؤى أخرى قبل مدة قليلة من

إطلاق سراح فتح الله وصاحبه أنزلهما الأستاذ النورسي من قمة عالية وأوصلهما معاً إلى الكعبة!

بعد انتهاء المحاكمة رجع الأخوان إلى البيت الأبيض، وعند دخولهما الزنزانة، كانت وجوههما مشرقة بالسرور. وكان كل من رآهما من الحرس أو السجناء يهنئهما، ويقول لهما: مبروك! فأخذا ما لا بد منه من أمتعتهما وتركا للسجناء أشياء كثيرة، ثم خرجا بسلام. كانت تلك ليلة القدر من شهر رمضان المعظم!

كان السيد "صادق" ينتظرهما بسيارته في الخارج ليأخذهما إلى منزليهما. فلما استوى فتح الله راكبا بداخل السيارة تساءل في نفسه: إلى أين سأذهب؟ فلم يبق له بيت آنذاك في إزمير يأوي إليه. فلا شك بعد انقطاع تسديد ثمن الكراء استرد رب المنزل منزله. ولا هو يدري أين يكون قد وضع ما ترك فيه من متاع قليل؟ ففي ذلك اليوم كان بيت مصطفى بيرليك هو الاتجاه الوحيد الذي بإمكانه الذهاب إليه، لكن فتح الله -وهو الرجل المرهف الحس- فضل أن يترك صديقه ليخلو مع أولاده، فلم يذهب معه! وهناك تجلت له أمه الباكية وأبوه الجريح، فتوجه إلى محطة القطار مباشرة، فبات ليلته تلك على متن القطار الراحل نحو مدينة أرضروم!

وخرج الرجل من إزْمير كما دخلها أول مرة!.. لا يحمل سوى محفظة صغيرة في يده، وقلبه الجريح!

في اليوم الذي أطلقوا فيه سراح فتح الله كانت أخته الكبيرة "نور حياة" تجلس أمام منزلها بأرضروم حزينة.. فمر أمامها شخصان يتحدثان، فسمعت أحدهما يقول: "اليوم تخلصوا..!" فأولت ذلك الفأل بأنه سراح

فتح الله، وذهبت مسرعة إلى الوالدة فبشرتها بالإفراج عن ولدها وكذلك كان!

بعد يوم من السفر البعيد، فوجئت الأسرة كلها بابنها فتح الله واقفا أمامها، فاختلطت الفرحة بالحيرة والضحكة بالدموع! وبكوا كلهم كثيراً..!

وكان لعيد الفطر تلك السنة من أفراح الروح، ومسرات الوجدان ما لم ينسه فتح الله في حياته قط.

الفصل الثامن

فتوح البلدان وانتصار الفرسان

عودة أقوى إلى رباط الخيل!

فتح الله رجل لا يترجل عن فرسه إلا منتصرًا! فتح الله إمامٌ لا يغمد سيف النور حتى تشرق شمس الروح.. فسِرُّه المكنون يأبى عليه الاستسلام لخفافيش الظلام.

كان الرجل وهو يخوض عواصف الليل الرهيب، يبصر بوارق الفتح قادمة في الأفق القريب، كان يرى كنوز كسرى تتناثر بين يديه، وملك قيصر يأتيه راغما! كلما اشتدت مواجعه، وأطبق عليه الحصار من كل مكان؛ تجلّت له الفتوحات الكبرى تتوغل في ضباب الغرب بكل جهاته، وتفتح منافذ للشمس هناك، ورأى الخيل المجاهدة تذيب بأنفاسها الْحَرَّى جليد سيبيريا، وتدفئ كل قلوب المقرورين في بلاد ما وراء النهرين. ثم رآها صفًّا كالبنيان المرصوص، تخوض بصدورها العارية عباب المحيط الأطلسي، تسبح بقوة كالحيتان الكبرى، حتى تطأ بحوافرها أرض رومية الجديدة، فتدخل المدائن وهي ترفع ألْوِيَة المحبة والسلام. وتثخن كتائب أخرى في أدغال إفريقيا، توزع رغيف النور على الفقراء في كل مكان، فإذا بالأطياف السُّمْرِ يكتشفون وجيب القلب الصافي سلاما رحمانيا يغمر كل قبائلهم، ويسمعون نداء الروح يتدفق من أعماق الغابات، فإذا كل الأشجار مآذن، وإذا بخمائلها مساجد وقباب.

ويرى فتح الله كل القارات تلتئم بين يديه في بستان واحد.. ويقرأ

بشارة رسول الله ﷺ أمرًا تكليفيا للأجيال، فيبكي..![1]

....

قال الراوي:

بعد إطلاق سراحه في التاسع من شهر نوفمبر ١٩٧١م، حاول الأستاذ فتح الله أن يعود إلى اعتلاء رَحْلِه المجاهد، فكاتب رئاسة الشؤون الدينية لاستعادة كرسي الوعظ من جديد، والعودة إلى وظيفته الدعوية بإذن رسمي كما كان في مدينة إزمير. فقد صارت هذه المدينة تحتضن فسائل من جهاده الدعوي، وهو أشد ما يكون حرصا على العودة إلى هناك لرعايتها وتنمية قدراتها وإمكاناتها. لكن الجواب تأخر كثيرا، فبقي بأرضروم يعظ بغير تصريح رسمي. لكنه ما لبث أن استُدعِي إلى رئاسة الشؤون الدينية بأنقرة، وهناك حدثه مسؤول التعيينات عن ضغوط الجيش على الإدارة في شأنه هو خاصة، على أساس إجلائه عن مدينة إزمير، وتعيينه في مكان آخر غيرها. فكان أن تم تعيينه في مدينة أَدْرَمِيتْ بعيدا عن إزمير وكان ذلك في ٢٣ فبراير ١٩٧٢.

ورغم بعده عن محضن طلابه الأوائل، إلا أنه استطاع أن ينشئ غرسا جديدا في هذه المدينة الثانية، صار مَدَدًا مهمًا لما غرسه في إزمير. وما هي إلا سنتان وأربعة أشهر حتى تم نقله إلى مدينة "مَنِيصَا" واعظا بمركزها. وكان في ذلك فرج عظيم بالنسبة لخدمة فتح الله الدعوية، فـ"مَنِيصا" لا تبعد عن إزمير إلا قليلا، ومن هناك استطاع أن يجدد التواصل مع طلابه

(١) كان ذلك في درس مؤثر، ألقاه فتح الله في الدور الخامس، حول حديث النبي ﷺ: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين" وكان فتح الله يرى أن هذا فيه معنى الأمر والتكليف بالدعوة والبلاغ. والحديث رواه أحمد، والحاكم، والطبراني، والبيهقي، وسعيد بن منصور، بسند صحيح.

الأوائل، ويستأنف نشاطه البنائي بقوة. ومن مَنِيصَا إلى إزمير جدد فتح الله الحياة في روح الخدمات الإيمانية مرة أخرى، فطور مجالس التربية، واللقاءات الدعوية، وازداد نشاط المخيمات، وتطورت المشاريع المدرسية بما جعل الدعوة تعرف تطورا كيفا وكما في فترة وجيزة من الزمان.

وفاة الوالد

الارتباط الروحي العميق بين فتح الله ووالده لم يكن ليجعل حقيقة الفراق بموت الأب أمرًا هينا في حياة الفتى. كان ذلك في اليوم العشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٩٧٤، كان فتح الله يسمي تلك السنة بعام الحزن. فقبل وفاة والده بشهر واحد كان قد توفي صديقه الحميم نجم الدين كُونْلِي. كان فتح الله قبل ذلك يرى في المنام كأن طائرتين تطيران بشكل عمودي، فترتفعان في السماء عاليا عاليا، حتى تغيبا عن الأنظار تماما، كانت الرؤيا تعاوده بمنامه من حين لآخر، فلم يلبث أن فوجئ بوفاة الوالد والصديق في نفس العام!

ولم تزل لوعة فراق الوالد تلتهب في قلب فتح الله، ذلك أنه عندما بلغه قرار التعيين إلى مَنِيصَا واعظا، قبّل يد والده مستأذنا في الالتحاق بالعمل، لكن الوالد المريض طلب من ابنه التريث إلى يوم الخميس، فسكت فتح الله، لكن الوالد المدرك جيدا لطبيعة عمل ابنه الخاصة، والعليم بأنه أكثر من مجرد واعظ بسيط استدرك الأمر فقال بنَفَس عميق:

- امْضِ يا بني! فإنما تنتظرك هنا عينان اثنتان -مشيرا إلى وجهه- أما هناك فإنه تنتظرك آلاف العيون!

وسافر فتح الله إلى عمله، وبعد أسبوع واحد تلقّى نبأ وفاة والده الكريم، وعلم أنه توفي في يوم الخميس الذي استمهله أبوه إليه! فكَرَّ راجعا إلى أرضروم يقطع المسافات الطوال، وقلبه ينزف ندما أن لم ينتظر حتى يوم الخميس، ولم تتح له فرصة توديع أبيه ورفيق عمره الوداع الأخير.

نقل تعسفي جديد

كانت السلطات الظالمة تحرص على جعل الداعية يعيش حياة غير مستقرة، فتسلط عليه سوط الانتقالات التعسفية، والتعيينات المفاجئة، من محافظة إلى أخرى، وذلك في فترات زمنية متقاربة؛ حتى لا يستقيم له عمل دعوي في مكان البتة. فكلما قدّر المراقبون لحركته أن دفء العلاقات الإيمانية قد بدأ يمتد من قلبه النابض بالحب نحو السكان، رموه بنفي قاس عن المكان، وقطعوا حبل المودة الناشئ في المنطقة القديمة. إلا أن فتح الله كان يُخيِّب آمالهم البئيسة، فقد كان أسرع مما يظنون، إذ كانت كلماته مثل بيض السمك المهاجر في البحار، يضعها في أرخبيل المرجان ثم يرحل، وما هي إلا فترة قريبة من الزمان حتى تخرج أجنتها إلى عالم الحياة، وتنمو، ثم تلتحق بأسرابها الأولى حيث كانت... ولا يزال فتح الله في تلقي مَدد جديد، من منفى إلى منفى، ومن هجرة إلى أخرى.. ويصير كل مكان قديم موطنَ نصرة لدعوته العصية.

ومن ثم لم يلبث فتح الله بعد ذلك أن نقل بشكل قسري من مدينة "مَنيصَا" إلى "بُورنُوَا". وبغض النظر عما ذكرنا، لم يكن ذلك بالذي يضر دعوته أو يمزقها، بل بالعكس كان رحيله إلى "بُورنُوَا" تجذيرا جديدا،

لدعوته، وامتدادا عميقا لها، فلم تكن المدينة الجديدة بالبعيدة عن إزمير، بل هي إقليم من أقاليمها.

ثم إن فتح الله أثناء هذه الانتقالات والتعيينات، شرع في إلقاء محاضرات خارج المساجد من جديد طمعا في الوصول إلى الجموع التي لا تصلي، كما أنه لم يهمل إلقاء الكلمات في المقاهي. وحيثما حل كان يجيب عن أسئلة الشباب، وما يثيره أعداء الإسلام من شُبه، في وقت كانت الفلسفات الإلحادية قد طغت وانتشرت في أوساط المثقفين والطلبة والأساتذة الجامعيين، فكان الداعية الذي قد غرف من كتب الفلسفة الغربية بشتى مذاهبها، وقرأ من الكتب المختلفة ما يربو على الأحمال الثقال يجيب عن أسئلة العصر المحيرة، ويواجه الهجومات على الدين وأهله، بل يحطم نظريات التطور الإلحادي، بما يبنيه من حجاج مبين ومنطق متين. كان القرآن الكريم هو المصدر الأساس الذي يتزود منه الرجل، وكانت آيات الله في الأنفس والآفاق، تتجلى له كتبا بارزة الكلمات والحروف، فيقرأ فيها من المعارف ما يبهر السامعين، في مجالس الوعظ والمحاضرات على السواء.

ومن ثم بدأت الدعوات تتوارد على فتح الله لإلقاء المحاضرات في هذا الموضوع أو ذاك، من شتى بقاع الوطن، حتى لم تكد تبقى محافظة من محافظات البلد الكبرى، من الغرب إلى الشرق، إلا وحاضر فيها، بل سافر سنة ١٩٧٧ خارج الحدود لمخاطبة الأتراك العاملين في ألمانيا، فجال بين كثير من مدنها الشهيرة، وألقى كلماته في أبناء وطنه، مجددا فيهم أصالة الانتماء إلى دينهم وحضارتهم.

ثم اشتغل في الوقت نفسه -على المستوى الداخلي- بكتابة المقال

الرئيس لعدد من المجلات، التي أصدرها طلابه، في مختلف التخصصات والمستويات. ومن تلك المقالات تكونت كثير من كتبه التي نشرت فيما بعد، وترجم بعضها إلى لغات أخرى.

من المدارس إلى المتارس

كانت إزمير أول محضن لمدرسة النور الجديد... لم تكن المدرسة التي أسسها فتح الله هناك في أول السبعينات من القرن الماضي مدرسة عادية.. كلا! نعم كانت مدرسة بطوريها الإعدادي والثانوي تسير في ظاهرها على نظام الدولة، وبرامج وزارة التربية والتعليم، لكنها تختلف عن المدارس الأخرى في أمر جوهري كبير، ألا وهو رجل التعليم، أعني الأستاذ أو المعلم، أو المدرِّس على العموم. هذا هو مربط الفرس! المدرِّس في مدارس محمد فتح الله معلِّمٌ حقيقة. لم تكن البرامج المفروضة من قبل الدولة، ولا الكتب المدرسية الرسمية، تسمح بأي كلمة "دِين" ينطق بها الأستاذ في فصله، وإلا كان مصير المدرسة كلها الإغلاق والمصادرة! ولكن رجال فتح الله المتخرجين من حلقته الهاربة من مكان إلى مكان، كانوا يتكلمون بأعينهم، على قدر ما يتكلمون بألسنتهم ولربما أكثر.. كانوا يحسنون لغة القلب، وكانت أشعة النور التي تلقوها من أستاذهم الكبير ذات وهج نفَّاذ، كلما نظروا في عيون الأطفال أو التلاميذ أو الطلبة الشباب نبهوا أرواحهم إلى نوافذ الروح العالية، فتشرئبّ أعناقهم إلى السماء مباشرة، فيبصرون عناقيد الجنة تتدلى فوق قلوبهم، ثم يعشقون صور الحق والجمال، ومن هناك تتعلق قلوبهم بقناديل النور. وتصبح المدارس رغم البرامج المتحجرة والقوانين القاسية شلالات للخير،

تتدفق بآلاف المتخرجين من رجال الروح، الذين ينتشرون في كل مكان، أطرًا عليا لبناء عمران الزمان الجديد.

ومن إزمير انتشرت تجربة المدارس الخضراء في كل مكان، فكانت فسائلَ حب ورسائل تبشير، احتضنها طلاب الأستاذ فتح الله، وموّلها مُحِبّوه من رجال الأعمال، الذين تنافسوا في البناء والشراء والكراء، حتى أشرفت عمارات المدارس على كل المدائن في جميع بلاد الأناضول.

كانت أنقرة وهي المدينة الصعبة، من أوائل المدن التي تأسست فيها مدارس فتح الله، بعد إزمير. وهناك إلى جانب غابات الجحيم، كانت شلالات السلام تتدفق على المدينة، ببحار الروح التي لا تنفد أبدًا. وتحولت أنقرة من مدينة مفزعة مخيفة، إلى مدينة تصدر شعاعات الروح، وترسل حمائم الحب والسلام. وما هي إلا سنوات حتى تفتحت الورود في جميع بلاد الأناضول.

الدَّوْرُ الخامس

الدَّوْرُ الخامس أو الطابق الخامس، هو في الأصل الرقم الترتيبي للطابق رقم خمسة من كل عمارة ذات خمسة طوابق فأكثر.. لكن هذه العبارة في الاصطلاح الخاص لطلاب الأستاذ فتح الله، صار لها دلالة خاصة.. دلالة ذات مضمون عميق، مكتنز بالدلالات الإيمانية والحقائق الروحية، والتعليمية، والتربوية، ومستودع لأسرار دعوة فتح الله، ومركز لتدبير شؤونها الخاصة والعامة؛ حتى إن خدمة تجديد الدين التي قادها الأستاذ فتح الله، كادت أن تكون كلها من الدور الخامس!

كانت بعض المدارس التي شجّع على تأسيسها الأستاذ، بدعم من رجال الأعمال الموالين له، تُبنى على شكل عمارات، فتجعل مدارس ذات أقسام وفصول رسمية للتعليم الخاص، إلا الدور الخامس، فقد كان أشمل من ذلك وأدقّ، إنه عرين الأسد العظيم محمد فتح الله كولن! كذلك الأمر كان، سواء في إزمير، أو في أنقرة، أو في إسطنبول.

في الدور الخامس كان فتح الله يلقي دروسه على خواص طلابه الأصفياء، في التفسير، والحديث، والفقه، واللغة العربية، وسائر العلوم. يفعل ذلك وهو في الوقت نفسه طريد شريد، مبحوث عنه...

كان الدور الخامس بالنسبة للأستاذ فتح الله، مكانا له خصوصية نفسية، وارتباط وجداني عميق، كان مقاما تشرق من شرفاته أنوار الروح. ولم يكن الرجل يغادره إلا لضرورة أمنية أو نحوها. الدور الخامس هو بالنسبة إليه كغار حراء، وكغار ثور، أو مثل دار الأرقم بن أبي الأرقم، أو شِعْبِ أبي طالب بمكة. فيه خلوته، وفيه جلوته، فيه منفاه، وفيه سجنه، فيه صحبته، وفيه مجالسه.. وقد تمضي الشهور تلو الشهور، وهو هناك، مستقر بعرينه، لا يغادره إلى غيره، حتى يتلقى إشارة أو نذارة، بضرورة الرحيل وتغيير المكان.

كذلك كان الدور الخامس في حياة الداعية الأستاذ محمد فتح الله، حتى إنّ لكَ أن تقول: من الدور الخامس صنع الأستاذ كل خدمات تجديد الدين بتركيا! ومن الدور الخامس فتح أبوابها على العالم، كل العالم!

عندما يكون جالسا هناك، يلقي كلماته المؤثرة على طلابه المخلصين، من رجال الأعمال وغيرهم كان يكفي أن يشير فتنبت أشجار المدارس هنا وهناك، وتمتلئ الفصول بأغاريد الأطفال والشبان،

يرسمون على السبورات الخضراء لوحات الأمل الجديد. وبكلمة واحدة منه تنتصب صروح لمدارس عليا أو جامعات، أو مستشفيات من الطراز الراقي، تحتضن المرضى المستضعفين من كل الجهات، أو عمارات للصحافة والإعلام المجاهد، وفضائيات تدافع صور الشر، وتبث صور الخير والجمال.

ومن ثم لم تلبث دعوة فتح الله إلا نحو بضع وعشرين سنة، حتى كانت محاطة بمتاريس من أكبر مؤسسات الاقتصاد، وأقوى أجهزة الإعلام، وأطر عليا من الرجال المخلصين لدعوتهم، ينتصبون بأكتافهم العالية في كل قطاع حيوي، أعمدة متينة ترفع صرح الأمة في الزمان الجديد!

ومن ثم أيضا استطاعت مواعظ فتح الله ومدارسه، أن تصنع قوة صوتية انتخابية، لم تشارك في العمل السياسي الحزبي قط، ولكنها كانت تسهم بدور فعال في صناعة الواجهة السياسية للدولة؛ حتى إن كل الأحزاب السياسية بشتى توجهاتها كانت تستدر عطفها، ولم يزل فتح الله في كل المواسم الانتخابية، مزارًا مقصودًا لكثير من الزعماء السياسيين، لعلهم يفوزون منه بكلمة رضى، أو على الأقل يربحون سمعة طيبة، بأنهم ليسوا أعداء لفتح الله ولا لدعوته!

انقلاب عسكري ثالث يدمر الأمان العام

الملاحظ لتاريخ الانقلابات العسكرية في تركيا الحديثة، يجد أنها ذات طبيعة عَشرية، ففي كل عشر سنوات تقريبا، يتدخل الجيش بانقلاب دموي؛ ليذكّر المجتمع ورجال السياسة عموما، بأن الكلمة الأولى في

هذه الدولة هي للقوة العسكرية، وأنه لا إمكان للتغيير نحو الأفضل!

قال الراوي:

كان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٠، كان رئيس الوزراء يومها هو الرئيس "سُليمان دِيميريل"، وأما الذي قاد الانقلاب فهو الجنرال "كَنعان إفْرين". كان انقلابا عشوائيا همجيا، فقد تم بموجبه وضع مليون وستمائة وثلاثة وثمانين شخصا ضمن لائحة المطلوبين! وتم اعتقال ستمائة وخمسين ألف شخص منهم، وحُكم بالسجن على مائتين وثلاثين ألف شخص لفترات مديدة، كما حُكم بالإعدام على خمسمائة وسبعة عشر رجلا، ونفذ الشنق في خمسين رجلا منهم![1]

كان فتح الله يدرك أن الجو الذي ساد البلاد قبيل الانقلاب، ينذر بحدوثه بشكل واضح، وكان يرى أن القارئ لأحداث المجتمع وتطوراتها، لم يكن في حاجة إلى كثير من الذكاء ليفهم بأن الجيش يبيت لشر ما، وأن لحظة الانقضاض على الحريات العامة، وخنق أنفاس الجماهير قد حانت!

كان الصراع بين اليمين واليسار قد احتدم خلال تلك الأيام، وفشا رفع الشعارات الماركسية واللينينية المتطرفة، وبدا جليا أن الساحة صارت صراعا غير مباشر بين أمريكا والاتحاد السوفياتي، معركة يؤدي ثمنها في نهاية المطاف الأتراك، سواء كانوا من هذا الاتجاه أو ذاك، وارتفع الشعار العدمي المجنون: "لنهدم أولا، ثم لنفكر بعد في طريقة البناء!" ذلك الشعار المألوف في الصراعات الأهلية لدى الدول المتخلفة.. ومن ثم كانت الأيدي الخفية تلعب بجموع الشباب في الشوارع والجامعات تمهيدا لصناعة انقلاب عسكري أهوج، أتى على الأخضر واليابس!

---

(١) جريدة "زمان" التركية، الصادرة بتاريخ: ١٢ سبتمبر ٢٠٠٩م.

كان فتح الله واعيا جدا بهذا المصير؛ ولذلك فقد كان يحذر أصحابه، وسائر أبناء التيارات الإسلامية الأخرى، من مغبة وقوعه، وخطر الاحتراق بناره.

الواعظ الطريد

بُعَيد الانقلاب مباشرة، بدأت قوات الأمن لمحافظة إزمير تطارد الواعظ الداعية باستمرار، حتى شعر بالضيق والاختناق، فطلب من إدارة الشؤون الدينية الانتقال من المحافظة كلها إلى غيرها، فعين بمحافظة "جَناقْ قَلْعَه"، لكن الأمر ازداد سوءا لما أعلن الانقلابيون قانون الطوارئ العسكري، وشرعوا في اعتقال المطلوبين، فصار الرجل مطلوبا بارزا من لدن مخابرات الجيش أيضا، على الصعيد الوطني كله... وصارت صورته الشخصية معلَّقة -كأي مجرم خطير- على سبورات الإدارات العسكرية في كل مكان!

وغطس فتح الله في أعماق المجتمع، ينتقل بين المخابئ والملاجئ، فعاش في وضعية الهارب المطلوب لمدة ستّ سنوات تقريبا! لكنه لم يفتر خلالها قط عن ممارسة عمله الدعوي، ولا عن بذل خدماته الإيمانية بكل إخلاص وإصرار.. فقد يختبئ بهذا المبنى أو ذاك، فيدخل عليه طلابه بنظام خاص، ويعتكفون جميعا هناك بضعة أشهر، يتدارسون علوم القرآن، ويدبرون أمر الدعوة؛ حتى إذا جاءت الإشارة والنذارة، ممن وكلهم فتح الله بمتابعة الوضع الأمني للمكان، تسلل الرجل مع رفقائه إلى مكان آخر، في حي آخر، أو ربما مدينة أخرى.

إشارات

في أحد الأيام كان الأستاذ ينظر خلف الزجاج الغامق إلى الأفق، من خلال نوافذ الدور الخامس الفسيحة بإسطنبول، فرأى الطيور تحوم على رأس المبنى، تذهب وتعود، ثم تطوف بالمكان بشكل غريب، تأمل فتح الله ذلك المشهد للحظات، ثم نادى على الفور طلابه: "هيا لنترك هذا المكان!". ثم تسللوا جميعا من المكان، وانتقلوا مستخفين إلى جهة أخرى، وما هي إلا لحظات حتى هاجمت الشرطة مقر الدور الخامس، وفتشته تفتيشا، فلم تفز بشيء!

وفي واقعة أخرى عندما كان الأستاذ مطلوبًا لدى السلطان كان يعاني من قروح في جسمه، كانت مؤلمة جدا، حتى إنها لتكاد تمنعه من الحركة، ولم يكن يجلس على الكرسي لإلقاء درسه إلا والألم يعتصر جسمه! فجاءه النذير من طلابه بضرورة إخلاء المكان بسرعة، لكن أنى للأستاذ المريض أن يتحرك بسرعة! وهنا أمر الرجل طلبته بالتفرق في غرف الدور الخامس ومرافقه، وبقي هو وحده في صالة الدرس الفسيحة. ثم اختبأ خلف إحدى الستائر، وبقي هناك فترة بدت له كالسنين، والألم يعتصر جسمه، والعرق يتصبب من رأسه إلى أخمص قدميه! وما هي إلا دقائق حتى هاجمت الشرطة المكان! فجعلوا يفتشون مرافق المبنى تفتيشا دقيقا، ويقتحمون الأبواب الواحد تلو الآخر، فلا يجدون إلا طالبا هنا، وطالبا هناك! لكن مقصودهم هو فتح الله، لا حاجة لهم بالطلبة الآن... جعلوا يطوفون في صالة الدرس، ويذرعونها جيئة وإيابا، ويتحدثون مستغربين اختفاء الرجل، مع أن المعلومات التي عندهم قاطعة بأنه موجود في تلك الساعة هناك. كان فتح الله خلف الحجاب يسمع كلامهم ووقع أحذيتهم

الغليظة، ولو أن أحدهم كلف نفسه الانحناء قليلا، أو مد يده فرفع ذلك الستار الصغير، لوجد فتح الله جالسا القرفصاء، يتصبب عرقا في مخبئه الصغير. وطالت مدة البحث والتفتيش، وفتح الله يتنفس بعسر داخل المخبأ، والعرق لا يزداد إلا تدفقا حتى التصقت ملابسه بكل جسمه... وأعمى الله بصيرة الشرطة عن الانتباه إلى ما قد يكون وراء الحجاب... حتى إذا يئسوا تماما خرجوا خاسئين مهزومين. ثم خرج فتح الله من مخبئه، ومشى قليلا في الصالة، فإذا به يجد نفسه يتحرك بيسر، وإذا بآلام القروح قد زالت تماما.

وليس ينسى فتح الله حادثة تدخل العناية الإلهية في حقه، وإنقاذه من الزلل بواسطة حشرة! كان ذلك منذ أيام المخيمات، كان فتح الله ساعتَها يلقي درسا على طلابه حول "معرفة الله". كانت حلقة الدرس في الغابة وسط الأشجار، وبينما هو مستغرق في شروحه وبياناته واستدلالاته، خطر بباله أن يضرب مثلا لبعض حقائق الربوبية، على سبيل البيان والتقريب، وبمجرد ما شرع في التلفظ بالأحرف الأولى، إذا بحشرة غريبة ذات أجنحة ومخالب، خرجت من وسط الغابة وجعلت تطير فوق رؤوس المجتمعين، وتطوف كأنما تبحث عن شيء. وبعد ثوان قصدت الشيخ فتح الله فحطت على فمه، ثم قبضت بأرجلها ومخالبها على شفتيه السفلى والعليا معا، ومنعَتْه من الكلام تماما! حاول الرجل إزاحتها بسرعة، فدفعها بيده، فإذا هي عالقة ثابتة، متشبثة بشفتيه، ثم أخذها بأصابعه بقوة وألقاها بعيدًا.. واستأنف درسه كأن شيئا لم يحدث. ورجع الأستاذ إلى نفس العبارات التي توقف عندها، فما أن نطق بأحرفها الأولى، حتى ظهرت الحشرة العجيبة في فضاء الحلقة مرة أخرى، وشعر الطلاب بشيء من

الخوف أن تؤذي الحشرة الأستاذ ثانية، وتحقق المحذور، فقد طارت الحشرة كالسهم نحو وجه فتح الله، فحطت بمخالبها للمرة الثانية على فمه، وأطبقت على شفتيه. وهنا قرأ فتح الله الإشارة، وأدرك أن ما أراد النطق به لم يكن تعبيرًا يليق بمقام الربوبية، فانفجر الشيخ باكيا، وجعل يستغفر ربه ويتوب إليه، ويستعيذ به أن يكون من الجاهلين.

وهذه أو تلك في حياة فتح الله كثير، فهو صاحب مناجاة وابتهالات، كثير البكاء بين يدي مولاه، يبيت متبتلا وحده، فإذا أصبح ركب حصانه وانطلق يخوض غبار المسك، يقود كتيبة الدعوة والجهاد.

ولم يزل على مقام رفيع من الورع، يتحرج من المشتبهات الصغيرة، بل يتحاشى حتى بعض المباحات غير اللازمة، إلى درجة ربما أضر بها نفسه في بعض الأحيان. ما غذّى جسمه ولا عالجه قط إلا بالطيب الحلال.. وليس ينسى خواصُّ طلابه يومَ كان يُلقي عليهم درسه بالدور الخامس، فأصابته نوبة قلبية، كانت تنتابه أحيانا، فمال على جنبه في شبه إغماء، وانطلق الطلبة كالبرق مسرعين إلى غرفته ليأتوا بقرص من دواء القلب، ولكن تبيّن لهم أن الدواء قد نفد، فأسقط في أيديهم، في هذا الأثناء كان الأستاذ يتابع حركة الطلاّب وجلبتهم في حالة أقرب إلى الإغماء، فإذا بأحد الطلبة يهرْول نحوه بقرص من الدواء وقد جاء من اتجاه مغاير لغرفة الأستاذ.. فلما وضعه بيده، سأله بصوت ضعيف: "من أين جئتم بالدواء؟" فأجابوا بأنه من صيدلية الدور الخامس الحائطية، وهي مستودع صغير وقْف على الجميع.. فأبى الأستاذ أن يأخذ الدواء رغم حرج الموقف، وكيف له أن يفعل ذلك وقد عاش طوال حياته لا يطعم شيئًا من مال الوقف ولا يجد في نفسه الحق لاستعماله. وهكذا، ظل فترة كالمغشيّ عليه يراوح الموت والحياة إلى أن كشف الله عنه الغمة بعد حين.

فتح الله في تابوت موسى!

حينما يكون فتح الله خارج الدور الخامس، قلة قليلة جدا من طلابه يعرفون مخبأه، وذلك أيام الطلب بعد انقلاب ثمانين؛ فلربما كان في شقة خالية، ولربما كان في مدرسة أخرى، أو غير هذا وذاك. مرة اختبأ في بيت أسرة من محبّيه المخلصين جدا، كانوا إخوة من كبار رجال الأعمال، وكانت لهم أم عظيمة اتخذت فتح الله كأحد أبنائها، كانت تعطف عليه كثيرا، وترعى شؤونه. فبقي بغرفته المخصصة له هناك فترة، إلى أن أذن الله له بالخروج.

ذات يوم كان فتح الله في مخبأ مجهول، بعيدا عن الدور الخامس، كانت الظروف عصيبة جدا، وكان الوقت ليلا، وكان هناك طارئ مستعجل يهم الدعوة، لا بد من القضاء فيه بعقْد لقاء مع خُلّص طلابه، للتشاور من جهة والتحقق من الأخبار والمعطيات من جهة أخرى، قبل الحسم في الأمر. الإخوة كلهم في الدور الخامس، وفتح الله في مخبئه السري، ولا يمكن أن يعقد اللقاء حيث هو، فقرر المغامرة والالتحاق بالاجتماع في الدور الخامس!

في نحو منتصف الليل، وقفت شاحنة صغيرة بباب المخبأ السري، ونزل منها نحو ثلاثة من طلاب الأستاذ، من أصحاب سره، وخاصة أمره، فدخلوا عليه. كانت هناك بالبيت أريكة من النوع الذي ينفتح فيتحول سريرًا، فإذا جُمعَ صار أريكة. قام فتح الله يبسطها فبدا من تحت السرير درج طويل، على قدر السرير، تُخزن فيه الوسائد والبطانيات، فأخلاه فتح الله بيديه، ثم اندس داخله ممتدا على جنبه، وأمر طلابه بإغلاق السرير، فتحول إلى أريكة مرة أخرى، وبقي فتح الله داخل تابوت. وحمل الطلبة

الأريكة على أكتافهم، حتى وضعوها على متن الشاحنة الصغيرة، ثم جلسوا هم فوق الأريكة، مصطفين على مقاعدها، وأستاذهم يرقد من تحتهم. وانطلقت الشاحنة تجوب بهم شوارع إسطنبول، يعبرون الحواجز الأمنية هناك وهنا، دون أن يرتاب منهم أحد، حتى وصلوا باب الدور الخامس، حيث مكان الاجتماع، فنزل الطلاب وحملوا الأريكة على أكتافهم مرة أخرى، ودخلوا بها إلى داخل المبنى، وعلى باب المصعد الخاص، فتحوا الأريكة، فخرج فتح الله من تحتها بسرعة، وارتقوا نحو الدور الخامس، ليفاجؤوا المجتمعين بما لم يخطر لهم على بال، وتم اللقاء في أمان الله.

الدرس الهارب والقبض على فتح الله

والشيء العجيب من ذلك كله، هو إصرار الأستاذ على إلقاء درسه العلمي، مهما كانت الظروف. فكم مرة كانت السيارة الهاربة التي يركبها الشيخ مع طلابه، هي الفصل الدراسي الذي يلقي فيه درسه. فهناك طالب يسوق، وآخرون في الخلف أو في الأمام يستمعون، والأستاذ بينهم يشرح ويفسر مطمئنا، وكأنما هو في حلقة الدرس بمسجده أو بمقره في الدور الخامس. ولم يزل المعلم المجاهد على تلك الحال العجيبة، إلى أن قُبض عليه في مدينة "بورذوز" في اليوم الثاني عشر من شهر يناير، سنة ١٩٨٦.

وبعد استنطاق طويل، سيقَ إلى إزمير مركز نشاطه الدعوي، ليحاكم هناك. لكن قدَرًا رحمانيًا تدخّل فأطلق سراح فتح الله!

ذلك أن الجيش خلال تلك السنوات العجاف، كان قد أعلن عن

عهد ديموقراطي جديد، وسلم السلطة مرة أخرى إلى المدنيين. فحمَلَت الانتخابات العامة إلى رئاسة الوزراء الرئيس "تُورغُوطْ أُوزَال".

تُورغُوطْ أُوزَال كان رجلا يحمل قلبا ينبض بالخير.. وكان لفتح الله صلة به قبل ذلك بزمن قديم، فقد سبق للرئيس أن شرب من كؤوس الواعظ الداعية، في مجالس صحبته، وتلقى من مواعظه نفحات من بصائر الروح جعلت قلبه يستبطن إيمانا خفيا، صَحِبَهُ طيلةَ حياته السياسية، سواء وهو رئيس للوزراء، أو وهو رئيس للجمهورية فيما بعد. فقد كان أول رئيس يصلي الجمعة علنًا وبشكل رسمي. واستطاع بحنكته السياسية، وبما ربط من علاقات خاصة مع دول الغرب؛ أن يضغط على الجيش، ويلجئه نسبيا إلى التزام ثكناته العسكرية! وحقق بذلك مكاسب من الحريات العامة غير مسبوقة في المجتمع التركي. وقد كان لعهده السياسي أثر لا يخفى على حرية العمل الإسلامي، وانتشار الخير في كل مكان، إلى أن مات فجأة في ظروف غامضة، تغمده الله برحمته.

الرئيس تُورغُوطْ أوزَال، بمجرد ما حدث اعتقال الشيخ فتح الله، كان الخبر عنده في مكتبه. وفي منتصف تلك الليلة نفسها، جمع الرئيس كل الوزراء، وأصدر بلاغا حكوميا حول الأستاذ فتح الله، يبرئه من كل ما يمكن أن يتابع به أمنيا. وهناك أطلقت قوات أمن إزمير سراحه فورًا.

واستغل فتح الله هذا الانفراج المؤقت، فجعل يطوف البلاد، ويتنقل بين المدن، يتفقد أصحابه ويثبت رجاله، ويطور من خدماته الإيمانية؛ بما يجعلها عصية على الإبادة أو الابتلاع. حتى إذا كان اليوم السادس من شهر يونيو من السنة نفسها، انطلق قاصدا حج بيت الله الحرام للمرة الثانية في حياته. وأثناء وجوده بأرض الحجاز، أُحْدِثَتْ فتنة سياسية في تركيا،

وُرِّطَ فيها بعض الأشخاص المعروفين بانتمائهم للعمل الإسلامي، فأبت الجهات الأمنية المتربصة إلا أن تُقحم الأستاذ فتح الله في هذه القضية، رغم براءته منها بشكل واضح، ومن ثم استصدر قرار القبض عليه مرة أخرى!

ورغم أن المرافقين للأستاذ من طلابه وأصحابه نصحوه بالبقاء في المدينة المنورة، إلا أن الرجل أبى، وقرر دخول تركيا! فدخلها مستخفيا عن طريق البر، عبر الحدود السورية. ثم سافر سرًّا حتى مدينة إزمير في غرب البلاد، وهنالك سلّم نفسه إلى أمنها، لكن المحكمة سرعان ما حكمت له بالبراءة مرة أخرى فأُطْلِق سراحه.. وانطلق فتح الله يلقي مواعظه بين المساجد مرة أخرى..

لقد كانت دعوته في هذه المرحلة قد تأصلت في المجتمع التركي، بحيث يستحيل القضاء عليها أو إبادتها. كانت مؤسساتها العلمية والاقتصادية والإعلامية، قد سيطرت على الساحة تماما أو كادت. كان الأستاذ يرى بعين بصيرته أرجل الأخطبوط الأسود، تمتد نحوه شيئا فشيئا، لتقبض عليه مرة أخرى هنا أو هناك، فلم يزل يحتفظ بحذره اليقظان ولو نام الزمان!

شاعر البطولة والأحزان

كان فتح الله في تلك المرحلة العصيبة كثير الخلوات، يتأمل حال أمته ويراقب صيرورتها، ويتذكر المجد العثماني الذي كان، والمآسي التي تعرض لها من قِبَل أعدائه في الداخل والخارج، ثم يتفكر في النكبات الرهيبة التي توالت على الشعب التركي بعد ذلك! فيلتقط درر الحكمة وهو يبكي.. وفي ذلك كتب فتح الله كثيرًا من أشعاره.

ذات خلوة مع نشيج الروح، جعل يتذكر الأيام الدامية، فيضمد جروحَه بجروحها.. ثم يكتب من مداد دمائها ودموعه شعرًا ملتهبا، عن فارس الخلافة العثمانية، ذلك البطل الذي فتح غرب أوروبا حتى حدود النمسا! فوطّن فيها دين الإسلام، وأخرجها من الظلمات إلى النور.. لكن قوى الغرب المخادعة، لم تزل تراقبه من وراء جُدُرِهَا، حتى إذا رأته غفًا تسللت إليه، واغتالته في قلب عرينه، فسقطت الخلافة العثمانية.. لكن الحنين للدين استيقظ بأحرار الشعب التركي، فجاهد لاسترداد الكنز المفقود. وبينما هو في بداية الطريق، جاء الانقلاب العسكري الأول، سنة ١٩٦٠م من القرن الميلادي الماضي، فحطم آمال الجماهير، وبكى فتح الله كثيرًا.. وعن هذا وذاك كتب شعره الملتاع "روح الأمّة":

قال يستنهض فارسه المغتال:

فارسٌ كان هنا.. في ذاك السفح دفنوه،

سلبوا قَمِيصَهُ، ومزقوا الكفَنَ!

ثم حذَّروا: لربما ينهض من جديد..!

فأثقلوا جَدَثَهُ بوابل الحجارة..!

فارسٌ كان هنا.. في ذاك السفح دفنوه..

يا فارسي! هلاَّ حَدَّثْتني عمَّا جرى..؟

هلا حدثتني بروحك المهموم،

فالوطَنُ مغموم،

فاجلِس معي ولْنَبْكِ جُرحَنا.. ولْتَكْتوِ قلوبُنا بالنار!

يا فارسي! هلاَّ حَدَّثْتني عمَّا جرى..؟

ألا تسمعني؟.. فابعث بهاتف إليّ !
فإنني منذ سنين وأنا أُسلِّي أملي
بطيفك الجلي!
عساك في غد تأتي إليّ
ألا تسمعني؟.. فابعث بهاتف إليّ !

فإنني مُدْثِرٌ بخجلي، من خَورِ السنين،
قلبيَ المَشوقُ آملاً ينتظر لقاك،
يرقى إلى السماء عاليا لحين
وعلى الثرى يحبو من ضعفه لحين
فإنني مُدْثِرٌ بخجلي، من خَورِ السنين،

كل مكان منقوض مهدوم..
هذا عيد البوم!
تحطمت كل الجسور ههنا فلا عبور..
جفت عيون الماء، فليس لها سقاء!
وانقطع المسير
كل مكان منقوض مهدوم..
هذا عيد البوم!

إرادةٌ مُزعزَعةٌ.. وأَنفُسٌ مَصْدُومةٌ مُرَوَّعةٌ!
الأشقياء سلبوا شهادة التاريخ

فهذه أخلاقنا تمشي على عَطَبٍ،
قد انقلبتْ رأساً على عَقِبٍ..
فليس للمقدّسات في البلاد من مجير،
إرادةٌ مُزعزَعةٌ.. وأَنفُسٌ مَصْدُومةٌ مُرَوَّعةٌ!

ألاَ يا فارسِي انبعثْ!
كما أنت في قصص الأحلام والرؤى..
أَقدِمْ مع الفجر الجديد راكبا حصانَك الأبيض
الآن أُغمض عَينَيَّ فأراك بعيون الروح،
فانبعثْ يا فارسي وحقق القدوم
كما أنت في قصص الأحلام والرؤى.(1)

فتوحات آسيا الوسطى

في تلك الظروف كان الاتحاد السوفياتي البائد قد انهار، وتمزقت أشلاؤه، فخرجت الجمهوريات المسلمة، التي كانت ترزح تحت أغلاله دهرًا ليس باليسير، حائرة مضطربة. فكان أن انتبه الأستاذ فتح الله إلى هذا، فألقى درسه التاريخي بمسجد السليمانية في إسطنبول، وذلك في شهر نوفمبر ١٩٨٩، حيث شجع رجال الدعوة الأتراك ورجال الأعمال المساندين على نقل خدماتهم الإيمانية إلى جمهوريات آسيا الوسطى، والهجرة إلى دولها المختلفة، مثل كازاخستان، وأذربيجان، وتتارستان،

(1) من ديوانه: المضراب المكسور. (النص مترجم)

ونحوها. خاصة وأنها دول كانت لها صلة بالدولة العثمانية من قبل. وفي زمن وجيز كانت المدارس والشركات التركية، قد تأسست وانتشرت في كثير من دول المنطقة، بل بلغت إلى العمق الروسي المخيف، فتأسست مدارس في موسكو وغيرها من المدن في أنحاء العالم.

عام حزن جديد

في اليوم الثامن عشر من شهر أبريل سنة ١٩٩٣، كان فتح الله متكئا على سريره بمقره في الدور الخامس، كان يبحث عن لحظة للراحة من تعب الطريق الشاق الطويل، عساه يستعيد ما ضاع منه من قوة، من أجل إعداد ما يجب إعداده لإنشاء الغد. وبينما هو كذلك إذ سمع نقرًا خفيفا في زجاج النافذة، ظن في البداية أن أطفال خادمه الخاص، يلعبون بأشيائهم الصغيرة بالقرب من باب غرفته، ولكن النقر ازداد بإلحاح، وبشكل منتظم مثير، فرفع فتح الله رأسه إلى النافذة عند رأسه، فإذا به يرى من خلفها حمامة بيضاء تنقر الزجاج بمنقرها الرشيق نقرًا، نظر إليها ونظرت إليه، ثم طارت، وأسرع الرجل في الحين إلى سماعة الهاتف، فاتصل ببعض أصدقائه، فأخبروه على التو بأن رئيس الجمهورية السيد تُرْغُوطْ أُوزَالْ قد مات! وأرسل فتح الله برقية تعزية، تعبر عن بعض الأسى والألم، الذى أحدثه جرح وفاة رئيس، كان له من الوفاء للأمة ما لم يكن لغيره من قبل!

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو من السنة نفسها، توفيت والدة فتح الله، السيدة رفيعة هانم، بمدينة إزمير حيث كانت تقطن مع

أبنائها الآخرين... وهناك أَمَّ فتح الله صلاة الجنازة على والدته. وكما لم يكن من السهل على الرجل مفارقة والده المربي الممتاز، لم يكن من السهل عليه أيضا مفارقة أُمٍّ عمرتْ قلبه بروح القرآن! ويكفي أن نقول في وصف هذا الفقدان الأليم: إن قلب فتح الله لم يزل بعدها -وهو في كهولته وشيخوخته- يشعر باليتم من جهتها! فكانت تلك السنة بحق عام حزن آخر في حياة الأستاذ فتح الله.

فتح إسطنبول

إسطنبول هي أم المدائن، مَنْ مَلَكَهَا مَلَكَ الأرض كلها، ومن خسرها خسر الأرض كلها..!

عندما حاصرها محمد الفاتح، كان لحصاره مراحل ومكابدات، ثم جاء نصر الله والفتح.. ومن قبله جاهد الصحابة والتابعون، وقرونٌ من المسلمين لفتحها، ولكن قدّر الله له إبّان.

عندما حل عصر الظلمات، كانت إسطنبول في حاجة إلى شهقة من نور...

البَكّاءُ الوحيد في هذا الزمان هو محمد فتح الله كولن... لم يكن بكاؤه عويل عجز، ولا ندب يأس، ولكنه كان لغة أخرى... لغة تقدح النور في الصخر المطل على العالم من على مشارف الجبال الشاهقة... فإذا الطيور تقذف من حناجرها بروق البشائر الكاشفة لزمن الظلام!

كان يوم السادس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٧٧... أول موعد لومضة البرق الأولى في إسطنبول.. وكان الحَمَام على موعد مع

بكاء فتح الله في مسجد "يني جامع"، أو "الجامع الجديد". هناك على شاطئ البوسفور، ومن خَلْفِ عشرات المآذن القديمة، والقباب المحتضنة للألم العتيق؛ هناك قذف فتح الله شهقة النور الأولى في عصر الظلمات الأخير.. فإذا بالنوارس تتلقف وميضَها لهبًا يهيج أحزان التاريخ... ويضرب البرقُ كل آفاق إسطنبول، فتفزع خفافيش الظلام في كل مكان!

تلك كانت جرعة أولى، ثم عاد فتح الله إلى حصنه الأول في إزْمير... لكن إسطنبول ذاقت جمال النور، فجعلت المآذن والقباب تهتز أجنحتها شوقًا إلى البُكاء الشهي، وفتح الله أب رحيم، تهزه أنات المستضعفين، فلا يملك إلا أن يستجيب لكل أذان خَرَق جدران القلوب: أن "يا خيل الله اركبي"!

ويركب فتح الله أهوال الليل، فيرحل إلى إسطنبول مرة أخرى... وينزل ضيفًا على باحات المساجد السلطانية، الواحد تلو الآخر، "مسجد السُّلطان أحْمَد" العظيم، و"مسجد السُّلَيْمانيّة"، ومسجد "والدة السُّلْطان".. إلخ. ثم يجد الجماهير المؤمنة العطشى تمد أكفها مزدحمة على منبر الوعظ، وهي تنتظر تدفق صنبور النور، فتغرف من شهيق فتح الله في كل مساجد إسطنبول، حتى ما بقي نورس أو حمام لا يعرف نغمة نوحه الجميل. وأنبتت دعوة فتح الله أشجارها في كل أرجاء إسطنبول، وتشابكت الأغصان تحتضن مدارس الخير بين عمران المدينة الأميرة، ومن ثم بدأ النور يمتد إلى كل بلاد الأناضول، حتى لم يبق مكان إلا سكنه وجد الشوق إلى ميلاد الصباح.. وصارت المدائن والقرى تتجاوب مواجيدها، أصداءً تتبادلها الجبال والشطآن، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

ثم صارت إسطنبول عاصمة حقا، وفتح الأمير الجديد الباب العالي

من جديد... وأبت عاصمة الروح إلا أن تحتضن كرسي القيادة للإشراف على خدمة الدين في كل البلاد. ومن ثم فمنذ سنة ١٩٩٦، رحل الأستاذ فتح الله من إزمير إلى مدينة إسطنبول بصفة نهائية، وتربع على كرسي الدرس بمقر إقامته الأثير، في الدور الخامس. ومن هنا صارت الكتائب والسرايا كلها، تنطلق نحو مغازيها من مدينة إسطنبول. وماذا غير إسطنبول من المدائن قدير على إيصال صوت الفجر إلى كل العالم؟

الحوار الوطني

فتح الله الآن شخصية وطنية كبرى، ليس من السهل الوصول إلى إيذائه، ولا من السهل مصادرة حريته، رغم أن الأعداء لم ييأسوا قط في تدبير المكائد والمؤامرات ضده. ومن ثم فمنذ سنة ١٩٩٦ استطاع أن يدشن حركة حوار وطني كبرى، على صعيد القطر التركي، حيث بدأ يعقد صلات مع الأقليات من أهل الأديان الأخرى، مثل الكاثوليك والبروتستانت والأرتودوكس، وطائفة الأرمن وغيرهم. وامتدت علاقته إلى رؤساء الأحزاب السياسية من اليمين إلى اليسار، من خلال حوارات، كان لها أثر كبير في تخفيف الضغط على الدعوة الإسلامية بتركيا، وتيسير أمر الخدمات الإيمانية المنتشرة في كل مكان. وفي هذه الفترة أسس الأستاذ ما سماه بـ"وقف الصحفيين والكتاب"، الذي كان وراء تنظيم مؤتمرات للحوار، وتبادل الأفكار، وعرض وجهات النظر المختلفة. فكان هذا المكان الذي رأسه الأستاذ فتح الله، مظلة واسعة لاجتماع عدد من أبرز رجال الثقافة والفكر، والكتاب الأتراك، من كل الاتجاهات الفكرية والسياسية، كما كان مناسبة لالتقاء رجال، ما كان ليلتقوا لولا هذا الوقف

الأول من نوعه في تاريخ تركيا! وصار لفتح الله بذلك فضل عظيم في الجمع بين المختلف، والتقريب بين المتباعد، وتكوين جو من التعايش السلمي بين الأطياف المتناحرة على المستوى السياسي والأيديولوجي والطائفي. فَضْلٌ لم يزل فتح الله يُذكر به على الصعيد الوطني وفي الأوساط الفكرية والسياسية خاصة. وتصدرت شخصية الواعظ الداعية واجهات الإعلام المختلفة، من خلال الحورات واللقاءات، سواء على الصعيد المحلي بتركيا، أو على الصعيد الدولي والأوروبي خاصة.

ظلم ذوي القربى!

فتح الله فارسٌ يجيد الانطلاق في أعماق الذات المؤمنة، كما يجيد الانفتاح على كل البشرية؛ فقد كانت الحوارات التي دشنها داخليا وخارجيا، مَتَارِسَ قوية، حفظت دعوةَ الإيمان بتركيا من كثير من الطعنات والضربات القاسية، بل فتحت لها كثيرا من الأبواب المغلقة، في الداخل والخارج على السواء. لكن قليلا من الناس يومها كان يفهم مسلكه، حتى من بعض المنتسبين لصف العمل الإسلامي؛ بل من قيادات جماعات أخرى وأحزاب إسلامية، وبعض مشايخ الطرق الصوفية! فهاجموه بوابل من النقد القاسي، على صفحات الجرائد وفي التجمعات. وعندما التقى الرجل ببابا الفاتيكان "جون باول" في حوار تاريخي مثمر، كفَّروه... واتهموه بالدعوة إلى التنصير، كما اتهموه من قبل بمصالحة العلمانية، والركون إلى الذين ظلموا. وحينما سافر إلى أمريكا اتهموه بالعمالة للمخابرات الأمريكية. أما لقاؤه العلني مع البابا فقد كان مفتاح خير

لخدماته الإيمانية، في كثير من دول أوروبا، وأمريكا، كما كان ترسا قويا في وجه الهجمات العلمانية، المحاربة للدين في الداخل التركي.

وفتح الله رجل مظلوم مرتين، ظلمه الطغاة من جهة، وظلمه إخوانه العاملون للإسلام في التنظيمات الأخرى. لكن أشد الظلم على نفسه الجريحة، كان هو ظلم إخوانه! ولم تزل مواجعه تنطق بحكمة الشاعر العربي القديم:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً

عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ!

عاصفة شُباط:
انقلاب عسكري رابع، أحرق كل الهواء!

اليوم الثامن والعشرون من شهر فبراير ١٩٩٧م لم يكن يوما عاديا في تاريخ تركيا، بل كان يوم انطلاق عاصفة سياسية رهيبة، أتت على الأخضر واليابس، عاصفة تولى كبرها الجيش في صورة انقلاب منجهي شامل، انقلاب من طبيعة أخرى، تسلط على الحكومة المنتخَبة، وأرغمها قهرًا على توقيع قوانين وإصدار قرارات، وحصل منها على تفويضات، حاصرت العمل الإسلامي من كل جهاته، وخنقت أنفاس التدين في المجتمع التركي، خنقا أدى إلى تدمير كثير من المكتسبات التي حققتها الدعوة الإسلامية طيلة عقود من الجهاد والتضحيات.

كان رئيس الجمهورية آنذاك هو سليمان ديميريل، زعيم الحزب الديموقراطي سابقًا. وأما رئيس الوزراء فقد كان هو الزعيم الإسلامي

المشهور البروفسور نجم الدين أربكان. سليمان ديميريل كان مواليا للجيش، متواطئا مع الانقلاب المنهجي، وأما نجم الدين أربكان فقد أدى ضريبة مسلكه السياسي، حيث تم إرغامه تحت التهديد على توقيع قوانين ظالمة في حق الدين والوطن، فصدرت القوانين تمنع كل مظاهر الدين في المؤسسات الرسمية والخاصة، كما تم بموجبها طرد مئات المتهمين بالصلاة من ضباط الجيش، أو المتهمين منهم بتحجب زوجاتهم أو حتى أمهاتهم، أو بأي شبهة تربطهم بالدين ولو من بعيد. فشردت المئات من الأسر بصورة تعسفية. وحُرِمَ على كل محجبة أو رجل متدين أن يدخل في أي من وظائف الدولة ومؤسساتها، بل مُنعت المحجبات من حقهن في الدراسة من الثانوية إلى الجامعة! وكانت الفتيات يخيرن بين نزع الحجاب لمتابعة التعليم أو الانقطاع عن الدراسة!

وفقدَ كثيرٌ من الأطباء وظائفهم، وأساتذة جامعيون، ورجال قانون، وأطر أخرى من رجال الإدارة في مختلف الوزارات. ثم حُلَّ حزب الرفاه الإسلامي، بل حتى الطرق الصوفية منعت من ممارسة أنشطتها، وامتدت نار العاصفة إلى برامج التعليم، وقوانين المدارس والجامعات، فأحرقت ما كان بقي فيها من أوراق خضراء. وصارت الحياة داخل تركيا جحيما لا يطاق! وفعلا لقد غادر الوطنَ بعض العلماء والدعاة المربين، مفضلين المنافي البعيدة على البقاء في لهيب العاصفة. وفُتحت المحاكم ضد آخرين، وامتدت سلاسل الاعتقال إلى كثير من نشطاء العمل الإسلامي في مختلف الاتجاهات والجماعات.

وخسرت تركيا الشيء الكثير في العاصفة المشؤومة، عاصفة امتدت تداعياتها لعدة سنوات، وإنما تسببت فيها ممارساتٌ هوجاء لبعض

الإسلاميين، بما رفعوا من شعارات مستفزة للعلمانية الشرسة، وتصريحات نارية تهدد وتتوعد بالأبواق الفارغة عدوا خطيرًا، عدوا أخطبوطي الأذرع محليا ودوليا، لا قدرة لها البتة على مواجهته ولو لساعة واحدة! وكذا بما مارس زعماؤها من أنشطة غير محسوبة النتائج، في الفترة التي أتيحت لهم الفرصة لإدارة شؤون الدولة، لفترة قصيرة محدودة، انتهت بهذا الانقلاب المنهجي الشامل الرهيب!

أما خدمات محمد فتح الله فقد حوصرت في كل مكان، ومن كل الجهات، وكثر التفتيش على المدارس التي حث على إنشائها وعلى سائر المؤسسات. لكن الرجل استغلّ مرضه بشرايين القلب للسفر إلى أمريكا قصد العلاج فخرج من البلد في شهر مارس ١٩٩٧، وبقي هناك لمدة سبعة أشهر، فلما شعر بنوع من الانفراج في الحياة السياسية بالبلد، عاد إلى وطنه لمواصلة جهاده، وتفقد ما أصاب خدماته من التصدع أو الاضطراب. لكن خفافيش الظلام صاروا يطاردونه من جديد، وفتحوا ملفات قضائية ضده، وأبرقت الإشارات إلى أن الرجل صار مهددا بما يقضي على حياته نهائيا، ربما باغتيال، أو بإعدام ظالم، كما وقع من قبل لعدد من الزعماء السياسيين والروحيين.

كانت الإشارات والنُّذُرُ هذه المرة قوية خطيرة! ولكأن خطط الاغتيال صارت منه قابَ قوسين أو أدنى! ومن ثم قرر فتح الله الرحيل إلى منفاه بأمريكا مرة أخرى، فخرج من البلد تحت ذريعة السفر للعلاج، في الواحد والعشرين من شهر مارس من سنة ١٩٩٩م، لكنه هذه المرة خرج ولم يعد..!

دَوْرٌ خامسٌ في المنفى

ومِنْ على رأس جبل بعيد، في منفاه العالي، بالولايات المتحدة الأمريكية، في مخيم مُنْدَسٍّ بين الأشجار، بولاية بَانْسِيلْفَانْيَا، صار محمد فتح الله ينظر ليس إلى بلاد الأناضول فحسب، ولكن إلى كل قارات العالم! وعلى مدى نظرته الممتدة إلى البعيد، كانت طيوره الذاكرة تهاجر، وكانت سراياه المجاهدة تسابق أشواقها إلى الجنة!

مخيم بَانْسِيلْفَانْيَا دَوْرٌ خامس أيضا، رغم أن البناية ليست ذات أدوار. ولكنه "دور خامس" بالمعنى الاصطلاحي الذي صار للعبارة عند طلاب الأستاذ، فأينما سكن أوى إليه فتح الله فهو دور خامس، ولو كان كوخا؛ لأن كل وظائف الدور الخامس تنقل إليه. فمن هناك بدأ النور ينطلق إلى كل أنحاء العالم، وإلى هناك صارت الوفود تشد الرحال، سواء من طلاب الأستاذ، أو من رجال الخدمة الإيمانية، أو رجال الأعمال. وفود مختلفة تتقاطر لزيارة الأستاذ المربّي، كأنها خلايا نحل مهاجرة، تَعبرُ المحيط الأطلسي ذهابا وإيابا. ولم يزل الشيخ كما كان، يلقي دروسه في علوم القرآن على صفوة من طلابه.

وارتقت علاقات الداعية فتح الله لتمتد إلى المؤسسات العلمية، والجامعات الأمريكية، فصارت له لقاءات وحوارات مع الباحثين الأكاديميين، والأساتذة الجامعيين هناك. واستطاع الرجل أن يؤسس بواسطة طلابه الأكاديميين، كرسيا علميا للدراسات الإسلامية، باسم بديع الزمان النورسي، في جامعة "جون كارول" بمدينة "سليفيلاند" الأمريكية، يشرف عليه باحثون أتراك. ومن خلاله يتم تأطير بحوث الماجستير والدكتوراه، وعقد ندوات ومؤتمرات علمية.

ولم يزل فتح الله بمنفاه الصغير -الذي لا يغادره إلا إلى المستشفى لفحص صمامة القلب- يتلقى الوفود من الأكاديميين الكبار، وبعض رجال الدين المسيحيين، الذين أعجبوا بشخصيته، ذات العمق الفكري والسمو الروحي العظيم.

في البدء لم يكن مُقام فتح الله بأمريكا بالأمر اليسير، كلا! بل كان الرجل شخصا غير مرغوب فيه، ولم تكن السلطات تقبل عذر حاجته المستمرة للعلاج؛ لتسلمه تصريحا رسميا بالإقامة، فكانت تماطله وتمانعه، وكان هو يضغط بوسائله البسيطة يومئذ، فيجددون له الإقامة لفترة وجيزة، حتى يضطر لمغادرة البلاد. لم يكن هذا القرار بعيدا عن تأثير القوى الخفية في تركيا، وآخرين ممن يحاربون دائما من وراء جُدُرٍ! فالأذرع الخفية للأخطبوط الأسود ما تزال تلاحق الرجل في كل مكان!

لكن الداعية المحنك لم يلبث أن بدأ يلتقي بمن جاء إلى الولايات المتحدة من الأتراك للتجارة أو الدراسة، وكذا محبيه من رجال الأعمال المهاجرين. ثم صار يحثّهم إلى زراعة المدارس في كل مكان من ربوع أمريكا، وإلى عقد الصلات مع المؤسسات العلمية، والأكاديمية، ورجال الثقافة والفكر، وكذا رجال الدين، وسائر شخصيات المجتمع المدني المحترمة في أمريكا؛ لكسر حاجز العزلة عن الجالية المسلمة من الأتراك، وعن الفكر الدعوي الحضاري المسالم، الذي يتبناه الأستاذ الداعية محمد فتح الله كولن. وعُقدت هنالك ندوات لدراسة فكر الرجل، وبيان منهاجه في الفهم للدين والحوار مع الآخر، شارك فيها باحثون أتراك وأكاديميون أمريكيون.

هذا، ورغم ذلك كله لم تزل الجهات الحاقدة في تركيا تمارس عاداتها المعروفة، وتجهز الملفات تلو الملفات لمحاكمته وإدانته وهو في

غربته القارسة؛ قطعا لكل أمل في عودته إلى أرض الوطن! ولكن الرجل عاد منذ زمان وهم لا يشعرون! فطيفه يعبر كل شوارع بلاد الأناضول وهم لا يبصرون! وصوته ملء كل المجالس في صالونات الأتراك! لا تنعقد جلسة إيمان إلا وهو حاضر فيها! فأنى لرجل مثل هذا أن تحاصره خفافيش الظلام؟

الفتح الأكبر:
وانكشاف السر المكنون

وأصبح فؤاد أم موسى فارغا!

فلم يكن من السهل على طلاب فتح الله في إسطنبول، ولا في كل بلاد الأناضول أن يبتلعوا خروج أستاذهم محمد فتح الله من البلاد. لقد كان الرحيل قاسيا، وكان أثره في البداية مزلزلا، لكن صرح الدعوة كان رغم ذلك أقوى من يتعرض للتصدع بله الانهيار بمثل هذا الحدث وإن كان جسيما! نعم لقد اهتزت صوامع إسطنبول وقبابها، ولكنها لم تسقط! فلقد بنى فتح الله خدمته الإيمانية على نظام المؤسسات، وجعلها قلوبا تنبض بحب الله ومعرفته، ثم ربطها بحبل السماء ورحل. صحيح أن شخصيته كانت محورًا فكريا رئيسا للدعوة، وموردا روحيا متفجرا بالأشواق، ترتوي منه ملايين القلوب العطشى، لكنه مع ذلك كان واعيا تمام الوعي بأن الأشخاص لا بقاء لهم إلا بالله، ومن ثم ربط دعوته كلها بالله، فعاش لذة الحضور في ألم الغياب.

فمن إسطنبول إلى كل بلاد الأناضول، انطلقت أشرطة "هُوجَا أَفَنْدِي"،

اللقب المفضل عند الأتراك للأستاذ محمد فتح الله كولن، وهو لقب بمعنى: "السيّد الأستاذ"، أو نحوها من العبارات. انطلقت الأشرطة تجوب الأزقة والدروب، وتومض بأسطواناتها من على رفوف المكتبات، حتى لم تكد تترك بيتا ولا متجرا إلا دخلته، وأشعلت بين أضلاعه لوعة الأشواق!

وتفجرت أصداء كل المواعظ والدروس التي ألقاها فتح الله تحت قباب المساجد السلطانية وغيرها، منذ أن بدأ خدمته الإيمانية، إلى ساعة هجرته البعيدة.. فصارت تعمر كل فضاء البلاد.

ولقد عجبتُ يا سادتي كيف أن الأصداء القديمة لكلماته الفوارة، انبعثت مواعظ حية، كأنما هي الآن تُلقى من على منبر هذا المسجد أو ذاك! ولقد رأيتُ الناس يتوافدون على بوابات الجوامع الكبرى أفواجا، وللطيور اصطفاف عجيب على شرفات المآذن والقباب.

وصار لفتح الله ألف طيف وطيف، وغدت مواعظه أرغفةً تغذي ملايين الفقراء والمستضعفين من الأتراك في العالم! وسُقِطَ في أيدي الجبناء، وارتدت خفافيش الظلام إلى جحورها مذعورة من تدفق النور.

لم تكن مجردَ مواعظ، بل كانت بما بث فيها صاحبُها من أشجان، مرايا يتجلى عليها الزمان القديم، وهو يتدفق بكل عنفوانه في الحاضر اليقظان!.. كان التاريخ يزهر حدائق خضراء في قلوب الآلاف من المستمعين المزدحمين على مصادر الأصداء كطير داود اللاهجة بالأذكار.. كان بكاء الواعظ فتح الله يهيج شهيق الخيول الأصيلة، فيرتفع الصهيل مكبّرًا في كل مكان!

ويَصُفُّ الأميرُ كتائبها الواحدةَ تلو الأخرى..

ها هي ذي واقفة بين يديه، تلقي تحية السلام والإذعان، وتنتظر إشارة الانطلاق إلى أرض الله الواسعة، فهذا زمان فتوح البلدان بفتوح القلوب.. فالتاريخ الآن يصب في المستقبل المشرق بآلاف البشائر..!

ثم كبّر فتح الله!

- الله أكبر..!

وانطلقت الجياد الأصيلة، وماء الوضوء ينتفض من أعرافها المشوقة بريح الجنة.. كانت الكتائب تنطلق مأذونة، الواحدة تلو الأخرى..

ولقد رأيتُ يا سادتي، لقد رأيت..

رأيتُ الكتائبَ من كل فارس عالي الهمة، مشرق الجبين، رأيتها تنطلق نحو كل قارات الأرض!

كتيبة خالد بن الوليد، وكتيبة علي بن أبي طالب، وكتيبة القعقاع بن عمرو التميمي، وكتيبة عمرو بن العاص، وكتيبة أبي عبيدة بن الجراح، وكتيبة سعد بن أبي وقاص.. وكتائب أخرى من جيل النور الأول، لم يكن يحجبها عني سوى كثافة الشعاع!

ثم رأيت كتيبة عقبة بن نافع، وسمعت صهيل حصانه الكريم يقصف موج المحيط! وشاهدت خيول طارق بن زياد، ورأيت سفنه ترسو على صخور الأندلس، ثم تحرق أشرعة الهزيمة والفرار.. ورأيت النصر يتقدم في الزمان الجديد، أمنا وسلاما على كل العالم.

ورأيت كتيبة صلاح الدين، وشاهدت فتيان فلسطين بين يديه، ينسفون رماد العجل في اليم نسفا، وينهون غطة الكابوس الذي كان.

ورأيت كتيبة محمد الفاتح، تعلن تحقق الوعد المحمّدي، وشاهدت

النور يتدفق نحو جميع جهات الأرض، فلم يَبْقَ بَيْتُ وَبَرٍ ولا مَدَرٍ إلا دخله شعاع جميل!

ثم رأيت..

رأيت فتح الله وسط الجموع، كان يشير بإصبعه عاليا نحو منبع الأسرار..

كانت دموعه تشرق مسرورة بمطالع الزمان الجديد، وكان يحمل مفاتحه القديمة، ومحفظته الصغيرة.. ثم تَرَجَّلَ عن فرسه، وجعل يمشي الهوينى بين الصفوف، حتى اعتلى منبره، وأعلن للناس وحدة المطالع في كل الجهات..

وهنا أعلن فتح الله للعالم سره!

....

حدثني راوي الأشجان قال:

في مجلس من مجالس الدور الخامس المطل على كل الدنيا، سئل فتح الله:

- يا سيدي! وكيف رأيت ما رأيت؟

قال:

- عندما تصفو الدمعة من الأكدار، وتخلص الأشواق لبارئها، تنكشف الأستار عن الأنوار..

فتنجلي معالم الطريق للسائرين!

تم بحمد الله.

رواية شاعرية النفس، واقعية المضمون، وهّاجة النور، شاجية الأحزان، شاجية القلب، نازفة الروح، وجيعة الوجدان، تغني للأمل، وتهتف للمستقبل تكفكف الدمع، وتمسح الألم.

الفهرس

الفصل الثاني

بين الكتب والأغنام

الفصل الثالث

مَنْزِلَةُ الكَشْفِ والتَّجَلِّي

الفصل الرابع

فتوحاتُ "أَدِرْنَه".. من الخلوات إلى الجلوات

الفصل الخامس

مُكابَداتُ التجنيد الإجباري!

الفصل السادس

العودة إلى ثغور تِرَاقْيَا

الفصل السابع

الهجرة الكبرى إلى إزمير أوّلِ رباطٍ لخيل الفتوح..!

الفصل الثامن

فتوح البلدان وانتصار الفرسان